
وزارة الثقافة والارشاد القومي
مديرية التأليف والترجمة
الصَّبيُّ الأسْوَدُ
تأليف : ريتشارد رايت
ترجمة : سهيل أيوب . المحامي
مراجعة : الدكتور غسان الملاح
سلسلة روائع الأدب الغربي — ٤

الصبي الأسود





وزارة الثقافة والارشاد القومي

مديرية التأليف والترجمة

الصَّبيُّ الأسْوَدُ

تأليف : ريتشارد رايت

ترجمة : سهيل أيوب ، المحامي

مراجعة : الدكتور غسان المالح

سلسلة روائع الأدب الغربي

٤

في النهار يصدمون ظلاماً

ويتلمّسون في الظهيرة كما في الليل ...

سِفرُ أيّوب



بقلم : دوروثي كانفيلد فيشر

قبل خمسة وثمانين عاماً او يزيد ، تحدث اوليفر وندل هولمز بشهامة قائلا : ((ما أهون أن نسلّم روحاً الى التهلكة او ان نرفع الصلوات لانقاذها ، من أن نلوم أنفسنا لأنا تركنا هذه الروح تشبُ مهملةً وتتدهور الى الدمار . وقد بدأ القانون الانكليزي ، في اواخر القرن الثامن عشر فقط ، يعتنق الفكرة القائلة ان الجريمة ليست خطيئة بالضرورة . إن حدود المسؤولية الانسانية لم تُدرس قط بصورة كافية جيدة)) .

ولو ان الدكتور هولمز على قيد الحياة الآن ، فهو سيفخر ولا ريب ، مثلما أفخر أنا ، بهذه الفرصة التي سنحت لي كي اقدّم الى الأميركيين الأذكياء ، المسؤولين أخلاقياً ، هذه القصة النبيلة ، المريعة ، الأليمة ، لطفولة زنجي وفتوّته ، مثلما خطها يراع ذلك الكاتب الأميركي النادر الموهبة ، ريتشارد رايت .



١

في بكور صباح شتوي في الماضي السحيق ، ولي من العمر أربعة أعوام ، وجدتني منتصباً أمام مصطلى ، أنحني فوق كومة من الفحم المتأجج اللفوح لأشيع الدفء في يدي ، مرهفاً أذني إلى الريح الجفول تصفر وهي مارة بالمنزل . لقد ظلت أمي تزجرني الصباح بطوله ، تهيب بي أن أركن إلى هدوء ، وتحذرني كيلا أثير أية ضوضاء . وكنت غضبان ، متبرماً ، لا طاقة لي على صبر .

فجدتي ، في الحجرة المجاورة ، أوثقتها العلة الى فراشهــا تحت عناية الطبيب ليل نهار ، وكنت أدري ألاّ مفرّ من العقاب إذا لم أرضخ . اجتزتُ الغرفة حتى بلغت النافذة على مضض ، فأزحتُ ستائرها البيض الطويلة الزغباء ــ وكان لمسها محظوراً عليّ ــ وأنفذتُ بصري بلهفة إلى الشارع المقفر . كنت أحلــم بالهرب واللعب والصياح ، إلا أن الصورة الحية لوجــه جدتي العجوز الابيض ، المغضّن ، المتجهّم ، المؤطّر بهالة مــن الشعر الأسود المنسدل ، والمضطجع على منبذة ضخمة من الريش ، هذه الصورة ملأت قلبي فـَرَقاً .

كان البيت ساكناً ، وأخي الذي يصغرني بعام واحد يَرْبَعُ إلى الخلف مني على الأرض ، يلهو وادعاً بدميته .. ومرّ طــير الى جانب النافذة يصفق بجناحيه ، فحيّيته بصيحة فرحة ميّادة .

قال أخي :

ــ يفضل أن تسكت .

فنبرتُ :

ــ إخرس أنت .

واندفعت أمي إلى الحجرة خفيفة الخطو ، وآصدت الباب من ورائها . هرعت إليّ ، وحركت إصبعها في وجهي متوعــدة ، ثم همست :

ــ كفّ عن هذا الزعيق ، أسامعٌ أنت ؟ أنت تعلم أن الجدة

مريضة ، فالزم الهدوء أفضل لك •

فصعَّرت خدي ، وكشَّرت • وبرحت أمي الحجرة ، فأرمضني الضجر •

حدَّد أخي بصره إليَّ ، وقال :

ـ لقد أنذرتك •

فأجبته من جديد :

ـ إخرس أنتَ •

ورحت أقيس الغرفة فاتر الهمة ، أُكدُّ ذهني بحثاً عن شيء أعمله ، أتوجَّس الشرَّ من عودة أمي ، ممتعضاً مُستاء من إهمال أمري • ولم يكُ في الغرفة ما يسترعي الالتفات غير النار ، فتوقفتُ في خاتمة المطاف قبالة الجمر المتأرِّث ، والفحم المرتعش يسحر لبي ويفتنني • وخطرت لي فكرة" عن لعبة جديدة ، وتمكَّنت من ذهني • لمَ لا أُطوِّح بشيء في النار وأرقبه يتلظَّى محترقاً ؟ ورنوتُ في ما يحيط بي • ليس ثمة سوى كتابي المصوَّر ، ولتضربنني أمي إن أطعمته للنار • ماذا هنالك إذن ؟ ورحتُ أتصيَّد حواليَّ حتى عثرت على المقشة في خزانة • هذه هي ••• من عساه يتضايق إنْ أنا أحرقت بضع قشات ؟ وتناولت المقشة وانتزعتُ حزمة منها ونثرتها في النار ، وجعلتُ أرمقها تنفث دخانها ، وتسودُّ وتتأجج ، وتغدو من بَعْدُ حزمة بيضاء من الأخيلة المتلاشية • إنَّ حرق القش لتسلية لذيذة ،

فمزّقت كمية أكبر من المكنسة ودفعتها في النار . واقترب أخي مني ، وعيناه منجذبتان إلى القش الملتهب . نبر قائلاً :

ـ لا تفعل هذا .

فسألتُ :

ـ ولِمَ ؟

ـ ستحرق المقشة بكاملها .

ـ أطبق شفتيك ، أنتَ .

ـ سأخبرهم بما فعلتَ .

ـ فأضربكَ .

كانت فكرتي تنمو وتزدهر . وأنشأتُ أتساءل الآن كيف ستبدو السُتُر البيض الطويلة الزغباء إذا ما أشعلتُ رزمة من قش وأمسكتُ بها تحتها . هل أجرّب ذلك ؟ بكل تأكيد . وتناولت عدة قشات ، ودسستها في النار حتى اشتعلت ، وهرعت إلى النافذة وأقمتُ اللهب في تماسٍ مع حاشيةالستر .وهزّأخي رأسه ، وصاح :

ـ لا تفعل .

لقد تكلّم بعيد فوات الوقت . هذه دوائر حمرٌ تلتهم القماش الأبيض . وهبّ من ثمة وميضٌ من اللهب ، فتراجعتُ مذعوراً جفلان . وحلّقت النار حتى السقف ، فارتجفتُ خوفاً . وما أسرع أن أضاءَت الغرفةَ صفحةٌ من اصفرار ، فانخلع

فؤادي هلعاً . وأردتُ أن أصرخ ، لكني كنتُ مذعوراً.
وتطلّعت حوالي باحثاً عن أخي ، فما وقعتُ له على أثر . إن
نصف الغرفة يلتهب الآن ، وهذا الدخان يكتمُ أنفاسي والنار
تلحسُ وجهي ، فأجاهد بقوة كي أتنفس .

وإلى المطهى تواثبتُ . كان الدخان يصطخب هنالك أيضاً .
لسوف تشمُّ أمي رائحته سريعاً ، وترى النار ، فتأتي وتضربني.
لقد أتيت أمراً إدّاً ، أمراً لن أستطيع إخفاءه أو إنكاره . أجل ،
لسوف أهرب ولا أعود أبد الدهر . وركضتُ إلى الساحة الخلفية.
أين يمكنني الذهاب ؟ أجل ، تحت البيت ! ولن يعثر أحدٌ عليَّ
هنالك . وتجمّعتُ تحت البيت وزحفتُ إلى فجوة مظلمة في
مدخنة قرميدية ، وانطويتُ في عقدة مُحكمة . يجب ألا تجدني
أمي فتلهبني بالسوط جزاء ما اقترفت يداي . وعلى أية حال ،
إن ما حدث لم يكن إلا مصادفة ، فأنا لم أنوِ في الحقيقة إحراق
البيت ، بل أردت فقط أن أرى كيف تبدو الستر وهي تلتهب .
أما أنني أختبىء تحت بيت تأكله النار فشيء لم يخطر لي أبداً .

وسرعان ما تدفقت خطوات تقعقع على الارض فوقي . وتناهى
إليَّ صدى صراخ وزعيق . وسمعتُ أخيراً أصوات أجراس
عربات الاطفاء ، ووقع حوافر الأحصنة ، تدفُّ من ناحية الشارع .
بلى ، ثمة نار حقيقةٌ ، نار تماثل تلك التي رأيتها مرة تلتهم منزلاً
وتمسحه عن وجه الأرض ، فلا تخلّفُ منه سوى مدخنة تنتصبُ

سوداء فاحمة . وتيبّست رعباً . وراح رعـد الأصوات فوقي يهزّ المدخنـة التي التصقتُ بها . وازدادت أصـداء الصراخ والزعيق قوة . وشاهدتْ صورة جدتي مستلقيـة على فراشها عاجزة لا حيلة لها ، يصطرع لهب" أصفر في شعرهـا الأسود . هل اشتعلت أمي ؟ وهل سيحترق أخي ؟ لعلّ جميع من في البيت سيحترقون ؟ لِمَ لمْ أفكر في هذه الأمور قبل أن أشعل النار في الستر ؟ وتَمنّيتُ أن أختفي عن الأنظار ، أن تفارقني الحياة . وتعاظمت الضجة فوقي ، فأخذت أبكي . وتراءى لي أن دهوراً طويلة توالت عليّ في مخبئي ، وما انقطعت الضجة والصراخ حتى أحسستُ بالوحدة ، فكأن الحياة طرحتني عنهـا إلى الأبد . وتردّدت أصوات في جواري ، فارتعشت أوصالي جميعاً .

كانت أمي تصيح في جنون :

ــ ريتشارد !

ورأيت قدميها وحاشية ثوبها وهي تتنقّل بخطاً سراع فـي الساحة الخلفية . كان نواحها مشحوناً بعذاب دلتني شدته على أن عقابي لن يكون إلا بقدر عمق ذلك العذاب . ثم رأيت وجهها المتوتر يسترقّ النظر تحت حافة البيت . لقد وجدتني ! فأمسكت أنفاسي وانتظرت أن أسمعهـا تأمرني بالخروج إليها . وغـاب وجهها .. كلا ، إنها لم ترني متراكماً في رُكن المدخنة . وزحمتُ رأسي بين ذراعي ، وراحت أسناني تصطفق .

ــ ريتشارد !

كان الألم الذي استشعرتُ في صوتها حاداً واخزاً مثل لسعة السوط على جسدي .

ــ ريتشارد ! البيت يحترق . أووه ، جدوا ولدي !

أجل ، كان البيت يحترق ، بيد أني عزمتُ ألا أغادر بقعة الأمان حيث اعتصمتُ . ووقع بصري آخر المطاف على وجه آخر يختلس النظر من تحت حافة البيت ، ذلك وجه أبي . ولا مرية أن عينيه اعتادتا الظلمة ، إذ ما لبث أن أشار إليّ .

ــ هنالك هو !

فزعقتُ :

ــ كلا !

ــ تعال ، يا صبي !

ــ كلا !

ــ البيت يحترق !

ــ دعوني وشأني !

فزحف صوبي ، والتقط إحدى ساقي . فتعلّقت بحافة المدخنة القرميدية بكلّ ما صبّ فيّ من قوى . وجذب والدي ساقي ، فتشبّثتُ بالمدخنة بقوة أكثر .

ــ أخرج من هنا ، أيها الأحمق الصغير !

ــ دعني .

لم أقوَ على مقاومة الجذب على ساقي ، فتراخت أصابعي • لقد انتهى كل شيء ـ سوف ينالني الضـرب شديـداً مبرحاً • وما عدتُ أبالي شيئاً • فأنا أعرف ما سيعقبُ ذلك • وجرّنـي إلى الساحة الخلفية ، ولـم تكد يدُه تفلتني حتى وثبتُ على ساقيّ واندفعتُ في ركض وحشي ، محاولاً التملّص من القوم المحيطين بي ، متخذاً سمتي صوب الشارع • وقبض عليّ قبل أن أقطع عشر خطوات •

ومنذ تلك اللحظة اختلطت الأمور عليّ • وأدركتُ مـن خلال النحيب والصراخ والأحاديث المضطربة أن النار لم تَطوِ عمر أحد • ويلوح أن أخي تغلّب أخيراً على هلعه بصورة تُمكّنه من إخبـار أمي ، لكن ليس قبلما أتت النـار على نصف البيت فأتلفته • واستخدم جدي وأحد أخوالي الحَشيّة على شـكل محفّة ، وحملا الجدة عن سريرها وركضا بها إلى مكان أمين في دار أحد الجيران • وأقنعت غيبتي وصمتي الطويلان الجميـع ، طوال فترة ، أني قضيتُ في ذلك اللهيب •

همهمت أمي ، وهي تنزع الأوراق عـن غصن شجرة تعده لضربي :

ـ لقد أخفتنا حتى الموت •

جلدوني بقسوة وشدة حتى فقدتُ الرشد • ضربوني حتى غبتُ عن وعيي لأجدني من بعد طريح الفراش ، أَصيح وأُعول

مصمماً على الهرب ، أتناحر مع أمي وأبي اللذين يحاولان تهدئتي . وكنتُ ضائعاً في ضباب من الخوف . وجيءَ بطبيب ـ وهذا ما علمتُ به بُعيد زمن ـ فأمر أن ألزم الفراش وأجنح إلى السكينة ، قائلاً إن حياتي نفسها رهينة بهذين الأمرين . وكان يخال لي أن جسدي يشتعل ، وما عرفت للنوم طعْماً . ووُضعت أكياسٌ من الثلج على جبهتي لتخفّف من لظى الحمى . وأيّان ما حاولت النوم ، لمحتُ زكائب بيضاً ضخمة مترنّحة ، أشبه بضروع أبقار حلوب طافحة ، تتدلى من السقف فوقي . ولما ازدادت الحال بي سوءاً ، صرت أرى تلك الزكائب في وضح النهار وعيناي مفتوحتان ، فيعتصرني الخوف من إمكان انهيارها عليّ بين لحظة وأخرى وإغراقي بسائل فظيع . ورحتُ أتضرّع إلى أمي وأبي ليلاً ونهاراً ليبعداها عني ، مشيراً إليها ، مرتجفاً هلعاً لأن أحداً سواي لا يراها . وكان الضنى يجرني إلى النوم ، وعندئذ أروح أزعق حتى أستيقظ من جديد . كنت أخشى النوم وأفرق منه . وحملني الزمن أخيراً بعيداً عن تلك الزكائب الخطرة ، وتحسَّنت حالي . وظللتُ طوال زمن مديد أتألم كلما خطر على صفحة ذاكرتي أن أمي كادت توردني موارد الهلاك .

★ ★ ★

كل حَدَث يتكلم بلسان خفيّ المعنى والمغزى ، وهنيهات الحياة تميط اللثام شيئاً فشيئاً عن معانيها المبهمة . لقد كان ثمَّ

تلك الدهشة التي أحسستُ حينما شاهدتُ للمرة الأولى زوجاً من الأحصنة الجبلية ، الملطخة بالأسود والأبيض ، يخبّان هابطين درباً مُتربةً وسط غمائم من الطين المتناثر .

وهنالك ذلك الفرح الذي داخلني ، لدى رؤية صفوف طويلة مستقيمة من خضراوات حمر وخضر ، تنتشر بعيداً تحت أشعة الشمس حتى الأفق البرّاق .

وتلك القبلة الضعيفة الباردة من الشهوانية حينما سقط الطلُّ على خديَّ وذقني ، بينا أنا أعدو في طرقات الحديقة الخضراء الرطبة في الصباح الباكر .

والإحساس الغامض باللانهاية حين رميتُ بصري ، من فوق جُرْفِ « ناتشي » المغطى بالعشب ، على مياه نهر الميسيسيبي الصفراء الحالمة .

وكان ثمة تلك الأصداء من الحنين إلى الوطن ، سمعتُها في الأوتار الباكية لأوزّة وحشية تطير صوب الجنوب ، تحت سماء خريفية قارسة .

وتلك الكآبة التي تخدع بالأماني الكاذبة التي وجدتها في أريج أخشاب شجر الجوز الملتهبة .

وذلك الغيظ وتلك الرغبة المستحيلة في تقليد الكبرياء الطفيفة للعصافير الدورية التي تتمرّغ وتنتفض في غبار دروب القرى الحمر .

وأيضاً تلك اللهفة إلى تحقيق الذات ، المنطلقة في جوانحي لدن رؤية نملة وحيدة تشيل حملاً في رحلة غامضة .

وذلك الازدراء الذي يملؤني عندما أعذب جرادبحر مزهر اللون الأزرق رقيقاً ، يترنح بخوف في صفيحة رقيقة صدئة موحلة .

وهنالك تلك العظمة الأليمة التي أحس في جماهير السحب المشعة بالذهب والأرجوان ، بنيران شمس غير منظورة .

ولم أنس ذلك القلق المائع الذي أبصر في اللمعان الدموي الحمرة لنور الغسق ، المتلألىء على ألواح الزجاج المربعة للبيوت المدهونة باللون الأبيض .

وذلك الاسترخاء الذي استحوذ علي وقتما سمعت أوراقاً خضراً تخشخش بصدى يشبه هطول المطر .

وذلك السر غير المفهوم ، المتجسم في فطر مبيض يختبىء في الظل الأسود لكتلة متعفنة من الخشب .

وأيضاً ذلك الاختبار للشعور بالموت من غير أن أموت ، وقد راودني لدى مشاهدتي صوصاً يتواثب بصورة عمياء بعدما دق عنقه بلوية سريعة من يد والدي .

وكان ثمة تلك النكتة العظيمة التي أدركت أن الله ضحك بها على القطط والكلاب ، حين جعلها تلعق الحليب والماء بألسنتها .

وذلك العطش الذي اجتاحني حين شاهدتُ انبجاس عصير صاف حلو المذاق من انهصار قصبة سكر •

وذلك الهلع الحارّ الذي غصَّ في حلقي ، وانساح في دمي لما أبصرتُ للمرة الأولى التمعُّجات الكسولة الرخوة لأفعى زرقاء الجلد غافية تحت أشعة الشمس •

وكانت تلك الدهشة الخرساء التي استولت عليَّ حين رأيت خنزيراً مطعوناً في قلبه يغطس في ماء غال ، ويكشط جلده ، ويفتح جوفه لتخرج أمعاؤه ، ثم يربط دامياً فاغر الخطم •

وذلك الحبُّ الذي أضمر للجلال الأخرس الذي يتمتع بـه شجر السنديان الطويل المغطى بالأشنيات •

وهنالك ذلك الشعور بالقسوة الكونية الذي انتابني لَدُنْ رؤيتي الأخشاب المقوسـة لكوخ خشبي التوى بفعـل شمس الصيف •

ومن بعده الرضاب الذي يتشكل في فمي كلما تهب على أنفي رائحة الطين ممزوجة بالمطر النديّ •

والشعور الغامض بالسَّغَب وقتمـا أتنفَّس رائحـة عشب نازف مقتطع حديثاً •

والرعب الهـادىء الذي يُخضِّب إحساساتي حينما تغسل الأرضَ سُدُمٌ فِيحٌ من الذهبِ ، من سموات تعجُّ بالنجوم في الليالي الساكنة •••

أخبرتني أمي ذات يوم أنّا سنمضي إلى ممفيس في قارب ، اسمه « كيث أدامز » فجعل شوقي إلى تلك الرحلة الأيامَ التالية تلوح وكأنما لا نهاية لها . وكنت أمضي إلى سريري كل ليلة يداعبني الأمل في أن يكون الغداة موعد الرحيل المُرتقب .

استوضحتُ أمي :

ــ كم يبلغ حجم القارب ؟

فردّت :

ــ حجم جبل .

ــ وهل له صافرة ؟

ــ نعم .

ــ وهل تصفر ؟

ــ طبعاً .

ــ متى ؟

ــ وقتما يريد القبطان أن تصفر .

ــ لماذا سمّوه كيث أدامز ؟

ــ لأن هذا هو اسم القارب .

ــ وما لونه ؟

ــ أبيض .

ــ وكم سيدوم بقاؤنا عليه ؟

ــ طوال يوم وليلة .

ــ وهل سننام فيه ؟

ــ نعم • حينما نشعر بالنعاس نلجأ إلى النـــوم • والآن ، صمتـــاً •

ظللت طوال أيام أحلم بقارب أبيض ضخم يسبح على جسد مياه عظيمة ، ولما حملتني أمي وهي تهبط الجسر المؤدي إلى القارب يوم الرحيل ، شاهدتُ قارباً صغيراً قذراً لا يشبه في شيء ذلك القارب الذي داعب أحلامي • وخابت آمالي ، فما أزفت ساعـــة الرحيل حتى بكيتُ ، فهسَّ في خاطر أمي أني راغب عن مرافقتها إلى ممفيس ، وما كـــان في طوقي أن أخبرهـــا بجليَّة الأمـــر • وغمرتني السلوى وأنا أطوف أرجاء القارب أحدّق إلى الزنوج يلقون بالنرد ، ويشربون الويسكي ، ويلعبون الورق ، ويتهالكون على الصناديق ، يأكلون ويتحدثون ، ويطلقون حناجرهم بالغناء • وهبط بي والدي إلى غرفة الآلات ، فاستعبدتني الآلات الخافقة طوال ساعات •

أقمنا في ممفيس في بيت من الآجرّ ذي طابق واحد • وبدت البيوت الحجرية وأرصفة الاسمنت كئيبة عدائية في عينيَّ • إن انعدام الخضرة والنباتات الحية جعلت المدينة تظهر وكأنها متلفّعة بالموت • وكانت رقعة حياتنا نحن الأربعة ــ أمي ، أخي ، أبي ، وأنا ــ مطهىً وحجرة نوم • وكان أمام البيت وخلفه مساحات ممهّدة أستطيـــع وأخي اللعب في أرجائها ، لكنني بقيت أيامـــاً

بطولها أخشى الخروج إلى شوارع مدينة غريبة لوحدي •

في تلك الشقة دخلت شخصية والدي للمرة الأولى في فلك اهتمامي بصورة كلية •• عمل حارساً ليلياً في مخزن للأدوات والعقاقير الطبية في شارع بيل ، فلم يصبح انساناً هاماً ذا سلطة في نظري إلا حينما تأكدت من عجزي عن إثارة أية ضوضاء أثناء نومه في النهار • كان الآمر المطلق في عائلتنا ، ولم أعرف الضحك قط في حضرته • ولقد اعتدت التربص في ممر المطهى أراقب جسده الضخم يجلس متهالكاً إلى الطاولة • وأحملق فيه والرهبة تفعمني ، بينا هو يجرع جعته في قدح من التوتياء ، أو يمضغ الطعام طويلاً وببطء ، أو يتنهد ويتجشأ ، ويغلق عينيه لينقر على بطن محشو • كان على قدر كبير من السمنة ، ومعدته المنتفخة تندلق على الدوام فوق حزامه • انه ، أبداً ، غريب بالنسبة إلي ، بعيد ناء بصورة دائمة •

وعثرنا ذات صباح ، أخي وأنا ، ونحن نلعب في مؤخرة شقتنا ، على قطة ضالة تطلق مواء عالياً لا ينقطع أو يفتر • وأطعمناها بعض كسر من خبز وسقيناها ماء ، إلا أنها استمرت على موائها •• وتعثر والدي ناعساً في ثيابه التحتية حتى الباب الخلفي ، والتمس أن نركن إلى الهدوء • وأخبرناه أن القطة هي مصدر ذلك الضجيج ، فأمرنا بطردها • وحاولنا حملها على مبارحتنا ، لكنها لم تتزحزح •

غضب أبي وصاح :

ــ بست !

وتوانت القطة الكسول ، وهي تتمسّح بأقدامنا ، وتموء بشكوىً وألم .

وانفجر والدي :

ــ اقتلا هذا الشيء الملعون . إفعلا أيّ شيء ، لكن أبعداها من هنا !

ودخل البيت ، مهمهماً مزمزماً .. استنكرت صراخه ، وأرمضني أني لم أستطع قط جعله يشعر بحنقي . كيف يمكن أن أردّ له واحدة بواحدة ؟ أوه ، أجل ... لقد أمر أن نقتل القطة وسوف أقتلها ! أنا أعرف تماماً أنه لم يطلب اليّ أن أفعل ذلك حقاً ، بيد أن حقدي العميق عليه دفعني إلى تنفيذ كلمته بصورة حرفية .

التفت إلى أخي :

ــ أمرنا أن نقتل القطة .

فردّ أخي :

ــ لم يقصد ذلك .

ــ بل قصده ، ولسوف أقتلها .

فأعلن أخي :

ــ إذن ، لسوف تموء .

فقلتُ :

ـ لن تستطيع ذلك، وهي تموت .

فاحتجّ أخي :

ـ إنه لم يقل اقتلها حقاً .

فأبنتُ :

ـ لقد قال ! وأنتَ سمعته !

فولى أخي خائفاً . وجدت قطعةً من حبل ، فصنعتُ أُنشوطة ، ووضعتها حول عنق القطة . فلهثتْ ، ورالتْ ، وتلوّتْ ، وتثنّتْ ، وخدشت الهواء بجنون بعدما أمررتُ الحبل على مسمار ورفعتها عن الأرض . وانفتح فمها أخيراً ، واندلق منه لسانها الزهري الضارب إلى البياض متيبّساً . وربطتُ الحبل في مسمار آخر ، وقمتُ أبحث عن أخي . كان منكمشاً خلف زاوية البناء .

همستُ :

ـ لقد قتلتها .

فقال أخي :

ـ ارتكبت شراً .

فأعلنتُ ، والرضى في أعماقي :

ـ في قدرة والدنا أن ينام الآن .

فجمجم أخي :

ــ لم يطلب إليك أن تقتلها .

فاستوضحتُ :

ــ إذن ، لماذا « قال » لي أن أفعل ذلك ؟

فلم يُحِرْ أخي جواباً ، بل راح يحملق في القطة المدلاة خائفاً .

حذّرني :

ــ هذه القطة ستنالك .

ــ هذه القطة لا تستطيع التنفس الآن .

فقال أخي ، وهو يركض :

ــ سأُخبرهم بما فعلتَ .

وانتظرتُ ، عاقداً النية على الدفاع عن نفسي بكلمات والدي الطائشة ، متصوّراً فرحتي حين أكرّرها عليه رغم معرفتي أنه تفوّه بها في ثورة من غضب . وهُرعت أمي إليّ ، تُجفف يديها بمئزرها . توقفت ، وشحب لونها لما وقعتْ عيناها على القطة معلّقة بالحبل .

سألت :

ــ ماذا فعلتَ ، بحق الله ؟!

فأوضحت الأمر لها :

ــ كانت القطة تحدث صخباً ، وأمرني والدي بقتلها .

فزعقتْ :

ـ أيها الأحمق الصغير ! لسوف يضربكأبوك من أجل هذا!
ـ هو الذي أمرني بقتلها .
ـ أطبق شفتيك !
وتنشتْ يدي ، وجرتني إلى حجرة والدي ، وسردت عليه القصة .
عَصَفَ والدي :
ـ كنت تستطيع أن تفعل أحسن من هذا !
ـ أنت أمرتني بقتلها .
فجأَر :
ـ أنا أمرتك بطردها من هذا المكان .
فجابهته بعزم :
ـ أنت أمرتني بقتلها .
فهزَّ والدي في اشمئزاز :
ـ أُغرب عن عينيَّ قبلما أسحقك !
واستدار في سريره .
لقد حققت انتصاري الأول على أبي ، وجعلته يؤمن أنني نفّذت كلماته بالحرف الواحد . ولن يقوى على عقابي بعد الآن دون أن يخاطر بسلطته . كنتُ سعيداً لأني عثرتُ أخيراً على طريقة أُطوِّح بها بانتقادي إياه في وجهه . لقد جعلته يشعر أنه إذا ضربني لأني قتلت القطة ، فلن أُعلّق إذن أدنى أهمية على

كلماته بعد اليوم • وجعلته يدرك أني أحسستُ بقسوته ، دون أن أدع له مجالاً ليعاقبني •

أما أمي ، وكانت أكثر خيالاً ، فقد ثأرت مني بحملة شنّتها على إحساساتي بحيث سحقتني بذلك الرعب الأدبي الكامن في قتل نفس حيّة • ولم تفتأ ، بعد ظهر ذلك اليوم بطوله ، توجه إليّ كلمات مقصودة بذّرت في فكري حشداً من شياطين غير مرئية تنوي ثأراً حقيقياً مني لما اقترفت يداي • ولما اقترب المساء ، ملأتني الخشية ، ويبّسني الخوف من الدخول إلى غرفة فارغة نوحدي •

قالت أمي :

ــ أنت مدين بدين لن تستطيع له وفاءً •

فغمغمتُ :

ــ أنا آسف •

ــ الأسف لا يردُّ تلك القطة إلى الحياة •

وقبل أن أمضي إلى فراشي ، فاهت بإيعاز شلّني ، إذ أمرتني بالخروج في غلس الليل ، فأحفر قبراً ، وأدفن القطة في جوفه •

زعقتُ ، شاعراً أن روحاً شريرة ستختطفني إذا ما تجاوزت البـاب :

ــ كلاّ !

فأمرت :

ـ أُخرج وادفن تلك القطة المسكينة .

ـ أنا خائف !

ـ أفما كانت القطة خائفة لحظةَ أحكمتَ ذلك الحبل حول عنقهـا ؟

فأعلنتُ :

ـ لكنها لم تكُ سوى قطة .

فصاحت :

كانت تنبض بالحياة . أفي مقدورك ردّها إلى الحياة مـن جديـد ؟

فأبنتُ ، محاولاً إلقاء اللوم على أبي :

ـ لقد أمرني بابا بقتلها .

فصفعتني أمي على فمي براحة يدها :

ـ كُفّ عن ذلك الكذب ! كنت تعرف ما يقصد !

فصرخت :

ـ لم أكُ أعرف .

فقذفت رفشاً صغيراً في يديّ :

ـ أُخرج ، واحفر حفرة ، وادفن القطة !

وتعثرت إذ خرجتُ إلى الليل البهيم ، وأنا أنشجُ ، وركبتاي تنتفضان رعباً . ورغم معرفتي أني قتلتُ القطة ، فقد أحيتهـا كلمات أمي في ذهني من جديد . ماذ ستفعل تلك القطة بي حين

آ لمسها ؟ هل تخدشني في عينيّ ؟ وبينا أنا آتلمّس طريقي صوب القطة المائتة ، تسللت أمي خلفي ، مختفية في الظلمة ، وصوتها الغامض يستحثني •

توسلت إليها :

ـ أمي ، تعالي قفي إلى جواري •

فاستعلمت ، معنّفة وهي في مكانها في قلب الظلمة المخيفة :

ـ أنت لم تقف إلى جوار تلك القطة ، ففيم وقوفي إلى جوارك ؟

فنشجتُ ، وأنا أشعر أن القطة تحملق فيَّ بعينين موبختين :

ـ لا أجسر على لمسها •

فأمرت :

ـ فكّها •

حرّرت الحبل مرتجفاً ، فهوت القطة على الرصيف وقعقعتْ على بلاطه بحيث ظلّ صداها يرود ذهني طوال أيام وليال • ثم ، وإطاعة لصوت أمي السابح ، بحثتُ عن بقعة في الأرض،وحفرت حفرة غير عميقة ، ودفنت القطة المتيبّسة ، فوخزني جلدي إذ حملتُ جسدها البارد • ولما انتهت عمليةالدفن تنفستالصعداء، ورجّعت بصري إلى البيت ، بيد أن أمي قبضت على يدي واقتادتني إلى قبر القطة ، وقالت :

ـ أغلق عينيك وردّد بعدي •

فأغلقتُ عينيّ بقوة ، ويدي متشبثة بيدها .

ـ يا الله العزيز ، يا أبانا ، سامحني ، لأني لم أكُ أعرف ماذا أفعل ...

فتلوتُ من بعدها :

ـ يا الله العزيز ، ياأبانا ، سامحنيلأنيلمأكُأعرفماذاأفعل .

ـ ووفّر حياتي البائسة ، رغم أني لم أوفّر حياة القطة .

ـ ووفّر حياتي البائسة ، رغم أني لم أوفّر حياة القطة ...

ـ ولا تختطف نسمة الحياة مني وأنا نائم هذه الليلة ...

وفتحتُ فمي ، فلم يفه بحرف . لقد تجمّد ذهني رعباً . وتصوّرت نفسي أُجاهد للتنفّس ، ثم أموت وأناغارق فيلفائف النوم . وتخلّصت من قبضة أمي ، وهربتُ إلى جوف الليل ، صائحاً ، مرتجفاً من الفزع .

ونشجتُ :

ـ كلاّ .

ونادتني أمي عدة مرات ، لكنني رفضت العودة إليها .

قالت أخيراً :

ـ حسناً ، أعتقد أنك تعلّمت درساً .

مضيتُ إلى سريري تائباً ، وأنا أرجو ألا أرى قطة أخرى أبد الدهر .

★ ★ ★

زحف الجوع عليّ ببطء شديد حتى لم أفقه أول الأمر ماذا يعني الجوع في الحقيقة . كان الجوع يثقل دائماً على كاهلي وقتما يستغرقني اللعب . أما الآن فأستيقظ ليلاً لأجد الجوع واقفاً إلى جوار سريري ، يحملق فيّ شاحب اللون . إن الجوع الذي عرفتُ قبل اليوم لم يكُ أبداً غريباً متجهّم الطلعة يناصبني العداء ، كان جوعاً طبيعياً يجعلني أستجدي الخبز دواماً ، وحين ألتهم كسرة أو كسرتين أشبع وأقتنع . بيد أن هذا الجوع الجديد يحيرني ، ويخيفني ، ويخلّفني غضبان لجوجاً . فأنا كلما استجديتُ الآن طعاماً أهرقت لي أمي قدحاً من الشاي يسكت الصراخ في معدتي دقيقة أو دقيقتين ، ولا تمضي بضع ثوان أُخر حتى أشعر بالسغب يخز أضلاعي من جديد ، ويعصر أمعائي الفارغة حتى درجة الإيلام . ويعظم الدوار في رأسي ، وتحلولك رؤيتي . وأمسيت أقل حيوية في لعبي ، واضطررت للمرة الأولى في حياتي أن أقف وأمعن التفكير فيما يحدث لي .

شكوتُ بعيد ظهيرة أحد الأيام :

ـ أماه ، إني جائع .

فقالت ، محاولة حملي على الضحك والنسيان :

ـ أقفز وتصيَّد كعكعاً .

ـ وما هو الكعكع ؟

فردّت :

ـ الكعكع هو ما يلتهمه الأطفال الصغار حينما يجوعون .
ـ وما طعمه ؟
ـ لست أدري .
ـ إذن ، لمَ تأمرينني أن أتصيَّد واحداً منه ؟
فأجابت ضاحكة :
ـ أما قلت إنك جائع ؟!
واستشعرتُ أنها تسخر مني ، فاستشطتُ غيظاً :
ـ لكنني جائع . أريد أن آكل .
ـ يجب أن تنتظر .
ـ أريد أن آكل الآونة .
فأخبرتني :
ـ ليس ثمة ما تأكله .
ـ لماذا ؟
فأوضحت لي :
ـ ليس عندنا شيء .
فزعقتُ ، وقد انخرطتُ أبكي :
ـ أريد أن آكل .
فقالت ثانية :
ـ لا مناص لك من الانتظار .
ـ لكن ، لماذا ؟

ـ حتى يبعث الله بشيء من الطعام •
ـ ومتى يبعث به ؟
ـ لست أدري •
ـ لكنني جائع !

كانت تكوي ، فتوقفت ، وأتأرت بصرها إليّ والدموع في مقلتيهـا •

استوضحتني :

ـ أين والدك ؟

فحملقتُ في دهشة • أجل ! الحقيقة أن والدي لم يرجع إلى البيت للنوم منذ أيام ، بحيث صار في مكنتي إثارة أية ضجة تروقني • ورغم جهلي سبب غيابه ، فقد فاض الفرح في حناياي لأنه لم يعد موجوداً فيصيح بموانعه في وجهي • إنما لم يخطر لي في بال أن غيابه يعني فقدان الطعام في بيتنا •

قلتُ :

ـ لست أدري •

وسألتني أمي :

ـ من يحمل الطعام إلى البيت ؟
ـ أبي • فهو دائماً يأتينا بالطعام •
ـ حسناً ، إن والدك غير موجود الآن •
ـ أين هو ؟

ـ لست أدري •

فبكيت ، وأنا أضرب الأرض بقدمي :

ـ لكنني جائع •

فردّت تقول :

ـ عليك بالانتظار حتى أجد عملاً فأبتاع طعاماً •

وبينا الأيام تطويها عجلة الزمن ، غدت صورة والدي ممتزجة بنُصُصَّات جوعي ، وإما أحسستُ بالسَّغب تواثب فكري إليه بمرارة حياتية عميقة •

راحت أمي أخيراً تعمل طاهية ، وخلّفتني وأخي وحيدين في الشقة يزاملنا كلّ يوم رغيف خبز وابريق شاي • وحين كانت ترجع مساءً ، فهي على درجة عظيمة من الإعياء والانهيار حتى لتذرف الدموع طويلاً • وإما يطغى اليأس عليها في الأحايين تنادينا إليها ، وتروح تحدثنا ساعات ، تروي لنا أنّنا الآن من دون أب ، وأن حياتنا ستختلف عن حياة بقية الصغار الآخرين ، وأنه ينبغي لنا أن تتعلّم بأسرع وقت مُستطاع كيف نُعنى بنفسينا ، وكيف نلبس ثيابنا لوحدنا ، وكيف نهيىء طعامنا الخاص ، وحدثتنا أن من واجبنا الالتفات إلى واجبات البيت أثناء غيابها في العمل • وكنا نعدها بذلك بمهابة ، ونحن نصف مذعورين • ولم نفهم ماذا نشأ بين أبينا وأمنا ، فمعظم ما كانت تلك الأحاديث الطويلة تشعرنا به هو رهبة مبهمة • وكلما

استفسرنا عن سبب رحيل أبي عنا ، كانت تخبرنا أننا أصغر بعد من الإلمام بذلك .

وأخبرتني أمي ذات عشية أن من واجبي من الآن فصاعداً تبضّع الطعام . وصحبتني إلى المخزن القائم في إحدى الزوايا لتدلني على الطريق . كنت فخوراً . وشعرتُ أني أصبحت بالغاً . وبعيد ظهيرة اليوم التالي ، وضعتُ السلّة في ذراعي ، وهبطت الرصيف في اتجاه المخزن . وما إن بلغتُ الزاوية حتى قبضت عليّ عصابة من الصبيان ، وطوّحتني أرضاً ، واختطفت السلّة، وسرقت المال ، وردتني إلى البيت أعدو في هلع . وأطلعتُ أمي في العشية على ما حدث فلم تعقّب عليه ، بل جلست في الحال ، وكتبت مذكرة ثانية ، وناولتني مزيداً من النقود ، وبعثت بي إلى دكان البقالة من جديد . وزحفتُ أهبط السلّم ، فانصب بصري على أفراد عصابة الصبيان يلعبون في الشارع . فركضتُ قافلاً إلى البيت .

سألتني أمي :

ـ ما الأمر ؟

فرددت :

ـ أولئك الصبية . لسوف يضربونني !

فصاحت :

ـ حتّم" عليك التغلب على هذا الأمر . والآن ، انطلق .

فقلت :

ـ أنا خائف •

فردت :

ـ إمضِ ولا تلقِ بالاً إليهم •

ولفظني الباب ، فخطوتْ برشاقة أهبط ناصية الطريق ، راجياً ألا يقع نظر العصابة عليَّ • لكنني ما قاربت أفرادها حتى هتف أحدهم :

ـ ها هو ذا !

فاتجهوا صوبي ، فاندفعتُ في ركض وحشي نحو البيت •• وأدركوني ، وطوّحوا بي على الرصيف • جعرتُ ، وتوسّلت، ورفستُ بقدميَّ ، إلا أنهم استولوا على المال من راحة يدي • وأنهضوني على قدميّ ، وشيعوني بعدة صفعات ، وأرسلوني إلى البيت باكياً • فالتقطتني أمي على العتبة •

لهثتُ :

ـ لقد ضر ••• بو ••• ني • وأخذ ••• وا النق •• ود •

وبدأتُ أرقى درج السلّم ، وقد وجدت في البيت ملجأ •

حذرتني أمي :

ـ لا تدخل إلى هنا •

فتجمّدت في موقفي ، وتطلّعت إليها • قلتُ :

ـ لكنهم ساعون خلفي •

فأجابت في نغمة ميتة :

ـ إبقَ حيث أنت الآن . سوف أُعلّمك هذه الليلة كيف تهبّ وتقاتل دفاعاً عن نفسك .

وتلقّفها البيتُ ، وانتظرتُ أنا ، مرتعشاً هلعاً ، أتساءل عما عساها تفعل . ورجعت في الحال بمزيد من النقود ومذكرة أخرى . وكانت تحمل أيضاً عصاً ثقيلة . نبرت :

ـ إليك هذا المال ، وهذه المذكرة ، وهذه العصا . إمضِ إلى البقّال واشترِ هذه الأصناف . فإذا ضايقك أولئك الأغرار ، فدافع عن نفسك .

وامتلكتني الحيرة . كانت أمي تطلب إليّ أن أقاتل ، وهذا شيء لم تفعله من قبل قط .

قلتُ :

ـ أنا خائف .

ـ لا تعد إلى البيت قبل أن تتبضّع هذه الأصناف .

ـ سوف يضربونني ، سوف يضربونني .

ـ إذن ابقَ في الشوارع ، ولا ترجع إلى هنا !

فتسلّقت الدرج راكضاً ، وحاولتُ أن أشق طريقي إلى البيت بالقوة . ولكن صفعة قارصة حطت على حنكي . فانتصبتُ على الرصيف ، والعبرات تتدفق من عينيّ .

تضرّعتُ :

ـ أرجوكِ ، إسمحي لي بالانتظار حتى الغد .

ـ كلا ! إذهب الآن ! وإن رجعتَ إلى البيت من دون هذه الأصناف ، فسوف أهرّئك بالسوط !

وصفقت الباب ، وسمعتُ إلى المفتاح يتقلقلُ في قفله . ارتجفتُ رعباً ، فأنا وحيد في الشوارع الداكنة العدائية ، وثمة عصابات تجدُ في أعقابي . وإن أمامي أن أختار بين أن أضرب في البيت أو خارجه . وقبضت على العصا باكياً ، محاولاً الموازنة بين أمرين . إذا ضُربتُ في البيت ، فأنا لا أستطيع الاحتجاج أبداً ، أما إذا ضُربتُ في الشوارع ، فأمامي فرصة القتال والدفاع عن نفسي . وخطوتُ على مَهل أهبط الرصيف ، مقترباً من عصابة الصبيان ، قابضاً على العصا بإحكام وشدة . كنتُ أفيض بالخوف حتى تكاد أنفاسي أن تنقطع . وهذا أنا قد قاربتهم الآن كثيراً .

وارتفعت صيحة :

ـ هاهو من جديد !

وأحاطوني بسرعة ، وانثالوا يسعون خلف يدي .

هددتُ صائحاً :

ـ لسوف أقتلكم .

وأطبقوا عليّ ، فتركتُ العصا تطير في خوف أعمى ، وأحسستُ بها تقعقع على جمجمة أحد الصبية .. وتواثبتُ

كرة أخرى ، مضعضعاً جمجمة ثانية ، ثم ثالثة . وإذ أدركتُ أنهم سيطلبون الثأر إن تقاعست هنيهة ، جعلتُ أضرب لأنثرهم على الأرض ، لأجمّدهم رعباً ، لأقتلهم بحيث لا يردون على هجماتي . قاتلتُ والدموع تخنق عينيّ ، وأسناني مُطبقة ، وخوف صلب يرغمني على إهراق كل ذرة من قواي إثر كل ضربة تصدر عن عصاي . وضربت مرة وتكراراً ، وقد سقط المال ومذكرة البقالة مني . وتبعثر الصبية ، زاعقين ، يتلمّسون رؤوسهم ، ويحدقون اليّ في إنكار مُطلق . إن أبصارهم لم تقع أبداً على مثل هذه الثورة . وانتصبتُ ألهثُ ، أستثيرهم بكلماتي ، أتحداهم أن يقتربوا مني ويقاتلوني . ولما رفضوا ، لحقتُ بهم فهرعوا إلى بيوتهم ، صائحين صارخين . واندفع أهلوهم إلى الشوارع يهددونني ، فزعقتُ للمرة الأولى في حياتي في وجه الكبار ، وأخبرتهم أني لن أقصّر عن معاملتهم بالمثل إذا ما ضايقوني . وعثرتُ أخيراً على مذكرة البقالة والنقود ، فمضيتُ إلى المخزن . وفي درب عودتي احتفظتُ بالعصا على أهبة الحاجة المباغتة لها ، لكن أبصاري لم تقع على أي صبيّ البتة . في تلك الليلة ظفرت بحقي في الخروج إلى شوارع ممفيس .

وفي صباحات الصيف ، بعيد أن تمضي أمي إلى عملها ، كنت أتبع جماعة من الصبية السود ــ المهملين طوال النهار من قبل أهلهم العمال ــ إلى قعر رابية منحدرة تحمل قمتها صفاً

طويلاً من بيوت خلاء خشبية متداعية ، نهاياتها الخلفية تمكننا من أن نطل على منظر فج مفزع . كنا نقعد القرفصاء عند أقدام المنحدر نرفع أبصارنا إلى الأعلى ــ مسافة خمس وعشرين قدماً أو يزيد ــ لنرقب الأعضاء السرية لرجال ونساء سود ، وسمر ، وصفر ، وبيض . وكنا نغرق في الضحك ساعات ، ونومىء الى ما نرى ، ونهمس ، ونمزح ، ونتثبت من شخصيات جيراننا من مميزاتهم الفيزيولوجية ، معلقين على صعوبة تبرزهم أو قوته الاندفاعية ... ويرانا أحد الكبار أخيراً ، فيطردنا بصيحات غضبى مشمئزة . ومن وقت لآخر ، كان ثمة صبية في الثانية والثالثة من عمرهم يبرزون من خلف الرابية ، وقد تلوثت وجوههم ولهثت أنفاسهم ، حتى تمركز أخيراً شرطي أبيض خلف بيوت الخلاء مهمته طرد الصبية بعيداً ، وهكذا تأجلت دروسنا في التشريح البشري إلى أجل غير مسمى .

وغالباً ما كانت أمي تصحبني وأخي ، خشية من أن نرتكب أي أذى ، إلى حيث تعمل طاهية . فنقف ، جائعين صامتين في إحدى زوايا المطهى ؛ نراقبها تدب من الموقد إلى حوض الغسيل ، ومن الخزانة إلى الطاولة . وكنت أحب دائماً الوقوف في مطهى القوم البيض وأمي جادة في الطهي ، لأن ذلك يعني حصولي بين آونة وأخرى على قطع من خبز ولحم .. لكنني كثيراً ما ندمت على قدومي ، لأن أنفي كان يستباح لهجوم من ذفرة طعام

لا يخصّني ، وتناوله محظور عليّ . وحوالي المساء ، كانت أمي تحمل الصحون الحارة وتلجُ غرفة الطعام حيث يجلس القوم البيض ، فأقف أنا قريباً من باب الغرفة قدر المستطاع ، أختلس نظرات متواترة إلى تلك الوجوه البيض المحلّقة حول المائدة العامرة ، حيث يأكلون ، ويضحكون ، ويتحادثون . فإذا خلّف القوم البيض شيئاً ، إذن طعمتُ وأخي بما فيه الكفاية ؛ وإن لم يتركوا شيئاً ، تناولنا طعامنا المعتاد المؤلف من خبز وشاي .

إن مراقبة القوم البيض يأكلون تبعث التقلّص في معدتي الخاوية ، فيثور غضبي في غموض . لمَ لا أستطيع أن آكل وقتما أكون جائعاً ؟ وفيمَ يتوجب عليّ الانتظار دائماً حتى ينتهي الآخرون منه ؟ ولم أستطع أن أفهم لماذا يملك أناس ما يكفيهم من طعام ، بينا آخرون لا يملكون شيئاً .

وجدت في تلك الأيام أن التطواف ، خلال النهار وبينا أمي تطهو في مطابخ القوم البيض ، أمر لا يقاوم . وكان ثمة حانة على رمية حجر من بيتنا اعتدتُ أن أتسكع خارجها النهار بطوله . وكان داخلها مكاناً خلاّباً أغواني وأرعبني في وقت واحد . وكنت أستجدي بضعة قروش ، ثم أختلس النظر من تحت الأبواب المتحركة لأراقب الرجال والنساء يشربون الخمور . وحين يطردني أحد الجيران عن الباب ، كنت أتعقب السكارى في الشوارع ، أحاول فهم مغمغاتهم المُلتبسة ، وأشير إليهم بيدي ، وأكايدهم ،

وأهزأ بهم ، وأقلّدهم ، جذلان ، ساخراً ، موبخاً إياهم لمجونهم المترنّح • وكان المنظر الأبعث على التسليةعندي هوامرأةسكرى تتعثّر وتبوّل ، فتنساب الرطوبة علــى ساقيها المتراخيتــين في جوربيهما • أو أن أحملق بهلع في رجل يتقيأ •• وروى أحدهم لأمي ولعي بتلك الخمارة فضربتني ، فلم يمنعنيذلك عناسترقاق النظر من تحت الأبواب المتحركة والإصغاء إلى حديث السكارى الذي لا يعرف حدوداً حين تكون أمي في عملها •

وبعيد ظهيرة أحد الأيام الصيفية ـ وكنت في السادسة مــن العمر ـ بينا أنا أمدّ بصري خلسة من تحت الأبواب المتحركــة للخمارة ، قبض رجل أسود على ذراعي وجرّني إلىأعماق الحانة الصاخبة المغمورة بالدخان • وخدشت رائحــة الكحول أنفي ، فبكيت وجاهدت محاولاً الخلاص منه ، خائفاً من حشد النساء والرجال المحملقين فيّ ، بيــد أنه لم يُخْلِ سبيلي • ورفعني ، وأجلسني على طاولة البار الطويلة ، ووضع قبعته علــى رأسي وطلب لي شراباً ، فزعق الرجال والنساء المترنحون سكراً بنشوة وانشراح • وحاول أحدهم أن يدفع سيجــاراً في فمي ، لكنني تملّصت من دربه •

سأل رجل من الحاضرين :

ـ كيف تشعر وأنت جالس ههنا كالرجال ، أيها الصبي ؟

وقال آخر :

ـ أسكره فيكف عن الوصوصة إلى هنا .

وعقّب آخر :

ـ فلنطلب له كأساً .

وزايلني بعض خوفي وأنا أصعّد النظر حوالي ، بينا جيء بقدح الويسكي ووضع أمامي .

وقال أحدهم :

ـ إشربه ، يا صبي !

فهززت رأسي . وحفزني ذلك الذي جرّني على شرب الكأس ، قائلاً إنها لن تؤذيني. فرفضت .

قال :

ـ إشربها . ستجعلك تحس الانشراح والغبطة .

فرشفت جرعة وسعلت . وضحك الرجال والنساء . وتحلّق زبائن الخمارة جميعاً حوالي ، يستحثونني على الشرب.فجرعت رشفة أخرى ، ثم ثالثة . ودار رأسي ، فضحكت . وأُنزلت الى الأرض ، فركضت وأنا أضحك وأصيح وسط ذلك الجمهور الصاخب . وبينا كنت أمر أمام كلٍّ من الحضور ، فأنا أرشف جرعة من كل كأس تقدّم لي .. وسرعان ما سكرت .

وناداني رجل إليه ، وهمس بضع كلمات في أذني وأسرّ إليّ أنه سيمنحني قرشاً إن انطلقت إلى امرأة ، وأعدتها على مسامعها. وعالنته أني سأفعل ، فمنحني قرشاً ، فركضت إلى امرأة وصحت

بالكلمات في وجهها • فارتفعت عاصفة من الضحك في الخمارة •

قال أحدهم :

ـ لا تعلموا الصبي مثل هذه الأشياء •

وأعلن آخر :

ـ هو لا يعرف معنى ذلك •

وأصبحت بعدئذٍ أردّد لكل امرىء ما يهمس في أذني لقاء قرش أو قرشين • وكان ردّ فعل أولئك الرجال والنساء تجاه كلماتي العجيبة يسحر لبي وأنا في تلك الحالة من السكر ،فأركض من رجل الى رجل ، وأنا أضحك ، وأقيىء قذارةً تجعلهم ينثنون مرحاً وغبطـــة •

وصرخ أحدهم :

ـ دعوا الصبي وشأنه الآن •

وردّ آخر :

ـ هذا لن يؤذيه •

وقالت امرأة ، وهي تغرب في الضحك :

ـ ذلك عـــار •

وزعق أحدهم في وجهي :

ـ إذهب إلى بيتك ، أيها الصبي •

أخلوا سبيلي في أول العشية ، فرحت أدبُّ على الأرصفة ، سكران ، أردّد كلمات الفحش والبذاءة التي تعلّمتها غير عابىء

بهلع النساء اللواتي أمرّ بهنّ ، أو استمتاع الرجال القافلين من أعمالهم إلى دورهم .

وأضحى استجداء الشراب في الحانة عادة مدمنة . وكثيراً ما كانت أمي تجدني أتجوّل فاقد الشعور ، فتجرني الى البيت وتضربني . لكنها لا تكاد تغادر الدار الى عملها ، في الصباح التالي ، حتى أركض إلى الخمارة وأنتظر أن يصحبني أحدهم إلى داخلها ويبتاع لي خمراً . واحتجّت أمي دامعةً إلى صاحب الخمارة ، فأمرني بالابتعاد عن محله . إلا أن الرجال ــ راغبين عن التنازل عن رياضتهم ــ ظلوا يشترون لي خمراً على أية حال ، ويسقونني إياها من قواريرهم في الشوارع ، وهم يدفعونني الى ترديد أقوال الفحش والدعارة .

أمسيتُ سكيراً في السادسة من العمر وقبل أن أذهب إلى المدرسة . ورحت أجوس الشوارع ، أنا وعصابة من الصبية ، نستجدي بعض قروش من السابلة ، ونتردّد على أبواب الخمارات ونحن نبتعد أكثر فأكثر عن بيوتنا كل يوم . ولقد شاهدت أكثر مما أستطيع أن أفهم ، وسمعت أكثر مما أستطيع أن أتذكر . وأضحت عقدة الحياة عندي هي الأوقات التي أتمكن فيها من استعطاء الخمر . وغمر اليأس أمي . فضربتني ، ثم أصبحت تصلي من أجلي ، وبكت حادبة عليّ ، وتضرعت إليّ أن أكون صالحاً ، وأخبرتني أن لا بدّ لها من العمل ، لكن ذلك

كلّه لم يؤثر فيّ مطلقاً • ووضعتني وأخي أخيراً في رعاية امرأة سوداء عجوز راحت تراقبني دون فتور لتمنعني عن الهـرب إلى أبواب الخمارات أستعطي الويسكي ، وبارحتني الشهوة إلى الكحول أخيراً ، فنسيت مذاقها تماماً •

★ ★ ★

كان في الجوار القريب جماعة من صبية المدارس ، يتوقفون في الطريق عصر كل يوم ، ويلعبون قبل التفرق إلى بيوتهم • وكانوا يتركون كتبهم على الرصيف ، فأقلب صفحاتها وأسألهم عن تلك الكلمات السود المحيّرة • وحينما تعلّمت التعرف إلى بضع كلمات ، أخبرت أمي أني أريد تعلّم القراءة فشجعتني • وسرعان ما أضحيت قادراً على شقّ طريقي بقراءة أكثر كتب الأطفال التي أعثر عليها • وهكذا ترعرع في نفسي فضول أكول لما يجري حواليّ ، وإذ كانت أمي ترجع من عملها اليومي الشاق فأنا أمطرها بوابل من أسئلة لا تفتر عما سمعت في الشوارع حتى لترفض أن تحدثني •

وأهبّتني أمي ذات صباح بارد من رقادي ، وأعلمتني أنها ستصحب أخي الى العمل لأن البيت يفتقر الى الفحم ، وأنه يتوجب عليّ البقاء في السرير ريثما يُسلّم إلينا الفحم الذي أوصت عليه ، والذي تركت مذكرة وشيئاً من المال ثمناً له تحت غطاء الخوان • وعدت فاستغرقت في النوم حتى أيقظني قرع جرس

انباب ، ففتحته ، وأفسحت لبائع المحروقات فدخل ، وأعطيته النقود والمذكرة ، فحمل إلى الداخل كمية من الفحم ، ثم تباطأ عند الخروج مستوضحاً ما إذا كنت أحس البرد .

قلتُ ، وأنا أرتجف :

ــ نعم .

فأشعل ناراً ، ثم جلس وشرع يدخن .

ســألني :

ــ كم ينبغي أن أردّ لك من المال ؟

ــ لست أدري .

ــ يا للعار . أفلا تعرف كيف تحسب ؟

ــ كلا ، يا سيدي .

ــ أصغِ ، وأَعِدْ من بعدي .

وعدّ حتى العشرة ، وأعرته سمعي باتنباه . ثم سألني أن أعد لوحدي ففعلت . وجعلني أحفظ عن ظهر قلب هذه الكلمات: عشرون ، ثلاثون ، أربعون ، إلخ ... وأخبرني بعد ذلك أن أُضيف واحداً ، اثنين ، ثلاثة ، وهكذا ... ولم تمضِ ساعة حتى تعلمت كيف أعد للمئة ، وكنت عظيم الفرح . وبقيت بعد فترة طويلة من بَراح بائع الفحم أرقص على سريري بثيــاب النوم ، أعيد وأعيد العدّ حتى المئة ، خائفاً أنْ أنسى إنْ لــم أتابع تكرار الأرقام . ولما آبت أمي من عملها تلك الليلة ألحّيت

عنيها أن تقف جامدة وتصغي إليّ وأنا أعدّ من واحد إلى مئة • وانعقد لسانها • وعلمتني بعد ذلك أن أقرأ ، وسردت عليّ بعض الأقاصيص • وكنت أقرأ الصحف أيام الآحاد وأمي تقود خطاي وتتهجأ الكلمات قبلي •

وما أسرع أن غدوتُ مجلبةً للازعاج لكثرة ما أطرح من أسئلة على كل إنسان • وبات كل حَدَثٍ في الجوار ، مهما يكُ تافهاً ، موضع اهتمامي وانتباهي •• وعلى هذا الغِرار تعثرت أول الأمر بالصلات بين البيض والسود ، فإذا ما عَرَفْتُ يفجر الذعر في قلبي • ورغم معرفتي منذ زمن بعيد بأن ثمة رجالاً يسمون بالقوم « البيض » ، فذلك لم يعنِ قط شيئاً خاصاً بالنسبة إليّ عاطفياً • لقد وقعت عيناي على رجال ونساء بيض في الشوارع ألوف المرات ، لكن لم يظهروا لي قط « بيضاً » بشكل خاص • كانوا بالنسبة إليّ قوماً يشبهون الآخرين كل الشبه ، ومع ذلك فإنهم يختلفون عن أولئك بصورة غريبة لأني لم أحتك بأيٍ منهم على الاطلاق • والغالب أني لم أفكر فيهم مطلقاً • فهم ، بكل بساطة ، موجودون في ناحيةٍ ما من المدينة ولعلّ تأخري في تعلّم الشعور بالرجال البيض ، بصفتهم رجالاً « بيضاً » ، ناشيء عن كون عددٍ كبير من أقاربي قوماً ذوي مظهر « أبيض » • فجدتي ، التي كانت بيضاء كأي شخص « أبيض » آخر ، لم تكُ تلوح « بيضاء » في عينيّ • وعندما تناقل الجيران

السود خبر الصبي « الأسود» الذي ضربه رجل « أبيض »ضرباً مبرحاً ، شعرتُ أن للرجل « الأبيض » الحقّ في ضرب الصبي « الأسود » ، لأني توهمت بسذاجة أن الرجل « الأبيض » لابدّ أن يكون والد الصبي « الأسود » . أوليس الآباء جميعاً ،مثلهم مثل أبي ، يملكون الحقّ في ضرب أولادهم ؟ لقد كان الحقّ الأبوي هو الحقُ الوحيد ، في رأيي ، الذي يخوّل الأب أن يضرب ولده . وحين أخبرتني أمي أن الرجل « الأبيض » ليس بوالد الصبي « الأسود » ، وأنه ليس من أقربائه على الاطلاق ، خبلتني الدهشة حقاً .

سألت أمي :

ــ فيمَ جلد الرجل « الأبيض » الصبي « الأسود » إذن ؟

فأطلعتني أمي :

ــ إن الرجل « الأبيض » لم يجلد الصبي « الأسود » . لقد ضرب الصبي « الأسود » .

ــ لكن لماذا ؟

ــ أنت أصغر بعد من أن تدرك ذلك .

فنبرتُ بجرأة :

ــ لن أسمح لأحد أن يضربني .

فردت أمي :

ــ إذن ، كفّ عن الانطلاق في الشوارع .

تمعّنت كثيراً في أمر ذلك الضرب الذي بدا عديم السبب ، والذي أنزله الرجل « الأبيض » بالصبي « الأسود » . وبقدر ما زدت من أسئلتي تعاظمت دهشتي وحيرتي . وأيان وقع بصري بعدئذ على قوم « بيض » فأنا أحدّق اليهم ، متسائلاً عما هم في الحقيقة .

وبدأتُ الدراسة في معهد هاوارد في سنّ أكبر من المعتاد ، فلم تك أمي بمستطيعة أن تبتاع لي الثياب الضرورية لأبدو مقبولاً . وصحبني صبية الجيران إلى المدرسة للمرة الأولى ، وما إن بلغت حفاف بناء المدرسة حتى تملكني الخوف ، فوددت أن أهرب قافلاً إلى البيت ، وأن أؤجل ذلك كلّه . إلا أن الصبية أمسكوا بيدي بكل بساطة ، وجروني إلى داخل البناء . كنت خائفاً معقود اللسان ، فاضطر الصبية الآخرون أن يُثبتوا شخصيتي ، وأن يخبروا المعلم باسمي وعنواني . وجلست أصغي إلى تلاوات التلاميذ ، عارفاً ومدركاً ما يُقال وما يُفعل ، لكن عاجزاً تماماً عن فتح فمي حينما يُنادى عليّ . وكان الأطفال المحدقون بي يلوحون واثقين من أنفسهم كل الثقة ، بحيث يئست من استطاعتي ان أفعل مثلهم في يوم من الأيام .

والتحقت في فرصة الظهيرة بجماعة من الصبية الكبار ورحت أتأثرهم ، مرهفاً أذني إلى أحاديثهم ، طارحاً عليهم أسئلة لا عداد لها . وتعلمت أثناء تلك الساعة من الظهيرة سائر الكلمات

الفاحشة التي تصف الوظائف الفيزيولوجية والتناسلية ، واكتشفت أني أعرفها من قبل ــ فقد نطقت بها في الخمارة ــ رغم جهلي المطلق بما تعنيه يومئذ . وتلا علينا صبي أسود طويل قطعة طويلة ساخرة من الشعر الحقير المشحون بالبذاءة ، تصف العلاقات الفيزيولوجية بين الرجال والنساء ، فحفظتها كلمة كلمة بعدما سمعتها مرة واحدة فقط . ومع ذلك، ورغماً عن ذاكرتي القوية، فقد وجدتني عاجزاً عن تلاوة الدرس لما رجعت إلى غرفة الصف . ناداني المعلم فنهضت ، أمسك بكتابي أمام عينيّ ، لكنني لم أستطع أن أخرج من فمي كلمة واحدة . كنت أشعر بوجود الصبية والفتيات الغرباء إلى الخلف مني ، ينتظرون أن يسمعوني أقرأ ، فيشلني الخوف تماماً .

ومع ذلك ركضتُ إلى البيت فرحاً لما انتهت المدرسة في ذلك اليوم الأول ، ملتهب الدماغ بالمعرفة اللذيذة الجريئة ، لكن من دون فكرة واحدة مستمدة من الكتب . والتهمتُ طعامي البارد الموضوع تحت غطاءٍ على الطاولة ، ثم تناولت قطعة من الصابون وطرت إلى الشوارع ، متلهفاً إلى إظهار جميع ما تعلّمت في المدرسة منذ الصباح . ورحت أتنقل من نافذة إلى نافذة أكتب بحروف كبيرة من الصابون سائر الكلمات البذيئة التي اكتسبت معرفتها حديثاً . فعلتُ ذلك بجميع نوافذ الجيران تقريباً حينما أوقفتني امرأة وطردتني إلى البيت . وزارت تلك المرأة أمي

مساءً وأخبرتها بما فعلتُ ، وصحبتها من نافذة إلى نافذة ، وهي تشير إلى خربشتي الملقّنة . وتملك الهلع أمي ، فطلبت مني أن أخبرها أين تعلمت تلك الكلمات ، ورفضت أن تصدقني لما قلتُ إني تعلمتها في المدرسة . وجاءت أمي بدلوٍ من الماء ومنشفة ، وأخذتني من يدي وقادتني إلى نافذة ملوّثة .

أمرتني بقولها :

ـ والآن ، إمسح حتى تمّحي الكلمة .

وتجمع الجيران يتضاحكون ، ويهمهمون بكلمات الشفقة والاستغراب ، ويسألون أمي كيف أمكن أن أتعلّم ذلك بمثل هذه السرعة . ورحت أمسح الكلمات والغضب يعميني . ونشجتُ ، وتضرّعت إلى أمي أن تُخلي سبيلي ، وعالنتها أني لن أكتب مثل هذه الكلمات مرة ثانية . إلا أنها لم تلن حتى امّحت آخر كلمات الصابون . ولم أكتب بعدها مثل تلك الكلمات أبداً ، بل كنتُ أحتفظ بها لنفسي .

★ ★ ★

بعد هجران أبي لنا ، سادت ميول أمي الدينية المتحمّسة الغيورة في البيت ، فكثيراً ما أُساق إلى مدرسة الأحد حيث اجتمع بممثل الله على صورة مبشّر أسود طويل . ودعت أمي ذات أحد المبشر الطويل الأسود إلى غداء مؤلف من فرخة مقلوّة . وكنت سعيداً ، ليس لأن المبشر سيشرفنا بحضوره ، بل بسبب

تلك الفرخة . وكان شخص أو شخصان من الجيرة مدعوين أيضاً . ولم يكد المبشر يصل حتى بدأت أستقبحه ، لأني عرفتُ في الحال أنه اعتاد ، مثل والدي ، أن يسلك طريقه الخاصة . وحانت ساعة الطعام فأُجلستُ إلى الطاولة بين كبارٍ يتحادثون ويضحكون .. كان في منتصف الطاولة قَصْعةٌ رَوْحاء تتوسدها دجاجة مقلوّة ذهبية اللون . وقارنت صحن الحساء المتربع أمامي بتلك الدجاجة الشهية فانحزتُ إلى جانب الدجاجة . وبدأ الآخرون يتناولون الحساء ، أما أنا فلم أقوَ على لمس صحني .

قالت أمي :

ـ تناول حساءك .

ـ لا أريد حساءً .

ـ لن تنال شيئاً آخر حتى تتناول حساءك .

وأنهى المبشّر حساءه ، وطلب قصعة الدجاجة ، فَمُرِّرت إليه . وكدّرني ذلك . وافترّ ثغره مبتسماً ، وهوّم رأسه ههنا وههنالك ، وراح يلتقط قطعاً منتقاة . وأرغمت ملعقة من الحساء على الهبوط في حلقي ، وشرعتُ أراقب إنْ كانت سرعتي تباري سرعة المبشّر ، فلم تستطع حتى أن تجاريها ، فثمة عظام عارية من اللحم تستريح منذ الآن في صحنه ، وهو يبحث بَعْدُ عن مزيد . وحاولت التهام حسائي بسرعة أكثر ، لكن عبثاً . إن

الآخرين الآن يتقاسمون الدجاجة ، والقصعة الرَوْحاء قد طار نصفها تقريباً .. وعدلت عن محاولتي ، وجلست أُنعم النظر يائساً في قطع الدجاجة المقلوّة المتلاشية .

حذرتني أمي :

ـ تناول حساءك وإلا لن تنال شيئاً .

فَنَحوتُها بصري متضرعاً دون أن أردّ جواباً . وبيناقطعة من الدجاجة تَلتهم بعد قطعة ، كنتُ أنا عاجزاً عن تناول حسائي على الاطلاق . وازداد غضبي فورة . كان المبشر يضحك ويمزح، والكبار يصغون إلى كلماته . وغدا حقدي النامي على المبشر أخيراً أكثر أهمية من الله أو الدين ، فلم أعد أقوى على تمالك نفسي ، فوثبت عن الطاولة ، عارفاً أني سأخجل مما كنت أفعل ، لكن عاجزاً عن كبته ، وزعقتُ :

ـ هذا المبشر سيأكل الدجاجة « كلها » !

وطرتُ من الغرفة والغضب يعميني .

ودفع المبشر رأسه الى الوراء وتهاتف ضاحكاً . غير أن أمي غضبت ، وأعلنت أني لن أتناول طعاماً جزاء تصرّفي المشين..

★ ★ ★

لما أفقتُ ذات صباح أخبرتني أمي أننا غادون للاجتماع بقاضٍ سيرغم والدي على إعالتي وشقيقي . وبعد ساعة من الزمن كنا نجلس ثلاثتنا في غرفة ضخمة مزدحمة بالناس . كنتُ

محاطاً بعددٍ عديد من الوجوه والأصوات التي لم أعِ منهـا شيئاً • وعالياً ، فوقي ، كان وجه أبيض أنبأتني أمي أنه وجه القاضي • وفي طرف من الغرفة جلس والدي ، يبتسم بثقة وهو يرنو إلينا • وحذرتني أمي ألا أنخدع بسلوك والدي الرفيق • وذكرت لي أن القاضي قد يتوجه إليَّ ببعض أسئلة ، فإن فعل، فعليَّ أن أُصدِقه الحقيقة • فقبلتُ ، وإن كنت أرجو ألا يسألني القاضي شيئاً •

ولسببٍ ما تراءى ذلك كله عديم الجدوى في عينيَّ • وشعرت أنه لو كان في نية والدي أن يعيلني ، فقد كان يفعل ذلك إذن دون اعتبار لما سيقوله قاضٍ له • وما كنت أرغبُ في أن يقوم والدي بأَوْدي • كنت جائعا ، إلا أن أفكاري عن الطعام لم تتركز عليه الآن • وانتظرتُ ، ومضضي ينمو ، جائعـاً • وأعطتني أمي قطعة سندويش جافة ، فمضغتها بصوت عالٍ ، جاحظ العينين ، تائقاً للعودةالى البيت • وسمعتُ أخيراً اسم أمي يُنادى به ، فنهضتْ ، وانخرطت تبكي عن سعةٍ بحيـث عجزت عن التفوّه بحرف لبضع لحظات • وتدبرت أمرهـا بعد زمن لتقول إن زوجها هجرها وطفليها ، وإن طفليها يتضـوران جوعاً ، وإنهما أبداً جائعان ، وإنها تعمل ، وإنها تحاول أن تحمل عبء تربيتهما لوحدها • ثم نودي علي أبي ، فتقدم مرحـاً مبتسماً • وحاول تقبيل والدتي ، فاستدارت عنه • ولم أسمع

غير جملة واحدة مما قال •

جمجم مكشراً :

ــ إني أعمل طاقة جهدي ، يا سيادة القاضي •

كان الجلوس ومشاهدة أمي تبكي وأبي يضحك أمراً أليماً ، فغمرتني السعادة حينما أضحينا أخيراً في الشوارع المغمورة بالشمس • وبكت أمي مرة ثانية في البيت ، وتحدثت شاكيةً عن جور القاضي الذي اقتنع بكلام أبي • وحاولت نسيان والدي بعد مشهد المحكمة •• لم أُعمِّر له حقداً ، بل ما كنت أريد التفكير فيه • وغالباً ما كانت أمي تطلب إليَّ ، حين يعضنا الجوع بنابه ، الذهاب إلى حيث يعمل والدي فأسأله دولاراً ، أو جزءاً منه أو عدة قروش •• فما كنت أقبل بالذهاب قط • ما كنت أريد أن أراه •

وسقطت أمي مريضة ، فإذا مشكلة الطعام تصير احتضاراً يومياً عسيراً • فالجوع رفيقنا أبداً • وكان الجيرة يطعموننا أحياناً أو تجيئنا ورقة من فئة الدولار في البريد تبعثها جدتي • وكان الفصل شتاءً ، فأبتاع بعشر دولار شيئاً من الفحم كل صباح ، وأحمله الى البيت في أكياس من الورق • وتغيَّبت زمناً عن المدرسة لأُعنى بأمي ، ثم قدمت جدتي لزيارتنا ، فعدتُ إلى المدرسة •

وفي الليل ، كانت تنشب مناقشات مترددة في موضوع ذهابنا

للإقامة مع الجدة ، لكن شيئاً لم ينجم عن ذلك • لعلنا لم نكن نملك من المال ما يكفي أجراً للقطار • وقد أهملنا والدي نهائياً الآن ، غاضباً لأننا جررناه إلى المحكمة • وتوالى على سمعي أحاديث خافتة الصوت مائجة بالغضب تتبادلها أمي وجدتي عن « ضرورة قتل تلك المرأة لأنها حطمت حياة أسرة » • وأضجرني ذلك الحديث المستديم من دون أي نتيجة • فلو اقترح أحدهم أن يُقتل والدي ، فلعلّ ذلك كان يثير اهتمامي ؛ ولو طلب أحدهم أن يُحرّم ذكر اسمه نهائياً ، فقد كنت أوافق على ذلك بكل تأكيد، ولو اقترح أحدهم أن ننتقل إلى بلدة أخرى ، لأفعمني السرور • لكنه لم يكن غير ذلك الحديث الأبدي الذي لا نهاية له ، والذي لا يؤدي إلى شيء • وبدأت أبتعد عن البيت قدر المستطاع ، مفضّلاً بساطة الشوارع على حديث البيت العقيم المفعم بالقلق •

وعجزنا أخيراً عن دفع أجر شقتنا القذرة ، وتبخّرت الدولارات القليلة التي تركتها لنا جدتي قبل عودتها إلى بيتها • وراحت أمي ، نصف مريضة نصف يائسة ، تطرق أبواب جمعيات الإحسان طلباً للمساعدة • وعثرت على دار لليتامى أخذت على عاتقها مهمة توجيهي وأخي بشرط أن تشتغل أمي وتدفع للدار أجوراً صغيرة • وكرهت أمي الانفصال عنا ، لكن لم يكن لها أن تختار •

كانت دار اليتامى بناء مؤلفاً من طابقين ينتصب بين الأشجار

في حقل أخضر فسيح • ودفعتنا أمي ذات صباح إلى البناء ، ثم إلى حضرة امرأة طويلة نحيلة خِلاسية تسمي نفسها الآنسة سيمون • وأُعجبت بي في الحال ، فتجمدتُ رعباً عاجزاً عن النطق • لقد استشعرت الخوف منها لحظة وقع بصري عليها ، ولم يبرحني هذا الخوف طوال إقامتي في ذلك المأوى •

كان البيت يعجُّ بالأولاد ، تسوده أبداً عاصفة من الضجيج• وكان الروتين اليومي شيئاً مهماً بالنسبة إليَّ ، فلم أفهمه قط بصورة تامة • وكان الشعور اليومي الذي لا يفارقني هو الجوع والخوف • كانت كمية الطعام قليلة ، وكنا نتناول وجبتين يومياً فقط ، ونعطى قبل ذهابنا الى النوم كل ليلة شريحة من خبز ملطخة بالعسل الأسود • وكان الأولاد صموتين ،كثيري الخصام، حقودين ، لا يفترون عن الشكوى والتذمر من الجوع • وكان يسود المكان جوّ دائم من العصبية والدسيسة ، من أطفال يلفّقون الأقاصيص عن بعضهم بعضاً ، ومن آخرين حُرموا من الطعام عقوبة لهم •

لم يك الملجأ يملك مالاً يستطيع بواسطته أن يمنع نموَّ العشب الكبير باجتزازه حصداً ، فكان علينا أن نقتطعه بأيدينا • وفي كل صباح ، بعدما نتناول فطورنا الذي لايشبه الفطور على الاطلاق ، كان صبي كبير يقود عصبة منا الى المرجة الفسيحة ، فنرتمي على ركبنا ونقتطع العشب من القذارة بأصابعنا •وكانت

الآنسة سيمون تقوم ، في فترات متقطعة ، بجولة تفتيشية ، وتفحص أكوام العشب المقتطع أمام كل طفل ، وتوبّخ أوتمتدح بحسب حجم ذلك الكوم . وكان الجوع يُنهكني في أكثر الصباحات بحيث أعجز عن اقتلاع العشب ، فيعظم دوران رأسي ويفرغ فكري ، وأجدني بعد فترة من الإغماء وفقدان الوعي على يديّ وركبتيّ ، ورأسي يُدوّم ، وعيناي تحدقان في دهشة فارغة إلى العشب الأخضر تتسائلان أين أنا ، يراودني الإحساس بأني أستفيق من حلم ..

وظلت أمي ، طوال الأيام الأولى ، تجيء كل ليلة لرؤيتنا ، ثم انقطعت زياراتها . وبدأت أتساءل ما إذا كانت هي الأخرى ، مثل والدي ، قد اختفت في غياهب المجهول . كنت أتعلّم بسرعةٍ الارتياب بكل شيء وكل إنسان . وكنت أستوضح أمي عند قدومها عن سبب غيابها الطويل ، فتخبرني أن الآنسة سيمون حظرت عليها زيارتنا ، وأن الآنسة سيمون قالت إنها تفسدنا بذلك الالتفات والاهتمام العظيمين . ورجوتُ أمي أن تبعدني عن ذلك المكان ، فبكت وقالت أن أنتظر ، وإنها سرعان ما ستحملنا إلى أركنساس. وغادرتنا ، فخارَ قلبي بين أضلاعي.

حاولت الآنسة سيمون اكتساب ثقتي ، وسألتني إن كنتُ أحبّ أن تتبنّاني إذا رضيت أمي ، فجبهتها بالرفض . وكانت تصحبني الى جناحها وتحادثني ، لكن كلماتها لم تؤثر فيّ قط .

وغدا الفزع والريبة جزءاً يومياً من كينونتي ، وازدادت ذاكرتي حدة ، وأضحت حواسي أشدّ حساسية . وبدأت أعرف نفسي كشخصية متميزة تجاهد ضدّ الآخرين . وأغلقتُ على نفسي ، خائفاً من الحركة أو الحديث حتى تأكدت مما يحيط بي ، وبدأت آحسّ في أغلب الأحيان آني معلّق فوق هاوية فارغة . وسمت مخيلتي ، فحلمتُ بالفرار . وكنت أقسم كل صباح على الهرب في اليوم التالي ، لأجدني في الصباح التالي خائفاً بصورة دائمة .

وأخبرتني الآنسة سيمون ذات يوم أني سأساعدها في مكتبها . وكنت أتناول الغداء معها ، ومن الغريب أن إحساسي بالجوع كان يتلاشى إذ كنت أجلس قبالتها إلى الطاولة . إن تلك المرأة قد قتلت فيّ شيئاً . ثم نادتني بعدئذٍ إلى طاولتها حيث تكتب عناوين بعض المغلّفات . قالت :

ـــ اقترب من الطاولة . لا تخف .

فمضيتُ وانتصبت قريباً من كتفها . كان ثمّ ثؤلولة على ذقنها فشرعت أحملق فيها .

خاطبتني ، وهي تشير إلى نشافة تبعد قليلاً عن مرمى يدي :

ـــ والآن ، خذ هذه النشافة وجفّف حبر المغلّف حين أنتهي من كتابتــه .

وظللتُ أحدّق دون أن أتحرك أو أجيب .

وأعادت قولهــا :

ــ خذ النشافة •

فأردتُ الوصول الى النشافة ، فلم أنجح إلا في تحريـك ذراعي •

صاحت بحدة ، وهي تتناول النشافة وتدفعها بين أصابعي :

ــ إليكهـا •

وكتبت بالحبر على مغلّف ودفعته صوبي • نظرتُ إلـى المغلّف ، والنشافة في يدي ، دون أن أتحرك •

زعقـت :

ــ جفّفه •

فعجزتُ عن رفع يدي •• أدركتُ ما قالت ، وأدركت ما كانت تريدني أن أعمل ، وقد سمعتها تماماً • وحاولت أن أتطلّع إليها وأتفوه بشيء ما ، أن أخبرها فيمَ أعجز عن الحركة ، لكن عينيّ لم تفارقا الأرض قط • ولم أقوَ على استجماع شجاعتي ، وهي جالسة هنالك ترنو إليّ لأتخطى تلك المسافة القصـيرة التي لا تعدو عدة سنتيمترات وأجفف الحبر الذي على المغلف •

صاحت بجفوة :

ــ جفّفه •

وهذا أنا لم أبرح عاجزاً عن الحركة أو الجواب •

ــ أنظر إليّ !

فما استطعت رفع عينيّ • ومدّت يدها إلى وجهي ، فانفلتُ

مبتعـــداً .

ســـألت :

ــ ما بالـــك ؟

وانخرطت أبكي ، فطردتني من الغرفة . وقررت أن اهرب حالما يهبط الليل . وقرع جرس الطعام ، فلم أذهب إلى الطاولة، بل اختبأت في زاوية من الردهة . ولما صافح سمعي قعقعة الصحون على الطاولة فتحت الباب واجتزت الممرّ عدواً إلى الشارع . كان الزمن غسقاً . وأرغمني الشك على التوقف . هل يجب أن أرجع ؟ كلا ، فالجوع يجثم هنالك ، والخوف أيضاً . وتابعتُ طريقي ، ووصلت إلى الأرصفة المتحجرة . وكان الناس يعبرون بي . إلى أين أنا ذاهب ؟ لم أكُ أدري . وكان خوفي يتعاظم بقدر ما أُمعن في المسير . وعرفت بطريقة مُلتبسة غامضة أني أهرب « بعيداً » عن شيء ما أكثر مني أهرب « صَوب » شيء ما . وتوقفت . وتراءت لي الشوارع خطرة . وكانت الأبنيـــة كبيرة مظلمة . وشعّ القمر ، فتبلّجت الأشجار بشكل مرعب . كلا ، لست بمستطيع مواصلة السير . ينبغي أن أرجع أدراجي . إلا أنني سرتُ مسافة طويلة ، وتخطيت زوايا كثيرة ، ولم أكن قد حفظت أثراً لاتجاهي . أية طريق تعود إلى بيت اليتامى ؟ لست أدري . لقد ضعت .

ووقفت في وسط الرصيف وطفقت أبكي . وجاءني شرطي

« أبيض » فتساءلت عما إذا كان سيضربني •• واستفسر مني عن سبب بكائي ، فعالنته أني أحاول العثور على أمي • وخلق وجهه « الأبيض » خوفاً جديداً في نفسي • كنت أتذكر قصة الرجل « الأبيض » الذي ضرب الصبي « الأسود » • وتجمع حشد من الناس وسألوني أين أعيش • ومن الغريب أني كنت شديد الخوف الآونة بحيث انقطعت عن البكاء • وأردت أن أخبر الوجه « الأبيض » أني هربتُ من دار لليتامى وأن الآنسة سيمون تديرها ، لكنني كنت مذعوراً • ونقلت بعد ذلك إلى مركز للشرطة حيث أطعموني • وشعرتُ بالتحسُّن • وجلست في كرسي ضخم حيث أحاطني أفراد الشرطة « البيض » ،وتبين لي أنهم يتجاهلونني • واستطعتُ أن أميز من خلال النافذة أن الليل قد أرخى سدوله تماماً ، وأن الأنوار تشع في الشوارع • وهاجمني النعاس فغفوتُ • وهزَّت كتفي بلطف ، ففتحت عينيَّ وتطلعت في وجه « أبيض » لشرطي آخر كان جالساً قربي •وراح يسألني في نغمة هادئة تبعث على الطمأنينة ، وقبل أن أعرف ذلك ملياً لم يعد « أبيض » على الاطلاق ، فرويت له أني هربت من دار لليتامى وأن الآنسة سيمون تديرها •

ولم يتطلب الأمر أكثر من ثوانٍ معدودات حتى كنت أدبُّ إلى جانب شرطي ، وجهتنا دار اليتامى • واقتادني الشرطي إلى البوابة الأمامية ، فرأيت الآنسة سيمون تنتظرني على السلَّم •

وتعرّفت إليّ ، فتُركت في رعايتها • ورجوتها ألا تضربني ، لكنها نقلتني إلى غرفة فارغة في الطابق الثاني وجلدتني دونما رحمة • وتهالكتُ على السرير أفيض بالعبرات ، وقد وطدت النية على الفرار من جديد • ولكنني صرت موضع مراقبة صارمة بعد ذلك •

وأخبروا أمي في زيارتها الثانية أني حاولت الهرب ، فأقلقها ذلك بشكل هائل •

استفسرت :

ــ فيمَ فعلتَ ذلك ؟

فأخبرتها :

ــ لست أريد بقاءً ههنا •

ــ بل يجب ذلك • كيف أستطيع العمل والقلق يشغلني عليك؟ ينبغي أن تتذكر أنك من دون أب • وأني أعمل جهدي •

فأجبت :

ــ لست أريد بقاء ههنا •

ــ إذن ، إذا أخذتك إلى والدك ••

ــ ولست أريد البقاء معه أيضاً •

ــ لكنني أريدك أن تطلب منه ما يكفينا من المال للسفر إلى بيت أختي في أركنساس •

وهذا أنا من جديد أواجه اختياراً لست أحبه • وقبلتُ

أخيراً • إن حقدي على أبي ، بعد هذا كله ، لم يك عظيماً مثل حقدي على دار اليتامى• ونفذت أمي فكرتها ، فرأيتني ذات ليلة بعد أسبوع أو أسبوعين أقف في غرفة من دار حجرية • كان والدي وامرأة غريبة جالسين قرب نار متأججة تلتمع في موقد • وكنت وأمي منتصبين غير بعيد عنهما ، فكأننا خائفان من الاقتراب منهما أكثر من ذلك •

كانت أمي تقول :

ـ ليس من أجلي ، بل من أجل ولديك ، أطلب النقود •

فردّ أبي ضاحكاً :

ـ لست أملك مالاً •

ونادتني المرأة الغريبة :

ـ تعال هنا ، ياصبيّ •

فتطلعت إليها ولم أتحرك •

قالت المرأة :

ـ أعطه قرشاً • فهو ذكي •

وأمر والدي ، وهو يمدُّ يده :

ـ تعال ، ياريتشارد •

وتراجعتُ متقهقراً ، وأنا أهزُّ رأسي ، وعيناي لا تبرحان النار •

أوضحت المرأة الغريبة :

ـ إنه صبي ذكي •
وخاطبت أمي المرأة الغريبة :
ـ يجب أن تخجلي • فأنت تمنعين مقوّمات الحياة عن ولديّ •
قال أبي ضاحكاً :
ـ والآن ، لا تقتتلا •
فانفجرتُ في وجه أبي :
ـ سأتناول الملقط وأضربك !
فتطلع إلى أمي وضحك بصوت عالٍ ، وزعق :
ـ أعلّمتهِ أن يقول ذلك ؟
فنبرت أمي :
ـ لا تقل مثل هذه الأمور ، ياريتشارد •
وتوجهت إلى المرأة الغريبة :
ـ يجب أن تكوني ميتة •
فضحكت المرأة ، وطوّحت بذراعيها حول عنق والدي •
وعظم خجلي ، وأردتُ أن أغادر الغرفة •
سألت أمي :
ـ كيف تقبلين أن ينهش الجوع ولديّ ؟
فردّ أبي :
ـ أتركي ريتشارد ليقيم معي •

فاستفسرت أمي :

ــ أتريد البقاء مع أبيك ، ياريتشارد ؟

فقلت :

ــ كلا !

فهتــف :

ــ ستحصل على كثير من الطعام ٠

فعالنته :

ــ إني جائع الآن ٠ لكن ، لست أريد البقاء معك ٠

وقالت المرأة :

ــ آي ، أعطِ الصغير قرشا ٠

ودفع والدي يده في جيبه ، وأخرج قرشاً :

ــ إليك ، ياريتشارد ٠

قالت أمي :

ــ لا تأخــذه ٠

ونبر أبي :

ــ لا تعلميه أن يكون أحمق ٠ إليكَ ، يا ريتشارد ، خذ هــذا ٠

وشخصت إلى أمي ، وإلى المرأة الغريبة ، وإلى أبي ، ثم الى النار ٠ أردت أن آخذ القرش ، إلا أني ما وددت أن آخذه من أبي ٠

قالت أمي باكيــة :

ـ يجب أن تخجل • تمنح ولدك قرشاً حينما يكون جائعاً ! إذا كان الله موجوداً ، فسوف يقتص منك •

وقال أبي ، وهو يضحك من جديد ويعيد القرش الى جيبه :

ـ هذا كل ما أملك •

غادرناهما والشعور يراودني بأني كنت على تماسٍ مع شيء قذر غير نظيف • وكثيراً ما كانت صورة أبي والمرأة الغريبة ، ووجهاهما ينيرهما اللهب المتراقص ، تصطخب في مخيلتي في السنين التالية بصورة حية قوية حتى لأشعر أن في مقدوري أن أمد يدي فألمسها • وكنت أحدّق إليها ، شاعراً أنها تسلك معنىً حياً يتملّص مني دائماً •

وكان يجب ان ينقضي ربع قرن من الزمن ، بين الوقت الذي رأيت فيه والدي جالساً والمرأة الغريبة ،والوقت الذي رأيته فيه مرة ثانية ، ينتصب وحيداً في الطين الأحمر لإحدى مزارع الميسيسيبي ، عاملاً بالمحاصصة ، مكتسياً ثياب عمل ممزقة ، يحمل فأساً صدئة بيديه العقدتين العرقتين ـ ربع قرن من الزمن تغير فكري وإدراكي في غضونه تغييراً عظيماً قاسياً بحيث أيقنتُ ، حينما جرّبت التحدث إليه ، أننا غريبان إلى الأبد ، نتخاطب بلغتين مختلفتين ، ونعيش في أفقين متباينين من واقع الحياة ، وذلك رغم رابطة الدم التي تربطنا ، ورغم استطاعتي رؤية خيالٍ من وجهي في وجهه ، ورغم تردّد صدًى من صوتي

في صوته .. في ذلك اليوم ، بعد انقضاء ربع قرن كامل ، حينما زرته في تلك المزرعة ــ كان يقف حيال السماء ، يبتسم أدرد الفم، قد وخط الشيب شعره ، وانحنى جسده ، والتهبت عيناه بذكريات غبشاء ، ومظهره الراعب قبل ربع قرن قد اندثر عنه إلى الأبد ــ واجتاحتني دهشة عظيمة حين تحققت أنه لن يستطيع قط أن يفهمني أو يفهم التجارب الساحقة التي ألقت بي بعيداً عن حياته ، في مجال من الحياة لا يمكنه أن يعرفه مطلقاً . ووقفت تجاهه ، مشدود القامة ، يتألم فكري حين يُعانق عري حياته البسيط ؛ شاعراً شدة الأسر الواقع على نفسه المأخوذة في تدفق الفصول البطيء ، الحبيسة للريح ، والمطر ، والشمس ؛ مدركاً قوة القيد الذي يربط ذكرياته بماضٍ فجّ خشن ، ومبلغ خضوع أفعاله وانفعالاته لدوافع جسده الجاف الحيوانية المباشرة .

ولم يعطه الملاّك البيض الذين يرأسونه فرصةً ليتعلّم خلالها معنى الاخلاص ، والعطف ، والتقاليد . وكان جاهلاً للفرح ، كما كان جاهلاً لليأس . كان يقاسي الحياة ، بصفته مخلوقاً أرضياً ، ببأسٍ ودون توانٍ ، فكأنه غير قابل للاندثار ، ودون أن يراوده الأسف أو الرجاء قط . وتشدّق بأسئلة سهلة عني ، وعن ابنه الآخر ، وعن زوجه ، وضحك مسروراً لما أخبرته بمصيرهما . وغفرتُ له ، ورثيتُ لحاله ، بينا عيناي تتجاوزانه إلى الكوخ الخشبي غير المدهون . ولقد

عرفتُ خلال حياتي ، بعيداً جداً وراء الآفاق التي تحدُّ هـذه المزرعة الكئيبة ، أن أبي كان فلاحاً أسود قَصَدَ المدينة بحثاً عن الحياة ، لكنه فشل فيها ، لقد كان فلاحاً أسود تلاشت حياته دونما رجاء في المدينة ، ففرَّ أخيراً منها ـ نفس هذه المدينة التي رفعتني في أذرعها الحارقة وحملتني صوب شواطىء من المعرفة غريبة عني ، شواطىء لم أحلم بها قط .





٢

تلك الأيام البهيجة التي تبدّت منحتني الحرية في الانطلاق حسب هواي ، فإذا أنا أقفز من القلق والامتناع إلى الفعل المجرّد عن التفكير .

ورجعت أمي عصر أحد الأيام وفي جعبتها أنّا سننطلق للعيش مع شقيقتها في بلدة إيلين ، في ولاية أركنساس ، وأنّا سنزور الجدة في الطريق ، تلك الجدة التي انتقلت من ناتشي إلى جاكسون،

في ولاية الميسيسيبي . وبينا الكلمات تساقط من شفتي أمي ، أحسست قلقاً ثقيلاً طويلاً يبارحني . واندفعت بانفعال أجمع ثيابي الممزقة ، فهأنذا أترك البيت البغيض ، والجوع ، والخوف، أترك أياماً بهيمة موحشة كالموت .

وبينا أنا أحزم متاعي ، جاءني أحد أقراني يخبرني أن قميصاً لي ما يزال معلقاً ، رطباً ، على حبل الغسيل . وإذ كنت أفيض بشعور الحرية المقبلة أكثر مني بالمروءة والكرم ، فقد أخبرته أن في مقدوره الاحتفاظ به . ما قيمة القميص الآن بالنسبة إلي؟ واتتصب الصبية وراحوا يراقبونني بعيون حسودة وأنا أحزم أشيائي في حقيبة ، لكنني لم أشعر بوجودهم . لقد ارتدت إحساساتي عن البيت ، لحظة نبئت أني سأرحل ، بقوة وسرعة عظيمتين ، بحيث أن وجود الصبيان قد اكتنفه العدم بكل بساطة بالنسبة إلي . كانت وجوههم تملك القدرة على أن تهب في نفسي ملايين الذكريات التي أتوق إلى نسيانها ، وعوضاً عن أن يشدني الرحيل إليهم في اللحظة الأخيرة ، طوح بي إلى الأبد بعيداً عنهم .

كنت على درجة عظيمة من اللهفة للرحيل بحيث لم أفكر ، إما وقفت أمام الباب على أتم أهبة ، في أن أودع الصبية والفتيات الذين أكلت ونمت وعشت معهم أسابيع طويلة . وعنفتني أمي على طيشي ، وأرغمتني على توديعهم ، فأطعتها متمنعاً ، متمنياً

ألاّ أفعل ذلك . وبينا أنا أصافح تلك الأيدي القذرة الممدودة إليّ ، نحّيت عينيّ بعيداً راغباً عن النظر مرة ثانية إلى وجوه تؤذيني لأنها أصبحت مرتبطة في مشاعري ارتباطاً تاماً بالجوع والخوف . وإما كنت أصافح تلك الأيدي كنت أفعل شيئاً سأكرره مرات لا حصر لها في الأيام المقبلة ، متصرّفاً بما يتفق مع ما يتوقع الآخرون مني ؛ رغم أني ، في صميم طبيعتي وأسلوبي في الحياة ، ما كنتُ أشاركهم شعورهم ولا كنت أستطيع مقاسمتهم إياه ..

وبعد أن تخطيت هزات الطفولة وصدماتها ، بعد أن ولدت فيّ عادة التأمل والتفكير ، كنت أفكر في افتقار الزنوج العجيب لصفات اللطف الحقيقي ، وفي مبلغ عدم استقرار حناننا ، وكم تعوزنا الأصالة الصريحة ، وينقصنا الأمل العظيم ؛ وكم هو خجول فرحنا ، وعريانة تقاليدنا ؛ وكم هي فارغة ذكرياتنا ، وكم نحن نحتاج إلى تلك العواطف النابضة التي تربط الانسان إلى الانسان ؛ وكم هو سطحي يأسنا نفسه . وبعدما تلقّنت أساليب أخرى في الحياة اعتدت أن أتروّى باستهزاء غير واعٍ في أولئك الذين يحسبون الزنوج يعيشون حياة لاهبة ! ورأيت أن ما يُعتبر قوة شعورية فينا لم يكُ إلا اضطراباتنا السلبية ، ونضالاتنا ، ومخاوفنا ، وتهيّجنا تحت وطأة الضغط والكبت .

وكلما فكرت في عري وجفاف حياة الرجل الأسود في أميركا ،

أدركتُ أن الزنوج لم يُسمح لهم أبداً بالوصول إلى الروح الكاملة للحضارة الغربية ، وأنهم يعيشون فيها ولكن ليس منها . وحين كنت أفكر في العقم الثقافي لحياة الرجل الأسود ، كنت أتساءل عما إذا كان الحنان النظيف الايجابي ، والحب ، والشرف ، والاخلاص ، والقدرة على التذكر ، فيما إذا كانت هذه الأمور أصيلة في الانسان . وسألتُ نفسي إن كانت تلك الصفات لا تُخلق خلقاً ، وتكتسب ، ويُناضل في سبيلها ويُقاسى ، ثم تحفظ بالطقوس من جيل إلى آخر .

كان بيت الجدة في جاكسون بقعة ساحرة يرودها المرء ، والبناء مؤلفاً من طابقين يضمان سبع غرف . واعتدتُ وأخي أن نلعب لعبة الإستخفاء في مداخل القاعات الطويلة الضيقة ، وفوق درجات السلم وتحته . وكان ابن الجدة ، الخال كلارك ، قد ابتاع هذا البيت لأمه . وكانت جدرانه البيض . وعتبتاه الأمامية والخلفية ، وعمده المدورة ودرابزونه ، تشعرني جميعاً أن ليس في العالم بأسره منزل أجمل منه .

وكان ثمة حقول فيح خضر ملأتها وأخي عبثاً ولعباً وصياحاً . وكان هناك أطفال الجيران الودعاء ، صبيان وبنات أحسستُ وأخي أننا نسمو عليهم في مضمار المعرفة العملية . وتفختنا الكبرياء عندما رحنا نروي لهم شعور المرء إذ يركب القطار ، وكيف يبدو نهر الميسيسيبي الأصفر الناعس ، والشعور الذي ينتابك إذ تُبحر

على « كيث أدامز » ، وكيف تتراءى بلدة ممفيس للعيان ،وكيف هربت من دار اليتامى • وكنا ننوّه أنّا لن نبقى في هذا المكان سوى عدة أيام ، ثم ننطلق صوب أمكنة أروع وتجارب أفتن •

ورغبة من الجدة في المساعدة في تأمين معاش الأسرة ، فقد استضافت معلمة زنجية تدعى إيلا ، وهي شابة في مقتبل العمر ذات سلوك قصيّ حالم صموت ، ضعضعني الخوف منها وهم يقدمونني إليها • وما أكثر ما وددتُ أن أسألها عن الكتب التي لا تبرح تطالعها طوال الوقت ، لكن لم أستطع قط أن أستجمع ما يكفي من شجاعة لطرح ذلك السؤال • ورأيتها عصر يوم جالسة تقرأ وحيدة على العتبة الأمامية •

توسلت إليها :

ـ إيلا ، أرجوك أن تخبريني عما تقرأين •

فقالت مراوغة ،وهي تختلس النظر حوالينا في خشية :

ـ إنه كتاب ليس غير •

فاستطلعتُ :

ـ عمّ يتحدث ؟

فردّت عليّ :

ـ جدتك لا تحبّ أن أحدثك عن الروايات •

وميزت شيئاً من العطف في صوتها •

نبرتُ بصوت عالٍ جسور :

ـ لست أبالي •
ـ صه ، يجب ألا تقول مثل هذا •
ـ لكنني أريد أن أعرف •
فأجابتني :
ـ حينما تكبر ، فستقرأ كتباً وتعرف محتوياتها •
ـ بيد أنني أريد أن أعرف الآن •
وسرحت تفكر برهة ، ثم أغلقت الكتاب ، وهتفت :
ـ تعال هنا •
وجلست عند قدميها ، ورفعتُ إليها وجهي •
بدأت تسرد عليَّ في صوت خفيض :
ـ في غابر الزمان وسالف العصر والأوان كان رجل عجوز اسمه ذو اللحية الزرقاء •

وهمست لي قصة ذي اللحية الزرقاء وزوجاته السبع ، فلم أعد أرى العتبة ، ولا أشعة الشمس ، ولا وجهها ، أو أي شيء آخر • وبينا كلماتها تتهادى على أذنيَّ الجديدتين ، كنت أسبغ عليها واقعية تفجرت من حيث لا أدري في باطني • وروت لي كيف خدع ذو اللحية الزرقاء زوجاته السبع وتزوجهنَّ ، وكيف أحبهنَّ وذبحهنَّ ، وكيف علقهنَّ من شعورهنَّ في غرفة صغيرة مظلمة • وجعلت القصة العالم المحيط بي يمور بالحياة • وإذ هي تتحدث ، تغيَّر الواقع ، وتبدل مظهر الأشياء ، وَعَمَرَ العالم

بأشخاص سحريين ، وعمق شعوري بالحياة ، وغدا إحساسي بالأمور مختلفاً نوعاً ما • وكنت أقاطعها دون انقطاع ، مسروراً مسحوراً ، أسألها بعض التفاصيل • والتهبت مخيلتي • ولم تفارقني الاحساسات التيخلقتها القصة في جوانحي • وحين شارفت على النهاية ، حين تفتح اهتمامي وازدهر ، حين غرقت في العالم المحدق بي ، اندفعت الجدة عجلى الخطا إلى العتبة ، وصاحت :

ـ كفي عن هذا ، أيتها الشيطانة ! لست أريد شيئاً من هذه النفايات الشيطانية في بيتي !

وهزني صوتها بحيث فغرتُ فمي • وبقيت برهة لا أعي ما يدور حولي •

وغمغمت إيلا ، وهي تنهض :

ـ أنا آسفة ، يا سيدة ويلسون • لكنه طلب إليَّ ••

فانفجرت جدتي :

ـ إنه غرّ أحمق ، وأنت تعرفين هذا !

فحنت إيلا رأسها ، ودخلت البيت •

واحتججت ، عارفاً أنه كان من واجبي الاحتفاظ بالصمت :

ـ لكنها ، يا جدتاه ، لكنها لم تنته •

فعرّت نواجذها ، وصفعتني على فمي بقفا يدها ، وغمغمت:

ـ أطبق شفتيك • لستَ تعرف عمّ تتحدث !

فصرخت باكياً ، وأنا أروغ من ضربة أخرى حسبتهـا في طريقهـا إليّ :

ــ لكنني أريد أن أسمع ماذا حصل !

فصاحت :

ــ هذا عمل الشيطان !

كانت جدتي بيضاء البشرة بقدر ما يمكن للزنجي أن يكون كذلك من دون أن يكون أبيض ، الأمر الذي يعني أنها كانت بيضاء • وارتعش لحم وجهها المتهدّل المرتخي ، وحملقت فيّ عيناها النجلاوان المتباعدتان والداكنتان العميقتان • وضاقت شفتاها حتى غدتا خطاً واحداً • وتغضّنت جبهتها العالية • كان جفناها ينسدلان نصفياً فوق حدقتيها حينما يعروها الغضب ، فيمنحها ذلك طلعة محزنة •

أخبرتها قائلاً :

ــ لقد أحببت القصة •

فصاحت في قناعة ثائرة حتى قد صدقتها طوال لحظة :

ــ سوف تحترق في جهنم •

وغمرني جهلي ببقية القصة بشعورٍ من الفراغ والخسارة• كنتُ أحنّ إلى ذلك الانفعال الحار المرعب ، الآخذ بتـلابيب التنفس ، الأقرب إلى درجة الإيلام الذي منحتنيه القصة ، فأقسمت أن أبتاع حالما أكبر جميع الروايات الصادرة وأقرؤها

وأغذي ذلك العطش الكامن فيّ إلى العنف ، والمكيدة ،والتآمر، والأسرار ، والجرائم الدامية . لقد كان ذلك الوتر الذي ضربت القصة عليه في نفسي متجاوباً بصورة عميقة ، بحيث لم تؤثر فيّ تهديدات أمي وجدتي ووعيدهما . وحسبت جدتي وإيلا إصراري ولجاجتي تصلّباً محضاً، مجرّد حماقة سرعان ما تنقضي . وما خطر في بالهما مقدار الجدّ البالغ درجة اليأس الذي خلقته القصة فيّ . ما كان لهما أن تعرفا أن قصة إيلا المهموسة عن الخداع والقتل كانت أول اختبار في حياتي استدعى في نفسي تجاوباً عاطفياً كاملاً . لم يكُ التهديد أو العقاب ليبعثا الشك في نفسي . فقد تذوّقت طعم ما اعتقدت أنه الحياة ، وعزمت أن أنال منها مزيداً بأية طريقة كانت . وأيقنت أنهما لن تفهما ماذا يعتلج في حناياي من أحاسيس ، فاعتصمت بالسكينة . لكنني كنت أنزلق ، حين تغفل العيون عني ، إلى غرفة إيلا فأسرق كتاباً ، وأحمله إلى زاوية المخزن ، وأحاول قراءته . وكنت أعجز عادة عن حلّ ما يكفي من كلماته لتتضح لي القصة ويصير لها معنىً ، فأتحرّق كي أتعلم قراءة الروايات ، وألاحق أمي لتفسّر لي معنى كل كلمة غريبة أراها ، ليس لأن لتلك الكلمة أية قيمة ، بل لأنها الدرب المؤدية إلى أرضٍ محرّمة وساحرة تخلب اللب .

وغدت أمي عصر أحد الأيام فريسة مرض خطير أضجعها

الفراش • وأخذت جدتي على عاتقها ، لما يسقط الليل ، التحقق من اغتسالي وأخي • كانت تضع وعائين كبيرين من الماء في غرفتنا وتأمرنا بخلع ثيابنا ، فنفعل ذلك • وكانت تجلس في أقصى الغرفة ، تحوك الجوارب ، وترفع عينيها بين آونةوأخرى عن صوفها لتراقبنا وترشدنا • وكنت وأخي نتراشق بالماء ، ونلعب ، ونضحك ، ونحاول جهدنا لنقذف رغوة الصابون في عيوننا • وكانت الأرض تمسي على درجة عظيمة من القذارة حتى تعنفنا الجدة •

ــ كفّا عن هذه الحماقة واغتسلا !

فنردُّ عليها بشكل آلي ، ونحن نتابع لهونا :

ــ أمرك ، يا سيدتي •

وجرفت ملء قبضتين من رغوة الصابون وصحتُ بأخي ، فاستدار ، فقذفتُ بها ، لكنه راغ من طريقها فتبعثر الزبد الأبيض على الأرض •

ــ ريتشارد ، كفَّ عن اللعب واغتسل •

فقلتُ ، وأنا أُراقب أخي لأغتنم فرصة غفلة منه فأقذفه بمزيدٍ من رغوة الصابون :

ــ أمرك ، يا سيدتي •

وأمرت جدتي ، وهي تضع عملها جانباً :

ــ تعال هنا ، أنت يا ريتشارد !

فمضيتُ إليها ، أسير خجولاً عارياً على أرض الحجرة .
وتنشت المنشفة من يــدي وراحت تمسح أذنيَّ ، ووجهــي ، وعنقي .

أمرتني :

ــ انحنِ .

فانحنيت ، فمسحتْ مؤخرتي . كان ذهني غارقاً في بحران من اللاوعي ، بين أحلام اليقظة والتفكير . ومن ثمة ، وقبل أن أسترد شعوري ، انزلقت من فمي بضع كلمات ــ كلمات لــم أُدرك مغزاها الحقيقي .

قلتُ ، والكلمات تتدحرج بلطف لكن عن غير قصــد أو سابق تصميم :

ــ حينما تنتهين ، قبّلي ذلك المكان .

وكانت أولى الدلائل المشيرة إلى أني جئت أمراً مغلوطاً أنَّ جدتي تجمَّدت كلياً، ثم دفعتني بعنفٍ بعيداً عنها . فاستدرتُ فرأيت وجهها الأبيض متجمداً ، وعينيها السوداوين العميقتين تحدقان فيَّ بثبات . وأدركتُ استناداً إلى سيماها المريبة أني قلتُ شيئاً كريهاً ، لكن لم أعِ في تلك اللحظة مقدار شناعته .
ونهضت جدتي ببطء ، ورفعت المنشفة المبلولة عالياً فوق رأسها ، وهوت بها على ظهري العاري بكل غضب جسدها البالغ مــن العمر ستين سنة ، مخلّفة خطاً واخزاً من النــار يحترق على

جسدي ويرتعش . ولهثتُ ، وأمسكتُ أنفاسي ، أناضل ضدّ الألم ، ثم نحتُ وتذللت . ولم أتبين معنى ما تفوّهت به ، ولم أكن أشعر بشناعته الأخلاقية ، فبدا لي هجومها لا مسوغ له على الاطلاق . ورفعت المنشفة المبلولة وضربتني من جديد بقوة عاتية طوّحت بي على ركبتيّ . وعرفتُ أنها قاتلتي إنْ لم أفرّ من طريقها ، فنهضت ، عريان ، ووليت الأدبار من الغرفة صارخاً . وهرعت أمي من سريرها .

استعلمت من جدتي :

ــ ما الأمر ، يا أماه ؟

وتريثت في الممرّ ، مرتجفاً ، أرنو إلى جدتي ، أحاول الكلام فلا أحرك غير شفتي . وبدا لي أن جدتي فقدت عقلها ، إذ انتصبت كالحجر الصلد ، وعيناها مثبتتان فيّ ، وشفتاها لا تنضّان بحرف .

سألت أمي :

ــ ريتشارد ، ماذا فعلت ؟

فهززتُ رأسي ، وأنا أستعد للهرب من جديد .

واستفسرت أمي مني ، ومن جدتي ، ومن أخي ، وهي تدور برأسها من أحدنا إلى الآخر :

ــ ما الأمر ، بحقّ الله ؟

وذبلت جدتي ، واستدارت قليلاً ، وقذفت بالمنشفة أرضاً ،

ثم انفجرت باكية •

همهمت :

ـ هو •• كنت أحاول تغسيله ••

وتابعت كلامها ، مشيرة بيدها :

ـ هنا •• و ••• وذلك الشيطان الأسود الصغير •

كان جسدها يرتجف، بالاهانة والغضب :

ـ وطلب إليَّ أن أقبّله حيث كنت أغسل •

فحملقت أمي الآن دون كلام ، ثم أعلنت :

ـ كــلا !

فجمجمت جدتي :

ـ بلى •••

فاحتجت أمي :

ـ هو لم يقل « ذلك » !

فزفرت جدتي :

ـ بل قال •

أصغيتُ ، عارفاً أني اقترفت خطيئة جسيمة ليس في مكنتي تداركها ، وأني تفوّهت بكلمات ما كنت بقادرٍ على تذكرها رغم جهودي لمحوها ، وقتلها ، والرجوع بالزمان إلى اللحظة السابقة لما نطقتُ به بحيث تسنــح فرصة أخرى للخلاص • والتقطت أمي المنشفة المبلولة واتجهت صوبي • فأسرعت إلى

المطهى ، عريان باكياً •• وهو قاسية على عقبيّ ، فأفلت إلى الساحة الخلفية ، راكضاً كالأعمى في الظلمة الدامسة ، ضارباً رأسي بالسور ، والأشجار ، هارساً أصابعي على قطع من الخشب، وفمي لا يفتر عن القذف بالزعيق والعويل • ما كنت أملك طريقة أقيس بها مدى شناعة خطيئتي ، فتصوّرت أني أتيتُ أمراً لن يُغتفر لي أبداً • ولو أني عرفتُ كيف صعقتهما كلماتي ، إذن لجمدتُ في أرضي وتحمّلت عقوبتي ، لكن الشعور بأن شيئاً سيحدث ، أو يمكن أن يحدث لي ، هو الذي جعلني أجنّ هلعاً •

صاحت أمي :

ــ تعال هنا ، أيها الأحمق الصغير القذر •

وزغت منها وخففتُ عائداً إلى البيت ، ثم إلى الممر من جديد ، يطير جسدي العريان رعباً في الفضاء • وتكوّمت في زاوية مظلمة • وبلغتني أمي ، تتنفس بصعوبة •• وتجمّعتُ، وزحفتُ ، ووقفتُ ، ثم ركضتُ من جديد •

قالت أمي :

ــ يحسن بك أن تقف هادئاً • لسوف أضربنّك الليلة ولو كان هذا آخر ما أفعله على هذه الأرض !

ولحقت بي من جديد فهربتُ متفادياً ضربة المنشفةالمبلولة ، واتنهيت إلى الغرفة حيث يقف أخي •

سألني ، لأنه لم يكن قد سمع ما نطقتُ به :
ــ ما الأمر ؟
وهوت ضربة على فمي . فدرتُ . كانت جدتي فوقي . ووجهت إلى رأسي ضربة ثانية بقفا يدها . ثم جاءت أمي إلى الغرفة . فهويتُ على الأرض ، وزحفت تحت السرير .
نادتني أمي :
ــ أخرج إلى هنا .
فأنشأت أنوح :
ــ لن أخرج .
ــ أخرج وإلا ضربتك حتى آخر نفس في حياتك .
ــ لن أفعل .
فأعلنت جدتي :
ــ نادِ بابا .
فارتجفت . إن جدتي ترسل أخي طلباً لجدي ، هذا الـذي أخافه كثيراً . كان رجلاً أسود اللون ، طويل العود ، صموتاً ، متجهم الوجه ، خلواً من اللحم ، اشترك في الحرب الأهلية في صفّ جيش الاتحاد . وكان يطحن أسنانه وقتما يعروه الغضب بصدىً مرعب، ويحتفظ ببندقيته الحربية في غرفته ، تنتصب محشوة في إحدى الزوايا . وكان يطغى عليه الهوس بأن الحرب بين الولايات ستشتعل من جديد ويتأجج أوارها . وسمعت أخي

يندفع خارج الغرفة ، فأدركت أن الأمر لن يعدو دقائق معدودة حتى يجيىء جدي • وطويت نفسي في عقدة ونشجت :

ــ كلا ، كلا ، كلا ••

وقدم جدي ، وأمرني بالخروج من تحت السرير ، فرفضت أن أتحرك •

ــ أخرج من مربضك ، أيها الرجل الصغير •

ــ لن أفعل •

ــ أتريدني أن آتي ببندقيتي ؟

فصحت :

ــ كلا، يا سيدي • أرجوك ، لا تطلق النار عليّ •

ــ أخرج إذن •

ظللت ساكناً • فأمسك جدي بالسرير ودفعه جانباً •وتعلّقت بعمود السرير ، فتجرجرتُ على الأرض • وركض جدي صوبي محاولاً القبض على ساقي ، بيد أني أفلتّ من متناول يده • وربضتُ على أربعٍ ، وجثمت تحت مركز السرير ، أنتقل معه كلما تحرك من مكانه •

زعقت أمي :

ــ أخرج ونل نصيبك من الجلد !

فبقيت ساكناً • وتحرك السرير فتحركت معه • لم أفكر ، ولم أضع خطة ، ولم أرسم مكيدة • فالغريزة تنبئني بما أفعل •

كان ثمة خطر أليم ، وكان عليّ اجتنابه • وكفّ جدي أخيراً عن ملاحقتي وقفل إلى غرفته •

قالت أمي :

ـ ستنال نصيبك من الجلد حالما تخرج •• مهما قبعت ههنا ، فلا بدّ أن تنال هذا النصيب • ولن يكون لك طعام هذه الليلة •

وسأل أخي :

ـ ماذا فعل ؟

فقالت جدتي :

ـ شيئاً يستأهل الموت عليه •

وعاد أخي يسأل :

ـ لكن ماذا ؟

فنبرت أمي :

ـ إخرس واذهب إلى سريرك •

قبعت تحت السرير حتى مضى هزيع من الليل ، ونام سكان الدار • واضطرني الجوع والعطش أخيراً إلى الخروج ، فما نهضت على قدمي حتى شاهدت أمي متربّصة في الممرّ ،تنتظرني•

قالت :

ـ تعال إلى المطبخ •

فتبعتها ، فضربتني ، لكنها لم تستعمل المنشفة المبلولة ، لأن

جدي منع ذلك • وكانت تستعلم مني بين ضربات القضيب من أين تعلمت تلك الكلمات القذرة فما كنت أستطيع إخبارها • وزادها عجزي عن إخبارها غضباً وهياجاً •

أعلنت :

ـ سأظل أضربك حتى تخبرني•

وما كان في طوقي أن أخبرها لأني لم أكن أعرف ، فالكلمات الفاحشة التي تعلّمتها في مدرسة ممفيس لم تتطرّق قط إلى أي نوع من الانحرافات ، رغم أني قد أكون تعلمت تلك الكلمات أثناء ترنحي سكران في الحانات • وقالت جدتي مؤكدة في اليوم التالي أنها تعرف هوية الذي دمرني ، وأنها تعرف أين تعلّمت أموراً عن « الممارسات القذرة » من قراءة كتب إيلا ، وحين سألتُ ما معنى « الممارسات القذرة » ضربتني أمي من جديد • ورغم سائر الجهود التي بذلتُ لأُثبت لهما أني لم أقرأ تلك الكلمات في كتاب أو أني لا أتذكر أني سمعتُ إنساناً يتلفّظ بها ، فما كانتا تصدقانني • وحملت جدتي على إيلا أخيراً لإخباري بأمورٍ ما كان يجب أن أعرفها ، فحزمت إيلا أمورها باكية ذاهلة ، ورحلت عن البيت • وعرفتُ من الهياج العظيم الذي سبّبته كلماتي أن وراءها أموراً أعظم من أن أستطيع تصوراً لها ،فقررت أن أتعلّم في المستقبل معنى الكلمات التي ضربوني وعنفوني من أجلها •

وراحت الأيام والساعات تتحدث الآن بلســان أوضح .
وكانت كل تجربة تحمل معنىً قاسياً حاداً خاصاً بها .
كان ثمة ذلك اللهو القلق الذي يبهر النفس ، الناشىء عن مطاردة الحباحب الخفّاقة واصطيادها في أمسيات الصيـف الخانقــة .
والضيافة المُغرقة في رائحة نبات المنغوليا الحلوة المنتشرة .
وكان ثمة نسيم الحرية غير المحدودة ، المستقطرة من حصد العشب الطويل الأخضر المتموج البرّاق تحت الريح والشمس .
وذلك الاحساس بالرخاء المجهول ،حينما أرى جوزة قطـن انهرق تـويجها وتدلى صوفها في اتجاه الأرض .
والضحكة المكتومة الشفوق ، التي تفور في حلقي وأنـا أرقب بطة سمينة تتهادى عبر الساحة الخلفية .
وكان ثمة ذلك الترقب ، الذي أحسستُ لما سمعتُ الأغنية المتوترة الحادة التي تطنُ بها نحلة صفراء سوداء ترفرف بعصبية لكن بصبر فوق زهرة بيضاء .
وذلك الشعور الناعس المكدود ، الناشىء عن ارتشـاف أكواب من الحليب وابتلاعها على مهلٍ بحيث تدوم هذه العملية زمناً طويلاً ، وبكميةٍ كافية ، للمرة الأولى في حياتي .
والتسلية المرّة في ذهابي إلى المدينة مع جدتي ، ومراقبـة نظرات القوم البيض الحائرة لدن رؤيتهم امرأة بيضاء عجوزاً

تقود صبيين زنجيين تماماً ، داخلة خارجة بهما مخازن شـارع الكابيتـول .

وكان ثمة رائحة طهي بذور القطن المنعشة والبطيئة التي يسيـل اللعاب لها .

وهنالك المتعة المثيرة في الصيد في نهيرات القرية الموحلة مع جدي في الأيام الغائمة .

وذانك الخوف والخشية ، اللذان تملكاني لما صحبني جدي إلى منشرة للخشب لأشاهد الشفرات العملاقة المصنوعة مـن الصلب تعول وتصيح ، وهي تضرب في جذوع خضرٍ ندية من الأخشـاب .

وتلك النكهة القوية التي أرغمتني على البكاء حينما أكلت أول ثمرة نصف ناضجة من ثمر الكاكي .

وذلك الفرح الجشع المنبعث من نكهة الجوز الأمـيركي البـري .

وكان ثمة ذلك الصباح الصيفي الحار الجاف ، حينمـا خدشت ذراعي العاريتين وأنا أجمع توت العلّيق ، ورجعت إلى البيت وأصابعي وشفتاي مصبوغة باللون الأسود من عصـير التوت اللذيذ .

وتلك اللذة في تناول أول سندويشة من السمك المقلو، أقرضها ببطء وآمل ألا آتي عليها أبداً .

وأيضاً ذلك الألم في معدتي طـوال الليل ، بعدما تسلقت شجرة أحد الجيران والتهمت خلسة دراقها الفج •

ومن بعد ذلك الصباح ، حين خطر لي أني سأموت خوفاً بعدما دست بقدمي العارية على أفعى صغيرة لمّاعة من أفاعي الحدائـق الخضر •

وأخيراً تلك الليالي والأيام الطويلة ، البطيئة ، الناعسة ، حيث لا ينقطع تهطال المطر الخفيف •••

★ ★ ★

ها نحن في المحطة أخيراً مع حقائبنا ، ننتظر القطار الـذي سيقلّنا إلى أركنساس ، فلاحظت لأول مرة أن ثمة صفين من الناس عند شباك التذاكر ، صفاً « أبيض » وآخر « أسود » • لقد تولّد فيّ ، خلال زيارتي لجدتي ، شعور حاد بالعرقين لـن يموت قط حتى تواتيني المنيّة • ولما ركبنا القطار شاهدت أنّا ، نحن الزنوج ، نشغل جانباً من القطار ، بينا يشغل البيض جانباً آخر • وأردتُ بسذاجة أن أذهب لأرى كيف يبدو البيض وهم جلوس في جانبهم من القطار •

سألت أمي :

ـ هل أستطيع أن أذهب وأسترقّ النظر إلى القوم البيض ؟

ـ إهدأ أنت •

ـ لكن ، لا بأس في ذلك ، ممّا ؟

ـ أفلن تهدأ ؟

ـ لكن ، لماذا لا أستطيع ؟

ـ كفَّ عن هذه الأحاديث الحمقاء .

وبدأت ألاحظ أن أمي تتضايق حينما أسألها عن البيض والسود، فلم أستطع فهم ذلك جيداً . كنت أريد أن أعرف بهذين الصنفين من الناس الذين يعيشون جنباً إلى جنب ولا يتماسون قط ، على ما يظهر ، إلا في العنف . وثمة جدتي .. أهي بيضاء ؟ وكم هي بيضاء بالضبط ؟ وما رأي البيض في بياضها ؟

توجهت بالسؤال ، والقطار تطويه الظلمة :

ـ أماه ، هل جدتي بيضاء ؟

فقالت أمي :

ـ إن كنت تملك عينين ، فأنت تستطيع رؤية لونها .

ـ أعني هل يعتقد القوم البيض أنها بيضاء ؟

فأجابت :

ـ لماذا لا تسأل القوم البيض عن ذلك ؟

فقلتُ :

ـ لكنك تعرفين .

فسألت :

ـ ولماذا يجب أن أعرف ؟ أنا لست بيضاء .

فقلتُ ، راجياً أن أتحقق من حقيقة واحدة على الأقل :

ــ إن جدتي تبدو بيضاء . ففيمَ تحيا معنا نحن الملونين إذن ؟

فاستفسرت ، متضايقة من سؤالي :

ــ أفلا تريد أن تعيش الجدة معنا ؟

ــ بلى .

ــ لماذا تســـأل إذن ؟

ــ أريد أن « أعرف » .

ــ أفلا تعيش الجدة معنا ؟

ــ بلى .

ــ أفلا يكفي هـــذا ؟

ــ لكن ، أهي « تريد » أن تعيش معنا ؟

وتهرّبت أمي من سؤالي قائلة في صوت متوتر :

ــ لِمَ لا تسأل الجدة عن هذا ؟

ــ هل أصبحت جدتي ملونة يوم تزوجت جدي ؟

ــ أفلن تكفّ عن هذه الأسئلة الحمقاء ؟

ــ خبريني .

فأعلنت أمي غاضبة :

ــ الجدة لم « تصبح » ملوّنة . فقد « ولدت » بلونها هذا .

ومرّة ثانية مُنع السرّ عني ، هذا الأمر الواقع الذي أستشعره تحت الكلمات والصمت على السواء .

استوضحت :

ـ لماذا لم تتزوج الجدة رجلاً أبيض ؟

فردت أمي متبرمة :

ـ لأننا لم نرد ذلك .

ـ لماذا لا تريدين أن تحدثيني ؟

فصفعتني ، فبكيت .. وأخبرتني بعيد ذلك متذمرة أن الجدة تنحدر من أصل ايرلندي ، واسكوتلندي ، وفرنسي ، امتزج به الدم الزنجي في مكان وشكل ما . وشرحت لي ذلك في لهجة واقعية ارتجالية ، حيادية ، لم تتدخل فيها عواطفها أبداً .

ـ ماذا كان اسم جدتي قبل اقترانها بجدي ؟

ـ بولدن .

ـ من أعطاها هذا الاسم ؟

ـ الرجل الأبيض الذي كان يملكها .

ـ أكانت عبدة ؟

ـ نعـم .

ـ وهل كان بولدن اسم والد جدتي ؟

ـ جدتك لا تعرف من كان والدها .

ـ وهكذا منحوها أي اسم كان ؟

ـ لقد أعطوها اسماً ، وهذا كل ما أعرف .

ـ أفلا تستطيع جدتي أن تعرف من كان والدها ؟

ـ لماذا ؟

ـ إذن ، فهي تستطيع أن تعرف .

ـ تعرف لماذا ؟

ـ كي تعرف فقط .

ـ لكن « لماذا » ؟

فلم أعرف لماذا ...

ـ أماه ، ومن أين جاء والدي باسمه ؟

ـ من والده .

ـ ومن أين جاء والد والدي باسمه ؟

ـ مثلما جاءت الجدة باسمها ، من رجل أبيض .

ـ وهل يعرفون من كان ؟

ـ لست أدري .

ـ لِمَ لا يبحثون عن ذلك ؟

فسألت أمي بجفوة :

ـ لماذا ؟

وعجزت عن التفكير في مبرّر عملي أو معقول يستحثُّ والدي لاكتشاف هوية والد والده .

استقصيتُ :

ـ ما هو الـدم الذي يجري في عروق أبي ؟

ـ بعضه أبيض ، وبعضه أحمر ، وبعضه أسود .

ـ هندي، وأبيض ، وزنجي ؟

ـ نعــم .

ـ إذن ، من أنا ؟

فقالت :

ـ سيطلقون عليك لقب ملوّن حينما تكبر .

ثم استدارت إليّ، وتبسَّمت متهكمة ، واستفسرت :

ـ أيضيرك هذا ، يا سيد رايت ؟

فغضبتُ ، ولم أحر جواباً . ما كنت أُبالي أن أُنادى ملوناً ، لكنني عرفت أن ثمة شيئاً تمسكه أمي عني . لم تكــن تخفي حقائق بل مشاعر ، ومواقف ، ومعتقدات ما كانت تريدني أن أعرفها ، فغضبت حينما نخستها طلباً لمعرفة تلك الأمور . حسناً ، سوف أكتشف ذلك يوماً ما . انتظري فقط . حسناً ، أنا ملوّن. ولا بأس . ما كنت أملك ما يكفي من معرفة كي أخاف أو أترقب الأمور بطريقة غير مجردة . وصحيح أني سمعتُ أنهم يقتلون الملونين ويضربونهم ، إلا أن ذلك كان يتراءى لي بعيداً جداً . ولا ريب أن ثمة قلقاً مخيفاً في ذلك كلّه ، بيد أنني مستطيع تمالك زمام نفسي عندما أبلغ إليه . وسيكون ذلك بسيطاً .. إذا حاول إنسان قتلي ، فلسوف أقتله أولاً .

ولما وصلنا بلدة إيلين رأيت أن الخالة ماجي تعيش في كوخ يحيطه سور" . كان يلوح مثل بيتنا ، فكنت به مسروراً . ولم

يراودني أي شك في أني لن أعيش في هذا الكوخ غير زمن قصير ، وأن كيفية رحيلي عنه ستكون معموديتي الأولى فيما يتعلّق بالعاطفة العرقية •

كانت تمرُّ بالبيت طريق مُتربة عريضة ، وعلى جانبيها تنمو زهور برية • كان الوقت صيفاً ، ورائحة الطين والتراب تعبق في كل مكان ، ليلاً ونهاراً • وكنت أنهض باكراً كل صباح لأخوّض بقدمي العاريتين في تراب الطريق ، وأعربد في ذلك الخليط الغريب من الندى الرطب البارد الذي يكسو قمتها والغبار الملفوح بالشمس من تحته •

وكان النحل يهبُّ بعد أن تشرق الشمس ، فاكتشفت أني أستطيع إذا ما صفقت كفيَّ بسرعة أن أقتل نحلة • وأنذرتني أمي بالكف عن ذلك ، وأخبرتني أن النحل يصنع العسل ، وأن ليس من الخير أن نقتل الأشياء التي تصنع الطعام ، وأنها لا بدَّ ستلسعني أخيراً • وكنتُ واثقاً من قدرتي على خداع أية نحلة • وصفقت يدي ذات صباح على نحلة كبيرة وهي تحاول الوقوف على زهرة ، فلسعتني في الموضع اللين من راحتي اليسرى •وعدت إلى البيت باكياً •

عقَّبت أمي بجفوة :

ـ هذا جزاؤك •

فلم أسحق أية نحلة بعد ذلك •

كان زوج الخالة ماجي ، الخال هوسكينز ، يملك حانـة تُموّن آلاف الزنوج العاملين في مناشر الخشب المحيطة بنا . وإذ مرت على صفحة ذاكرتي حانة الأيام التي قضيتُ في ممفيس، فقد رجوت الخال هوسكينز أن يصحبني لرؤيتها ،فوعدني بذلك، بينا مانعت أمي . كانت تخاف أن أشبّ سكيراً إذا عدتُ إلى الحانة من جديد وأنا طفل بعد . حسناً ، إذا كنت لا أستطيع رؤية الحانة ، فأنا أقدر أن آكل على الأقل . فمائدة الخالة ماجي، في فترات الطعام ، مشحونة بالمآكل حتى أكاد ألا أصدق أن ذلك حقيقة واقعة . وقد تطلّبت بعض الوقت لأعتاد على فكرة وجود ما يكفي من الغذاء ، وكنت أشعر أني إن طعمت كفاية فلن يبقى شيء لوقت آخر .وحين جلست إلى مائدة الخالة ماجي لأول مرة ، لم أقوَ على مدّ يديّ حتى سألتُ :

ــ هل يمكنني أن آكل ما أريد ؟

فقال الخال هوسكينز :

ــ كُلْ بقدر ماتريده.

فلم أصدقه . وأكلت حتى آلمتني معدتي ، إلا أنني توانيت عن النهوض عن المائدة .

نبرت أمي :

ــ عيناك أكبر من معدتك .

فقال الخال هوسكينز :

ـ دعيه يأكل ما يريد حتى يألف الطعام .

ولما انتهى العشاء وجدتُ مجموعة من البسكويت مصنوفة على شكل رابية عالية في صحن الخبز ،وذلك عندي مشهد مدهش لا يُصدَّق . ورغم أن البسكويت كله في متناول يديَّ ، ورغم وجود المزيد من الطحين في المطهى، فقد كنتُ أخاف ألا يبقى شيء من الخبز لفطور اليوم التالي . وكنت أخشى أن يختفي البسكويت بطريقة ما أثناء الليل ، بينا أنا أغطُّ في نومي . وما أردتُ أن أفيق في الصباح ، مثلما حدث كثيراً في الماضي ،شاعراً بالجوع ، عارفاً أن ليس في الدار طعام . وهكذا ، تناولت شيئاً من البسكويت خلسة ، ووضعته في جيبي ، لا لأطعمه،بل لأحتفظ به حصناً ضدَّ أي هجوم محتمل يشنُّه الجوع عليَّ . وحتى بعدما اعتدت رؤية المائدة مشحونة بالطعام لدى كل وقعة ، ظللت أسرق الخبز وأخفيه في جيوبي . وكانت أمي تعثر على قطع الخبز وهي تغسل ثيابي ، وتزجرني لأطلّق تلك العادة ، فامتنعت عن إخفاء الخبز في جيوبي وطفقت أخبئه في البيت ، في الزوايا وخلف الخزائن . ولم أمتنع عن عادة السرقة وإخفاء الخبز حتى آمنت إيماناً جازماً بأن الطعام لن ينقص أبداً في أية وقعة تقدَّم لنا .

كان الخال هوسكينز يملك حصاناً وعربة ، وكان يصحبني أحياناً إلى مدينة هلينا ، حيث يعمل بالمتاجرة . وخاطبني مرة بينا كنت أركب معه :

ـ ريتشارد ، أتحبّ أن ترى هذا الحصان يشرب الماء من وسط النهر ؟

فقلت ضاحكاً :

ـ أجل • لكنّ هذا الحصان لا يستطيع ذلك •

فقال الخال هوسكينز :

ـ بل يستطيع • إنتظر ، وسترى •

وساط الحصان ، وقاد العربة صوب نهر الميسيسيبي •

سألت ، وقد ركبني الذعر :

ـ أين أنت ذاهب ؟

ـ سنذهب إلى وسط النهر حيث يستطيع الحصان أن يشرب •

وساق العربة فوق الرصيف ، وهبط المنحدر الطويل من الأحجار حتى حافة النهر حيث غطس الحصان بوحشية • ورنوت إلى المياه البالغة ميلاً في البعد ، والمنبسطة أمامنا ، ثم قفزت في رعب وأنا أصيح :

ـ كلا !

فأعلن الخال هوسكينز في جفوة :

ـ هذا الحصان يجب أن يشرب •

فزعقت :

ـ النهر عميق •

فقال الخال هوسكينز ، وهو يضرب مؤخرة الحيوان المجاهد:
ـ الحصان لا يستطيع الشرب هنا .
ومضت العربة تتقدّم . وأبطأ الحصان من خطوه قليلاً ، ورفع رأسه فوق مجرى التيار . وقبضت على طرفي العربة ، على أُهبة القفز ، رغم جهلي بالسباحة .
صاح الخال هوسكينز :
ـ إجلس ، وإلا وقعت !
فزعقت :
ـ دعني أذهب !
وارتفعت المياه إلى قلب عجلات العربة . وحاولت القفز في النهر ، فأمسك بي من ساقي . وهذان نحن الآن تحوطنا المياه من كل صوب .
واستأنفتُ صراخي:
ـ دعني أذهب !
وتابعت العربة تقدمها والمياه تزداد ارتفاعاً . ورفع الحصان رأسه ، وقوّس عنقه ، وقذف ذيله هنا وهناك ، وابيضت عيناه ، وشخر منخراه . وقبضتُ على جانبي العربة بكل ما فيّ من قوة ، مستعداً للتخلّص منها والقفز إذا ما ازدادت العربة عمقاً في النهر . واحتدم النضال بيني وبين الخال هوسكينز .
نعب بالحصان أخيراً :

ـ هووو !

وتوقف وحمحم . كانت المياه الصفراء تلتفُّ بنا بحيث أستطيع لمس سطح الماء في النهر . ورنا الخال هوسكينز إليَّ ضاحكاً ، واستفسر :

ـ أكنت تعتقد حقاً أني سأقود هذه العربة إلى وسط النهر ؟

كنت خائفاً بحيث عجزتُ عن الجواب . وكانت عضلاتي متوترة بحيث آلمتني .

قال مهدئاً من روعي :

ـ لا بأس .

وأدار العربة وقفل راجعاً صوب الرصيف . كنت ما أزال متشبثاً بجانبي العربة بقوة بحيث لم أستطع تركهما . قال :

ـ نحن في أمانٍ الآن .

ودلفت العربة على الأرض الجافة . وبيناخوفي يتلاشى ،راح إحساس بأني أسقط من ارتفاع شاهق يسيطر عليَّ . وكان يلوح أني أشتمُّ رائحة حادة طرية . وتندت جبهتي ، وراح قلبي يخفق بثقل . قلت :

ـ أريد أن أذهب !

فســأل :

ـ ما بالك ؟

ـ أريد أن أذهب !

ـ نحن على الأرض الآن ، أيها الصبيّ •
ـ لا ! قف ! أريد أن أذهب !
فلم يوقف العربة ؛ بل حتى لم يدر رأسه لينظر إليّ ؛ إنه لم يفهم • وشددتُ ساقي حتى حررتها بقسوة ، وقفزت بسرعة خارج العربة ، فاستقريتَ على غبار الطريق ، سالماً معافىً • وأوقف العربة ، وسألني بلطيف نغمة :
ـ أأنت خائف حتى هذه الدرجة حقاً ؟
فما نفحته بجواب ، إذ ما كنت أستطيع إلى الكلام سبيلاً • لقد تلاشى خوفي الآن ، وبدا لي الخال مثل غريب ، مثل رجل لم أره من قبل قط ، رجل لا أستطيع مقاسمته لحظة واحدة من حياة الألفة والوئام •
ـ تعال ، يا ريتشارد ، ارجع إلى العربة • سأنقلك إلى البيت الآن •
فهززت رأسي وبدأت أبكي •
سأل :
ـ أصغِ ، يا ولدي ، أفلا تأتمني ؟ لقد ولدت على ذلك النهر العجوز • وأنا أعرفه ، ذلك النهر • ثمة طريق من الحجارة والحصى تحت الماء • وفي مقدورك التوغل فيه مسافة نصف ميل دون أن يبلغ الماء رأسك •
فلم تعنِ كلماته شيئاً ، ورفضتُ أنا العودة إلى العربة •

قال بوقار :

ــ يفضل أن أنقلك إلى البيت •

ورحت أهبط الطريق المتربة ، فنزل من العربة ومشى إلى جانبي • لم يشترِ شيئاً ذلك النهار ، وإذ حاول أن يشرح لي ماذا كان يحاول أن يعمل حيث بث الرعب في جوانحي لم أصغ إليه أو أكلمه أبداً • ولم أئتمنه بعد ذلك البتة • وأيان كنت أرى وجهه ، فإن ذكرى رعبي في النهر تعاودني ، حية قوية ، وتقف حائلاً بيني وبينه •

كان الخال هوسكينز يذهب كل يوم إلى حانوته مساءً ، ولا يعود إلى البيت إلا في الساعات الباكرة من الصباح • وكان ينام ، مثل والدي ، في النهار ؛ لكن لم يبدُ أن الأصوات تزعجه • فأصيح وأخي ونضجُّ ما طاب لنا هوانا • وكثيراً ما كنت أزحف إلى غرفته أثناء نومه وأحدق في المسدس الكبير اللامع الموضوع قريباً من رأسه ، في متناول يده تماماً • وسألت الخالة ماجي لماذا يحتفظ بالمسدس إلى جانبه ، فأخبرتني أنَّ رجالاً هددوا بقتله ، رجالاً بيضاً •••

وفزعت من نومي ذات صباح لأعلم أن الخال هوسكينز لم يرجع إلى البيت من حانوته • واضطربت الخالة ماجي ونهشها القلق ••• وأرادت أن تؤم الحانة لتكتشف ماذا حدث ، إلا أن الخال هوسكينز كان قد منعها من الذهاب إلى محلّ عمله •

وتقدّم النهار وحان أوان الغداء •
قالت الخالة ماجي :
ـ سأمضي لأستطلع الخبر •
فردت أمي :
ـ لربما يفضل ألا تفعلي • فقد يكون في الذهاب خطر كبـير •
واحتُفظ بالطعام ساخناً على المُصطلى ، وانتصبت الخالة ماجي على العتبة الأمامية تحدّق إلى الغسق المتكاثف عمقاً ترتصد مقدمه ••• وأعلنت من جديد عن عزمها على الانطلاق إلـى الحانة ، وأقنعتها أمي بالعدول كرة ثانية • وخيّمت الظلمة ، والخال لم يرجع • كانت الخالة ماجي صامتة على مضض •
قالت :
ـ أرجو من الله ألا يكون البيض قد ضايقوه •
ودلفت أخيراً إلى غرفة النوم ، وهمهمت إذ رجعت منها :
ـ إنه لم يأخذ مسدسه • لأتساءل ماذا حدث ؟
وطعمنا في صمت • وسمعنا ، بعد ساعة من الزمن ، صدى خطوات ثقيلة على العتبة الأمامية ، وتلا ذلك قرع شديد على الباب • وركضت الخالة ماجي إلى الباب ففتحته لتجـد فتىً أسود طويلاً يتصبّب عرقاً ، يرتعش ، ويهزّ رأسه • ثـم يرفع قبعته ويلهث :

ـ السيد هوسكينز .. قُتل . قتله رجل أبيض . السيد هوسكينز ، لقد مات .

وزعقت الخالة ماجي واندفعت إلى العتبة ، وهبطت الطريق المتربة إلى جوف الليل .

وصاحت أمي خلفها :

ـ ماجي !

ونادى الفتى :

ـ لا تذهبوا جميعاً إلى الحانة .

وصرخت أمي ، وهي تركض خلف الخالة ماجي :

ـ ماجي !

وناح الفتى :

ـ سيقتلونكم إن ذهبتم إلى هناك . قال الرجال البيض إنهم سيقتلون جميع أقاربه!

وجرّت أمي الخالة ماجي وأرجعتها إلى البيت .وطردالخوفُ الحزنَ ، فحزمنا ثيابنا وصحوننا في تلك الليلة وشحناها فيعربة أحد المزارعين . وطلع علينا الفجر وقد رحلنا طلباً للنجاة . وعلمتُ بعد ذلك أن الخال هوسكينز قتله البيض الذين حسدوه على تجارته الرابحة بالمشروبات . وقد هددوه بالموت ، وأنذروه عدة مرات أن يرحل ، لكنه انتوى البقاء بعض الوقت ليجمع

المزيد من المال . ووجدنا مكاناً في هلينا الغربية ، حيث ظلت الخالة ماجي وأمي تلوذان بالبيت في الليل والنهار ، خائفتين أن يراهما الناس في الشوارع . وتغلّبت الخالة ماجي على خوفها أخيراً ، وقامت بعدة رحلات إلى إيلين ، لكنها كانت تذهب سراً في الليل ، وما كانت تخبر أحداً غير أمي عن موعد رحيلها .

لم تكن ثمة جنازة . ولم تكن ثمة موسيقى . ولم يكن ثمة حداد . ولم تكن ثمة زهور . لم يك غير الصمت ، والبكاء المكتوم ، والهمسات ، والخوف ... ولم أعرف متى أو أين دفن الخال هوسكينز . ولم يسمح للخالة ماجي حتى برؤية جدثه ، ولم تستطع المطالبة بأي شيء من ممتلكاته . لقد انتُزع الخال هوسكينز من بيننا بكل بساطة ، وسقطنا نحن على وجوهنا ، إذا جاز التعبير ، لنتجنّب النظر في وجه الرعب الأبيض الملتهب الذي نعرف أنه يطلُّ علينا من مكانٍ ما فوقنا . تلك كانت أول مرة يقترب فيها الرعب الأبيض مني على هذا الغرار ، فانشغل ذهني . وسألت أمي لِمَ لمْ نردّ العدوان ، فدفعها الخوف الرابض في جوانحها إلى صفعي وإسكاتي .

وفقدت أمي والخالة ماجي ، المفجوعتان الخائفتان ، الوحيدتان دون زوجين أو أصدقاء ، كلَّ ثقةٍ في نفسيهما ؛ فقررتا بعد جدال وتلجلجٍ مديدين العودةَ إلى بيت الجدة للراحة ، والتفكير ، ووضع خطط جديدة للحياة . وكنتُ قد نَمَوْتُ

معتاداً على الانتقال الفجائي من مكانٍ إلى آخر ، فلم يثرني منظر الرحلة الجديدة . وتعلمت بَراح الأمكنة القديمة دونما أسف عليها ، وقبول الأمكنة الجديدة على أي شكل كانت .
ورغم أني كنت أقارب التاسعة من العمر ، فلم أكُ قد واظبت سنة واحدة كاملة على المدرسة ، وما كنت أعي ذلك . كنت أقرأ وأعدّ وهذا شيء يستطيعه جميع الناس الذين قابلتُ ، كباراً أم صغاراً ... وتمزّق شملنا من جديد ، فبيعت ممتلكاتنا ، أو مُنحت ، أو تركت بكل بساطة ، وها نحن ننطلق في رحلة جديدة بالقطار .

وبعيد أيام عدة ـ بعدما وصلنا بيت جدتي ـ كنت ألعب وحيداً في حقلٍ فسيحٍ ، أحفر في الأرض بسكين عتيقة . وعلى حين بغتة ، أرغمني صوت موزون غريب على الالتفات . كان ثمة موجة من الرجال السود تزحف صوبي متوعدة فوق قمة تلة قريبة ، وهم يرتدون ثياباً غريبة . وقفزت واقفاً دون وعي ،وقلبي يخفق بشدة . ما هذا ؟ أهؤلاء الرجال يسعون خلفي ؟ كان الرجال الغريبون في ألوانهم الوحشية يهجمون عليّ باستقامة ، صفاً بعد صف ، جماعة إثر جماعة ، يخبّون ، وأقدامهم تضرب الأرض فكأن إنساناً يقرع طبلاً كبيراً . وأردت أن أطير إلى البيت ، لكنني لم أقوَ على إتيان حركة فكأني في حلم عميق .
ورحت أرمي بأبصاري حواليّ لأرى دليلاً يخبرني ما هذا ، فلم

أجد شيئاً . كان جدار الرجال يقترب شيئاً فشيئاً ، وقلبي يضرب بقوة يضطر معها جسدي إلى الارتعاش . وحاولت الهرب مرة ثانية ، فلم أقوَ على حركة . وكان اسم أمي على طرف لساني ، وفتحت فمي لأصرخ ، فلم يندّ عني حرف ، لأن الرجال الصاخبين، وكل منهم يشبه الآخر الشبه كله ، افترقوا وانصبوا عن جانبيّ ، يقرعون الأرض ، وأقدامهم تضرب في توافقٍ تام . وبينا هم يتجاوزونني رأيت أن وجوههم السود ترنو إليّ وبعضها يبتسم لي . ثم لاحظت أن كل رجل يحمل على كتفه شيئاً طويلاً أسود ثقيلاً يشبه العصا . وصاح أحدهم نحوي بشيء لم أفهمه . وقد تجاوزوني الآن ، وهم يختفون في سحابة عظيمة من الغبار البنيّ المترائي مثل قطعة من ثيابهم ، مما جعلهم على شبه تام بالأرض نفسها . وما كادوا يبتعدون عني فيتلاشى خوفي حتى طرتُ إلى البيت ورويت لأمي ما رأيت ، وسألتها من هم أولئك الرجال الغربـاء .

ـ أولئك كانوا جنوداً .

ـ وما هم الجنود ؟

ـ رجال يقاتلون في الحروب .

ـ ولماذا يقاتلون ؟

ـ لأن بلدهم يأمرهم بذلك .

ـ وما هي تلك العصي الطويلة السوداء التي يحملون على

أكتافهم ؟

ــ بنادق •

ــ وما هي البندقية ؟

ــ إنها سلاح ناري يطلق الرصاص •

ــ مثل المسدس ؟

ــ نعم •

ــ وهل تقتلك الرصاصة ؟

ــ نعم ، إذا أصابتك في المكان المضبوط •

ــ على من سيطلقون الرصاص ؟

ــ الألمان •

ــ من هم الألمان ؟

ــ إنهم الأعداء •

ــ ومن هو العدو ؟

ــ الرجال الذين يريدون قتلك وسلبك بلادك منك •

ــ وأين يعيشون ؟

فأعلنت أمي :

ــ بعيداً ، عبر البحر • أفلا تذكر أني أخبرتك أن الحرب أُعلنت •

وتذكرت • لكن متى أخبرتني بذلك ، لم يبدُ لي هذا الأمر على شيءٍ من الأهمية ! واستوضحت أمي عن سبب الحرب

فتحدثت عن انكلترا ، وفرنسا ، وروسيا ، وألمانيا ، وعن رجال يموتون ، إلا أن واقع ذلك كان شاسعاً جداً وغريباً حقاً بحيث لم أتأثر أو أعنى به على الاطلاق .

وذات يوم آخر كنت ألهو خارج الدار قريباً من الباب ، فنظرت إلى الطريق مصادفةً فرأيت ما خيّل إليّ أنه قطيع فيلة يدبُ صوبي على مهلته . ولم يعسّر قلبي هذه المرة شيء من ذلك الرعب العاري الذي أحسستُ حينما رأيت الجنود ، لأن هذه المخلوقات الغريبة تتحرك ببطء ، وصمت ، ودون ما يوحي بالتهديد والوعيد . ورغم ذلك انتقلتُ صوب درجات البيت محاذراً ، مستعداً كل الاستعداد للهرب إذا أثبتت تلك المخلوقات أنها أكثر قسوة مما بدت . وهذه الفيلة الغريبة تبتعد عني عدة خطوات الآونة ، ورأيت أن وجوهها تشبه وجوه البشر ! فأحددتُ بصري ، وذهني يحاول التوفيق بين الذاكرة والحقيقة الواقعة . أي نوع من البشر هم هؤلاء ؟ رأيت أن على جانبي الطريق صفين من مخلوقات تشبه البشر ، وأن ثمة عدداً قليلاً من الوجوه البيض وكثيراً من الوجوه السود . ورأيت أن الوجوه البيض هي وجوه رجال بيض يلبسون ثياباً مألوفة . أما الوجوه السود فكانت رجالاً يلبسون ما بدا لي أنه ثياب فيلة . ولما اقتربت الحيوانات الغريبة مني شاهدتُ أن سيقان هذه الحيوانات

السود مشبوكة إلى بعضها بالحديد ، وأن أذرعها مزرودة بسلاسل ثقيلة تقعقع بلطف ولحنٍ موسيقي وهم يتحركون • إن تلك المخلوقات السوداء تحفر خندقاً قليل الغور على جانبي الطريق ، فتعمل بصمت ، وتقبع وهي ترفع قبضات من التربة وتطوّح بها إلى منتصف الطريق • وأدار واحد من الحيوانات الغريبة المخططة وجهاً أسود ناحيتي •

سألتُ في همس ، غير عارف إن كان المرء يحادث الفيلة عادة:

ــ ماذا تفعلون ؟

فهزّ رأسه ، وألقى نظرة حذرة نحو رجل أبيض ، ثم عاد يحفر من جديد • وعلى حين فجأة ، رأيت أن الرجال البيض يحملون على أكتافهم عصياً طويلة سوداء ثقيلة ــ بنادق ! ــ وما أن مرّ ذلك القطيع حتى ركضت إلى البيت مبهور النفس •

صحت :

ــ أماه !

فردت من المطهى :

ــ ماذا ؟

ــ ثمة فيلة في الطريق !

فأتت باب المطهى وحملقت فيّ ، واستفسرت :

ــ فيلة ؟

ــ أجل • تعالي وانظري إليها • إنها تحفر في الطريق •

فجففت أمي يديها بمئزرها ، واندفعت إلى الباب الأمامي .
وتبعتها ، أريد أن تترجم لي ذلك المشهد المحيِّر الذي رأيت .
وأنفذت بصرها من الباب ثم هزّت رأسها ، وقالت :
ــ هؤلاء ليسوا فيلة .
ــ ما هم إذن ؟
ــ هؤلاء فوج المكبَّلين .
ــ وما هو نوع المكبَّلين ؟
ــ إنه ما ترى .. فوج من الرجال مكبَّلون سوية ومُرغمون
على العمل .
ــ لماذا ؟
ــ لأنهم اقترفوا ذنباً فعوقبوا عليه .
ــ ماذا فعلوا ؟
ــ لست أدري .
ــ لكن ، لمَ يبدون على هذا الشكل ؟
ــ هذا يمنعهم من الهرب . وسيعرف الجميع أنهم مذنبون
بسبب ثيابهم المخططة .
ــ ولمَ لا يلبس الرجال البيض ثياباً مخططة ؟
ــ إنهم الحراس .
ــ وهل يلبس الرجال البيض ثياباً مخططة ؟
ــ أحياناً .

ـ أرأيت أحداً منهم ؟
ـ كلاّ •
ـ وفيمَ هذا العدد العديد من الرجال السود اللابسين ثياباً مخططة ؟
ـ ذلك لأن ••• حسناً ، إنهم قساة على القوم السود •
ـ القوم البيض ؟
ـ نعم •
ـ إذن ، لمَ لا يقاتل جميع الرجال السود جميع الرجال البيض هنالك ؟ ثمة كثرة من الرجال السود تفوق عدد الرجال البيض •••
ـ لكن الرجال البيض يحملون بنادق ، بينا لا يحمل السود شيئاً •
وتطلّعت إليّ ، وسألت :
ـ ما الذي دعاك إلى تسميتهم بالفيلة ؟
فلم أستطِع إخبارها في تلك اللحظة • أما بعد ذلك ، وأنا أفكر في تلك الثياب المخططة بالأسود والأبيض التي يلبسها الرجال السود ، فقد تذكرتُ أني كنت أملك في إيلين كتاباً يضمّ صوراً ملوّنة لحيوانات الغاب وأسمائها • وكان حمار الوحش المخطط ما جلب اهتمامي أكثر من غيره ؛ هذه‌الحيوانات التي تبدو وكأن إنساناً قام بدهنها • وكانت الحيوانات الاخرى

التي خلبت مخيلتي هي الفيلة ، وهكذا اقترن حمـــار الوحش والفيلة في ذهني وتطابقا حتى درجة بعيدة بحيث أني لمـــا رأيت ثياب المجرمين المخططة بالأبيض والأسود الشبيهة بحمارالوحش، فكرت أنهم فيلة ، من حيوانات الغاب •

ومرة ثانية ، بعد فترة غير محددة مـــن الوقت ، أعلنت أمي أننا سننتقل ، سنرجع أدراجنا إلى هلينا الغربية • لقد تعبت من الرتابة الدينية الصارمة في بيت جدتي ؛ ومن نصف، دستة ونيف من الصلوات اليومية العائلية التي تلحُّ عليهاوتصرُّ ؛ ومن فتواها القائلة إن النهار يبدأ لدى شروق الشمس والليل يبدأ عندالمغيب؛ ومن قراءات الكتاب المقدس الطويلة المتعبة ؛ ومن التضرعـــات الفردية المتوالية عند كل وقعة طعام ؛ ومن إعلانها أن السبت هو اليوم الديني المخصص لله ، وان ليس ثمة إنسان يعيش في بيتها يستطيع العمل في ذلك اليوم • إن في مقدورنا ، في هلينا الغربية، أن نُشغل منزلاً لوحدنا ، وهي حال تبدو الآن مرغوباً فيها بعد عدة شهور من قلق جدتي على مصير نفوسنا • وطبيعي أن رحلة جديدة أمر رائع بالنسبة إليّ • وحزمنا حوائجنا من جديـــد • وودعنا بعضنا من جديد • وركبنا القطار من جديد • وصرنا في هلينا الغربية من جديد •

استأجرنا نصف منزل ذي جناحين يقوم في زاوية الشـــارع ويمرُّ أمامه خندق راكد لتصريف المياه• وكانت المنطقة المجاورة

لنا تعجُّ بالجرذان ، والقطط ، والكلاب ، والمنجمين ، والعجزة ، والعميان ، والعاهرات ، والباعة ، ومحصلي الآجار ، والأطفال .
وكان يربض أمام شقتنا مرآب كبير ضخم تنظف فيه القاطرات وتصلَّح . وكان ثمة هسهسة أبدية من البخار ، ومواء عميق من مراجل الصلب ، ورنين أجراس . وكان الدخان يحجب الرؤية ، والرماد يطير داخل البيت ، ويعشعش في أسرَّتنا ، وداخل مطهانا ، وفي طعامنا . وكانت رائحة تشبه رائحة القار تفعم الجوَّ أبداً .
وكنت وأخي ، عاريي الرأس والأقدام ، يصحبنا عدد لا حصر له من الأطفال السود الآخرين ، ننتصب ونراقب الرجال يزحفون داخل المحركات الحديدية السوداء وخارجها ، فوقها وتحتها . وكنا نتسلَّل ، حينما يغفل الكبار عنا ، إلى غرفة السائق ونجرُّ أجسامنا الصغيرة إلى النافذة ونرمي بأبصارنا خارجاً ، تتصوَّر أنفسنا كباراً نعمل سائقين نُسيِّر قطاراً ، وأن الوقت ظلمة ، وأن ثمة عاصفة ، وأننا نجرُّ خلفنا سلسلة طويلة من عربات المسافرين ، نحاول إيصالهم إلى بيوتهم في أمان .
وكنا نقول :
ـ هوووووووووو !
ـ دن ! دن ! دن !
ـ بف ـ بف ! بف ـ بف ـ بف ! بف ـ بف ـ بف ـ بف !
بيد أن سرورنا الأعظم كان يتأتى من خوض مجرى تصريف

المياه حيث نعثر على زجاجات عتيقة ، وصفائح من تنك تحوي جراد بحرٍ صغيراً ، وملاعق صدئة ، وقطع معدنيـــة ، وفراشي أسنان مهترئة ، وقططٍ وكلابٍ مائتة ، وبعض القروش • وكنا نصنع قوارب خشبية من علب السيجار ، ونخترع لها مجاذيف من الخشب والمطاط ، ونبعث بها لتنطلق على مياه الخندق بقوتها الخاصة • وكان آباء الصغـــار يجيئون في أغلب الأمسيـــات ، وينتزعون أحذيتهم ، ويصنعون القوارب بأنفسهم ويسيِّرونها •

كانت أمي والخالة ماجي تطهوان في مطابخ القوم البيض ، وكنت وأخي حرين في التجوّل حيث نشاء خلال ساعات عملهن • وفي كل يوم كنا نتناول عشر ريال لنصرفه على طعامنا ، فنحلم طوال الصباح وتتشاور فيمَ سنبتاع • ونذهب حوالي الساعـــة العاشرة أو الحادية عشرة إلى المخزن القائم في الزاوية ــ وكـــان صاحبه يهودياً ــ ونشتري بعض بسكويت الزنجبيل ، وزجاجة كوكا كولا ، وذلك كان طعام الغداء كما نفهمه •

لم أكُ قد رأيت يهودياً من قبل ، فكان صاحب المخزن القائم في الزاوية شيئاً غريباً في حياتي • وحتى ذلك الوقت ، لم أكن قد سمعتُ لغة غريبة ، واعتدت استرقاق السمع من باب المخزن القائم في الزاوية لأسمع تلك الأصوات الغريبة التي يحدثهـــا اليهود حين يتخاطبون •وكنا جميعاً ، نحن السود الذين نعيش في الجوار ، نكره اليهود ، ليس لأنهم يسخّروننا في العمل ، بل

لأننا تعلّمنا في البيت وفي مدرسة الأحد أن اليهود هم « قتلة المسيح» . وهكذا كان اليهود ، وقد عُزلوا عن بقية الناس بالنسبة إلينا ، موضع لهونا وسخريتنا .

واعتدنا نحن الأطفال السود ــ وكنا في السابعة والثامنة والتاسعة من أعمارنا ــ أن نركض حتى مخزن اليهودي ونصيح :

يهودي ، يهودي ، يهودي
ماذا تمضغ ؟

أو كنا نؤلف صفاً طويلاً وتتموّج إلى الأمام والخلف عند الباب ونحن ننشد :

يهودي ، يهودي ،
لا يساوي شيئاً
ولهذا يبقى
اليهودي حيّا

أو كنا نغني :

قتلة المسيح الدامون ،
فلا تثقوا بيهودي قط .
قتلة المسيح الدامون ،
ما الذي لا يفعله اليهودي ؟

وكنا ننشد للصبي اليهودي الأحمر الشعر :

يا أحمر الـــرأس
يا خبزاً يهوديـــاً .
إن الرأس اليهودي
يساوي خمسة قروش
ونهزأ بتلك اليهودية السمينة :
أيتها الحمراء والبيضاء والزرقاء ،
لقد كان أبوك يهودياً ،
وكانت أمك عاهرة قــذرة ،
فبحق الجحيم ما عســاك تكونين ؟

وحينما يمر صاحب المخزن الأصلع ، كنا نحن الصغـــار السود ، الفقراء ، نصف الساغبين ، الأبرياء ، ضحايا الكبرياء العنصري ، ننشـــد بعجرفة :

إن البيضة المتعفنة
لا تقلى قط ،
والكلب الخداع
لا ينجح أبداً .

وكان ثمة أناشيد شعبية أخرى كثيرة ، بعضها وضيع سافل ، وبعضها الآخر لا معنى له ، وهي جميعاً قاسية . ولم يفكر أحد قط في التساؤل عن حقنا في ذلك ، فأمهاتنا وأقاربنا يوافقـــون عليه غالباً ، بصورة فعالة أو منفعلة . وتغذينا ، منذ طفولتنا ،

بالوقوف موقف الخصومة والارتياب تجاه اليهود • ذلك لـم يكن كبرياء عنصرياً محضاً ، بل كان ميراثنا الثقافي أيضاً •

وفي عصر أحد الأيام ، تجمّع رهط من الصبيان والصبايا السود يلعبون ، ويضحكون ، ويتحدثون • وصعد رجل أسود في ثياب العمل درج الشقة المجاورة لشقتنا :

توجهت إليَّ فتاة سوداء قائلة :

ـ اليوم سبت •

فسـألت :

ـ أجل • لكن ، فيمَ تقولين هذا ؟

فردت ، مشيرة إلى الباب الذي اختفى فيه الرجل :

ـ سوف يجمعون كمية كبيرة من المال هنالك هذا النهار •

ـ كيف ؟

وصعد رجل أسود آخر الدرج ، فالتقفه الباب •

سألت الفتاة ، مرتابةً :

ـ أفلا تعرف ؟

ـ أعرف ماذا ؟

ـ ماذا يبيعون •••؟

ـ أين ؟

ـ هنالك حيث دخل الرجلان •

ـ ليس من يبيع شيئاً هنالك •

فقالت الفتاة في شمك صادق :

ـ أنت تمزح ؟

ـ أبداً . ماذا يبيعون . خبريني .

فقالت ، وهي ترمقني بابتسامة مكدرة :

ـ أنت تعرف ماذا يبيعون .

ـ هم لا يبيعون شيئاً هنالك .

فأبانت ، وهي تصفع راحتها الوسخة عبر الفضاء في وجهي بحركة ازدراء :

ـ آه ، ما تزال طفلاً .

فـدهشت . أثمة شيء يحدث في جوار بيتنا لا أعرفه ؟ حسبت أني دسست أنفي في كل عمل معقول في الجوار . فإذا كان ثمة شيء يباع في جوارنا ، فينبغي إذن أن أعرف ما هو . كان البناء حيث أعيش ذا شقتين في طابق واحد . وقد كان البناء في الأصل وحدة سكن واحدة ، لكنه قسم إلى شقتين ، إذ كان في شقتنا أبواب تقود إلى البيت المجاور . وكانت هذه الأبواب مقفولة ، مترسة ، ومسمرة بإحكام . وكانت عائلة الجوار تلوح هادئة ، رجال يجيئون ويروحون ، لكن ذلك لم يبدُ غريباً في عينيّ . إلا أن تلميح الفتاة أثار رغبتي في معرفة ما يجري في الداخل . فدخلت بيتنا ، وقفلت الباب ، ثم وضعت أذني على الجدار الرقيق الذي يفصل شقتينا وأصغيت . فسمعت أصواتاً

خفيفة ، لكن لم أفهم منها شيئاً • وأرهفت سمعي عند بـاب مقفول فجاءت الأصوات أعلى منها قبلاً ، وإن بقيت عاجزاً عن فهم شيء منها •

وسحبتُ كرسياً دون ضجيج ، ووضعت عليه صندوقاً ، وتسلقته ، ومددت بصري خلال شق في أعلى الباب • ورأيت ، في أخيلة الحجرة المظلمة ، رجلاً عارياً وامرأة عارية فوق سرير ، والرجل يعلو المرأة ، ففقدتُ توازني وهويتُ على الأرض • وجلست صامتاً ، أتساءل عما إذا كان الرجل والمرأة في الشقة المجاورة سمعاني • لكن بدا كل شيء هادئاً ، فعاودني فضولي • وبينا أنا أتسلق لأنظر مرة أخرى انهال قرع حاد على زجاج النافذة خلفي ، فأدرت رأسي ، فرأيت صاحبة الدار ترنو إليّ • كان وجهها الأسود مضغوطاً بقوة على زجاج النافذة ، وفمها يتحرك بشدة وعيناها تحملقان • واعتصرني الخوف من البقاء في البيت أو الهرب منه • لماذا لم أخفض الستائر ؟ لقد فعلت شيئاً مريعاً ، إذ كان الغضب الوحشي المرتسم على وجه المرأة دليلاً على ذلك • وانتقل وجهها عن النافذة ، وارتفع بعد قليل ضرب عالٍ على الباب الأمامي •

ــ إفتح هذا الباب ، يا صبيّ !

فارتجفت ولم أرد •

ــ إفتح هذا الباب وإلا كسرته •

فقلت خائفاً :

ــ أمي ليست هنا .

فزعقت :

ــ هذا بيتي ، فافتح هذا الباب .

وأرهبني الصوت ، ففتحت الباب . واندفعت داخلة ، ثم وقفت تحملق في الكرسي والصندوق اللذين استعملتهما لأمد بصري إلى شقتها . لماذا لم أُنزلهما قبلما فتحت الباب ؟

سألت :

ــ يا صبي ، ماذا تعني ؟

فلم أستطع جواباً .

أعلنت :

ــ أنت تخيف عملائي .

فرددتُ بغموض :

ــ عملاؤك ؟

فانفجرت :

ــ أيها السافل الصغير ! ليحدثني فكري بضربك !

ــ كلا ، لن تفعلي !

فعنفتني :

ــ سأجعل أهلك ينتقلون من هنا . ينبغي أن أُحصّل عيشي فتجيىء أنت تفسد عليّ يوم السبت الخاص بي ...

ـ أنا ... أنا كنت أنظر ...

فتبسّمت فجأة ، وقد رقت قليلاً :

ـ تنظر ..؟ لمَ لا تأتي مثل الآخرين وتدفع ربع دولار ؟

فأخبرتها بكل سخط سنيّ التسعة :

ـ لست أبغي الذهاب إلى بيتك العتيق .

فقالت ، جازمة أني لن أغدو عميلاً لها :

ـ أنتم طاعون . وسأطردكم من هنا !

ولما رجعت أمي والخالة ماجي تلك الليلة ، قامت مناقشة حامية . وراح النساء يصحن في وجه بعضهنّ فوق الدرابزون الخشبي على العتبة الأمامية ، وأصواتهنّ تصل إلى بعد نصف ميل . وأصغى الجيران . وتجمّع الصبيان وفغروا أفواههم . وانحصرت المناقشة في أمر واحد : طلبت صاحبة الدار من أمي أن تضربني ، وللمرة الأولى رفضت أمي مثل هذا الطلب .

أخبرتها أمي :

ـ يجب ألا يحصل « ذلك » في بيتك .

فردت صاحبة البيت :

ـ إنه بيتي ، وسأفعل فيه ما يحلو لي .

وقالت أمي :

ـ ما كنت انتقلت إلى هنا لو خطر لي أنك تسيّرين « ذلك » النوع من العمل .

فصاحت صاحبة البيت :

ــ لا تحدثيني على هذا المنوال ، أنت أيتها الكلبة الصاخبة الجرْس !

فاستوضحت أمي :

ــ ماذا تتوقعين من الأطفال أن يعملوا حينما تفعلين « ذلك » ؟

فأوضحت صاحبة البيت :

ــ إن ولديك اللعينين ليسا من الملائكة !

فتدخلت الخالة ماجي :

ــ أنت مومس عمومية !

فزعقت صاحبة البيت :

ــ وأي نوعٍ من العاهرات أنتِ ؟

فأنذرتها أمي :

ــ لا تحدثي أختي بهذا الأسلوب !

فأمرت صاحبة البيت :

ــ احزموا أمتعتكم الحقيرة ، يا أولاد الزنى السود ، وارحلوا من هنا !

وانتهى ذلك بأن حزمنا متاعنا وانتقلنا في تَيْنك الليلة إلى بيت آخر في الشارع عينه ، يبعد عن الأول قليلاً . وظلّ مفهومي عما كانت صاحبة البيت تبيع مبهماً غامضاً في فكري . وأخبرني

الأولاد باسمه بعد فترة، لكنني لم أكوّن في ذهني فكرة واضحة عنه • ورغم معرفتي بأن الآخرين يحسون أنه شيء سيىء للغاية ، فقد كان الفضول يحرقني • وصممت أن أكتشف مع مرور الزمن ماهيته الحقيقية •

كان شيء ما يجري في بيتنا سراً ولم أكتشفه قبلما بلغ مرحلة جدية • ففي كل ليلة ، وأنا أُغمض عيني لأنام ، كنت أسمع نقراً خفيفاً على زجاج نافذة الخالة ماجي ، ثم صوت باب يُفتح ، وهمسات ، ومن بعد صمت عميق طويل • ونهضت مرة من فراشي وزحفت إلى باب الحجرة الأمامية واختطفت نظرة إليها • كان رجل أسود حسن الهندام جالساً على المتكإ يتحدث في صوت ناعمٍ إلى الخالة ماجي • لمَ لا أستطيع مقابلة ذلك الرجل ؟ وزحفت عائداً إلى السرير ، لكنني صَحَوْتُ بعد قليل على أصوات مخفوضة تتبادل تحية الوداع • وسألت أمي في اليوم التالي عن جاء البيت ، فأخبرتني أن أحداً لم يكن فيه •

قلت :

ــ لكنني سمعتُ رجلاً يتكلم •

ــ أنت لم تسمع • كنت نائماً •

ــ لكنني رأيت رجلاً • كان في الحجرة الأمامية •

ــ كنتَ تحلم •

ووعيت قسماً من سرّ الزيارات الليلية ذات صباح حين نادتني الخالة ماجي وأخي إلى غرفتها ، وقدمتنا إلى الرجل الذي سيصير « خالنا » الجديد ، وهو البروفسور متّى • كان يلبس ياقة بيضاء عالية ونظارات لا إطار لها • وكانت شفتاه رقيقتين ، وجفناه لا يطرفان البتة على ما يظهر • وشعرتُ بشيء بارد ناءٍ فيه ، وحين ناداني لم أذهب إليه • واستشعر ريبتي فهدأ روعي إذ نفحني بعشر دولار ، ثم جثا وصلى من أجلنا نحن « الشابين المسكينين اليتيمين » ، كما أسمانا • وأخبرتنا الخالة ماجي بعد الصلاة أنها ستغادرنا والبروفسور متّى سريعاً ، فينتقلان إلى الشمال • وتملكتني الكآبة ، لأني اعتدت الشعور أن الخالة ماجي هي أمّ ثانية لي •

ولم أجتمع بـ « الخال » الجديد مرة ثانية ، رغم أني كنت أجد كل صباح دليلاً على زيارته للبيت • ودهشت وأخي وتأملنا فيمَ يمكن أن يفعل « الخال » الجديد • لماذا يجيء في الليل دائماً ؟ لماذا يتكلم دائماً في صوت مغمور ، لا يعلو على الهمس إلا قليلاً ؟ ومن أين حصل على المال ليبتاع ياقة بيضاء ومثل ذلك القميص الأزرق الجميل ؟ ومما زاد في دهشتنا أن والدتي نادتنا إليها ذات يوم وحذرتنا من إخبار أي إنسان بأن « الخال » يزورنا ، قائلة إن القوم يبحثون عنه •

سألت :

ـ أي قــوم ؟
فقالت أمي :
ـ القوم البيض •
وعرف القلق سبيله إلى جسدي • في مكان ما من المجهول كان الخطر الأبيض يتوعّدنا من جديد •
سألت :
ـ ماذا يبغون منه ؟
فقالت أمي :
ـ لا تبــالِ •
ـ ماذا فعل ؟
فحذرتني :
ـ احتفظ بفمك مغلقاً ، وإلا نالك القوم البيض أيضاً •
وإذ أدركت أمي أنّا خفنا واحترنا في أمر « الخال » الجديد ، فقد حثت الخالة ماجي ـ على ما أظن ـ لتدفع « الخال » إلى شراء صمتنا وسكوتنا •
وهكذا أضحى كل صباح أشبه بعيد الميلاد ، فنحن نثب عن سريرنا ونهرع إلى المطهى ، وننظر إلى الطاولة لنرى ماذا تــرك « الخال » لنا • ووجدت ذات صباح أنه حمل لي كلبة صغيرة ، أطلقت عليها اسم بتسي ، فغدت مدللتي ورفيقتي •
ومن الغريب أن « الخال » بدأ الآن يزورنا في وضح النهار ،

لكن الستائر جميعاً تسدل حينما يجيء ، ونمنع نحن من الخروج حتى يغادرنا . وهمست لأمي بألف سؤال عن « الخال » الصموت ، الأسود ، المثقف ، فكانت تجيب دائماً :

ـ ذلك شيء لن تفهمه قط . والآن اصمت ، وامض إلى لعبك .

أفقت ذات ليلة على صوت بكاء . نهضت ، ومضيت برقة حتى الحجرة الأمامية وأنفذت بصري من خلال ثقب الباب . كان « الخال » جالساً على الأرض أمام النافذة ، يسترق النظر إلى الليل من وراء ستارة مرفوعة . وكانت أمي منحنية على صندوق صغير ، تحزم الأمتعة بسرعة . وتملكني الخوف . هل سترحل أمي ؟ وفيم تبكي الخالة ماجي ؟ وهل القوم البيض يطلبوننا ؟

قال « الخال » :

ـ أسرعي . يجب أن نرحل من هنا .

وناحت أمي :

ـ آه ، يا ماجي . لست أدري إذا كان يجب أن تذهبي .

وقال « الخال » ، وهو يسترق النظر إلى الشارع المظلم :

ـ كفي عن هذا .

وسألت الخالة ماجي :

ـ لكن ، ماذا فعلت ؟

فردّ « الخال » :
ـ سأخبرك فيما بعد . يجب أن نرحل من هنا قبل أن يأتوا !
ونبرت الخالة ماجي :
ـ لكنك أتيت أمراً هائلاً ، وإلا ما كنت تسرع هكذا .
فأعلن « الخال » :
ـ البيت يحترق . وحينما يقع بصرهم عليه ، فسيعرفون من فعل ذلك .
واستوضحت أمي :
ـ هل أنت الذي أشعل النار ؟
فردّ « الخال » نافد الصبر :
ـ لم يك مفرّ من ذلك . أخذت المال . وضربتها . وكانت فاقدة الوعي . فإن عثروا عليها ، فستخبرهم بما حدث ، فأفقد حياتي . ولذا أضرمتُ النار .
وقالت الخالة ماجي ، وهي تبكي ووجها بين يديها :
ـ لكنها ستحترق .
فأجاب « الخال » :
ـ وماذا يمكنني أن أفعل ؟ لم يكن لي بدّ من ذلك . ما كنت أستطيع تركها هناك ليعثروا عليها ، فيعرفون أن إنساناً ضربها . لكن إن احترقت ، فلن يعرف أحد .

وملأني الخوف . ماذا يحدث ؟ وهل القوم البيض سيأتون خلفنا جميعاً ؟ ولِمَ ستتركني أمي ؟

بكيت ، وقد ركضت إلى الغرفة :

ـ أمـــاه !

فقفز « الخال » على قدميه . كان يحمل مسدساً في يده ، ويصوّبه إليَّ . وحملقت في المسدس ، شاعراً أني سأموت في أيـــة لحظة .

وهمست أمي بعنف :

ـ ريتشـــارد !

فنبرت :

ـ أنت ذاهبة !

وهرعت أمي إليَّ ، ووضعت يدها على فمي .

سألتني ، وهي تهزني :

ـ هل تريد أن نموت جميعاً ؟

فركنتُ إلى الهدوء .

قالت :

ـ عد إلى نومك الآن .

ـ أنت ذاهبة .

ـ كلا، لن أذهب .

فبكيت :

ـ ستذهبين • لقد رأيت الصندوق !
فزعقت أمي :
ـ كفَّ عن هذا الضجيج •
وقبضت على ذراعي بشدة أثارها الغضب بحيث امتنع عليَّ البكاء بسبب من الألم •
ـ إرجع إلى سريرك الآن •
وقادتني إلى فراشي فاستلقيت يقظان ، أصغي إلى الهمسات ، والخطوات ، والأبواب تصرصر في الظلمة، ونشيج الخالة ماجي • وسمعتُ أخيراً صوت حصان وعربة تقترب من البيت • وتناهى إلى سمعي صدى صندوق يُجَرُّ على أرض الغرفة • ودلفت الخالة ماجي إلى غرفتي تبكي بلطف ، وقبلتني وهمست وداعاً • وقبلت أخي الذي لم يستيقظ • ثم غادرتنا •
نادتني أمي إلى المطهى في اليوم التالي وتحدثت إليَّ زمناً طويلاً ، تحذرني ألا أذكر ما رأيت وسمعت ، قائلة إن البيض سيقتلونني لمجرد أن تراودهم الفكرة بأني عرفت شيئاً •
ولم أستطع الامتناع عن السؤال :
ـ أعرف ماذا ؟
ـ لا تبالِ الآن • إنسَ ما رأيت الليلة الفائتة •
ـ لكن ، ماذا فعل « الخال » ؟
ـ لا أستطيع إخبارك •

فاجترأت خجلان :

ـ لقد قتل شخصاً .

ـ إذا سمعك أحدهم تقول هذا فموتاً تموت .

ورسخ ذلك في ذهني ، إني لن أذكره أبداً . ولم تمضِ عدة أيام حتى جاءنا رجل أبيض طويل يحمل نجمة لماعة على صدره ومسدساً فوق وركه . وتحدث مع أمي زمناً طويلاً .. كان جلُّ ما سمعت صوت أمي :

ـ لست أدري عما تتحدث . فتش البيت إذا شئت .

ونظر الرجل الأبيض الطويل إليَّ وإلى أخي ، غير أنه لم يخاطبنا . وظللتُ أتساءل طوال أسابيع ماذا اقترف ذلك « الخال » ، لكن لم يُتح لي أن أعرف ، حتى ولا في السنوات التالية .

* * *

ما عادت أمي تستطيع ، بعد رحيل الخالة ماجي ، أن تكسب ما يكفي لطعامنا ، فكانت معدتي لا تبرح خاوية بصورة متصلة حتى ليؤلمني رأسي معظم النهار . وقد تملكني الجوع عصر أحد الأيام حتى قررت أن أجرب بيع كلبتي بتسي لأبتاع بثمنها بعض الطعام . وكانت بتسي كلبة رقيقة بيضاء غزيرة الشعر ، فتبدو مثل الدمية حين أغسلها وأجففها وأسرّحها . ودفعتها تحت

ذراعي ، واتخذت سمتي لأول مرة في حياتي وحيداً إلى جيراننا البيض حيث الشوارع عريضة نظيفة والبيوت بيضاء كبـيرة . ومضيت من باب إلى باب أقرع الأجراس . وقد صفق بعض البيض بابهم في وجهي ، وأخبرني آخرون أن أمضي إلى مؤخرة البيت ، لكن الكبرياء منعتني عن ذلك . وجاءت امرأة شابة بيضاء أخيراً إلى الباب وابتسمت لي .

استقصت :

ـ ماذا تريد ؟

ـ أتودين شراء كلبة حلوة ؟

ـ دعني أرها .

وحملت الكلبة في يديها ، وداعبتها ، وقبلتها .

ـ ما اسمها ؟

ـ بتسي .

ـ إنها ذكية . ماذا تبغي ثمناً لها ؟

ـ دولار .

ـ إنتظر لحظة . دعني أرَ إن كنت أملك دولاراً .

وحملت بتسي إلى البيت ، وانتظرتُ على العتبة ، معجبـاً بتلك النظافة وذلك الهدوء المخيمين على العالم الأبيض . ياللنظام الذي يسود كل شيء ! ومع ذلك شعرتُ أني غريب عن ذلك المكان ، ولم تخالجني أية شهوة في الإقامة ههنا . ثم تذكرت أن

هذه البيوتات هي الدور التي يقطنها أولئك الرجال البيض الذين يرغمون الزنوج على براح منازلهم والفرار في الليل • وتوترت أعصابي • هل سينادي أحدهم بأني زنجي شرير ويحاول قتلي ههنا ؟ وما الذي يعوق المرأة حتى هذا الحدّ ؟ هل ستخبر الآخرين أن صبياً أسود خاطبها بكلام بذيء ؟ لعلها تجمع قطيعاً من الرعاع ؟ لربما ينبغي أن أترك البيت حالاً وأنسى بتسي ؟ وأغرق قلقي المتعاظم جوعي • وأردت العودة إلى أمان الوجوه السود التي أعرف •

وفتح الباب وخرجت المرأة منه ، مبتسمة ، وهي لا تبرح تداعب بتسي بين يديها • لكنني ما استطعت رؤية ابتسامتها الآن • فعيناي مفعمتان بالخوف الذي خلقتُ •

قالت :

ــ لقد أحببتُ هذه الكلبة • وسأشتريها • ولست أملك دولاراً • كل ما في حوزتي هو سبعة وتسعون قرشاً •

كانت تمنحني ، رغم جهلها بذلك ، فرصة استرداد كلبتي دون أن أعلن أني لم أرد بيعها للقوم البيض •

قلتُ بلطف :

ــ كلا ، ياسيدتي • أريد دولاراً •

ــ لكنني لا أملك دولاراً في البيت •

ــ إذن ، أنا لا أستطيع بيع الكلبة •

ـ سوف أعطيك القروش الثلاثة حينما ترجع أمي إلى البيت هذه الليلة .

فقلت ، وأنا أرنو إلى الأرض متحجراً :

ـ كلا ، يا سيدتي .

ـ لكن ، أصغ ِ، قلت إنك تبغي دولاراً .

ـ نعم ، يا سيدتي ، دولاراً ...

فقالت ، وهي تمدّ إليّ قبضة من القطع الصغيرة ، وبنسي لا تبرح في يدها :

ـ إذن ، إليك سبعة وتسعين قرشاً .

فقلت هازاً رأسي :

ـ كلا ، يا سيدتي . أريد دولاراً .

ـ لكنني سأعطيك القروش الثلاثة الأخرى !

فأعلنت ، وأنا أحسّ أني تماديت كثيراً ، وأحاول إلقاء نوم تمادي على أمي الغائبة :

ـ أخبرتني أمي أن أبيعها بدولار .

ـ سوف تحصل على دولار . ستحصل على القروش الثلاثة هذه الليلة .

ـ كلا ، يا سيدتي .

ـ إذن ، دع الكلبة وارجع هذه الليلة .

ـ كلا ، يا سيدتي .

ـ لكن ، ماذا تبغي من الدولار « الآن » ؟

ـ بودّي أن أبتاع شيئاً لآكل .

ـ إن سبعة وتسعين قرشاً تشتري لك كثيراً من الطعام .

ـ كلا ، ياسيدتي . أريد كلبتي .

وحملقت فيَّ برهة واحمرّ وجهها . ثم جمجمت ، وهي تدفع بتسي بين يديَّ :

ـ إليك كلبتك . والآن ، إرحل من هنا ! فأنت أحمق صبيٍ زنجي رأيتــه !

حملت بتسي وقطعت الطريق إلى البيــت ركضاً تغمرني الغبطة لأني لم أبعها . وعاودني الجوع . ألم يكن من الأفضل أن أتقاضى سبعة وتسعين قرشاً ؟ لكن الوقت قد فات الآن . وغمرت بتسي بين ذراعي وانتظرت . ولما رجعت أمي إلى البيت تلك الليلة رويت لها ماحدث .

استقصت :

ـ ألم تأخذ الدراهم ؟

ـ كلا ، ياسيدتي .

ـ لماذا ؟

فقلت بانزعاج :

ـ لست أدري .

ـ أفلا تعرف أن سبعــة وتسعين قرشاً تســاوي دولاراً

« تقريباً » ؟
فقلت ، وأنا أعدُّ على أصابعي :
ـ بلى ، يا سيدتي • ثمانية وتسعون، تسعة وتسعون ، مئة • لكنني ما أردتُ بيع كلبتي للقوم البيض •
ـ لماذا ؟
ـ لأنهم بيض •
ـ أنت أحمق •
وبعد مضي أسبوع ماتت بتسي مدهوسة تحت عجلات عربة فحم • وبكيت ، ودفنتها في الساحة الخلفية ، وغرست عصا برميل عند قبرها • ولم تعلّق أمي على الحادث إلا بهذه الكلمات :
ـ كان في استطاعتك الحصول على دولار ، أما الآن فأنت لا تستطيع أن تأكل كلبة ميتة ، أليس كذلك ؟
فما أعطيتُ من جواب •

★ ★ ★

في الشوارع المتربة أو الندية ، خارج الأبواب أو داخلها ، كانت الأيام والليالي تُخرج لي إمكانياتها السحرية •
فإذا نتفت شعرة من ذيل فرس ووضعتها في جرة من بولي ، انقلبت الشعرة في الليل إلى أفعى •
وإذا مررت براهبة كاثوليكية تتّشح بالسواد ، وتبسمتُ

وأجزت لها رؤية أسناني ، فإني ميت حتماً •

وإذا مرقت تحت سلم مائل ، فسوف يلازمني حظ سيىء دون ريب •

وإذا قبّلت مرفقي ، فسأنقلب فتاة •

وإذا حكتني أذني اليمنى ، فإن إنساناً ما يذكرني بالحسنى •

وإذا لمستُ حدبة إنسان فلن أمرض أبداً •

وإذا وضعت دبوساً على السكة الحديدية ليمرّ القطار فوقه ، فالدبوس سينقلب إلى مقص لماع جديد •

وإذا سمعتُ صوتاً ولم يكن ثمة إنسان قريباً مني ، فالله أو الشيطان يحاول إذن التحدث إليّ •

وإما أفرغت بولي ، فينبغي أن أبصق فيه جلباً للحظ الطيب •

وإذا حكني أنفي ، فسيزورني أحدهم •

وإذا سخرتُ من رجل مقعد ، فالله يصيّرني إذن مقعداً مثله •

وإذا استعملت اسم الله باطلاً ، فالله سيطوي عمري •

وإذا أمطرتنا السماء والشمس مشرقة ، فالشيطان يضرب زوجه •

وإذا تضوأت النجوم أكثر من المعتاد في أية ليلة ، فذلك يعني أن الملائكة في السماء سعداء يطيرون فوق أراضي السماوات ، وبما أن النجوم ثقوب معدّة لتهوية السماوات ، فالوميض ينشأ إذن عن سير الملائكة عبر الثقوب المتفسحة

للهواء سبيل المرور إلى بيت الله المقدس .
وإذا كسرت مرآة ، فستلازمني سبع سنوات من الحظ السيىء .
وإذا كنت باراً بأمي ، فسأُعمّر كثيراً وأصبح غنياً .
وإذا أُصبتُ بالبرد فعقدت جورباً قصيراً وسخاً ممزقاً حول عنقي قبل أن أمضي إلى فراشي ، شفيت إذن في صباح اليوم التالي .
وإذا لبستُ تميمة في حقيبة صغيرة حول عنقي ، فلن يمسّني المرض أبداً .
وإذا نظرت إلى الشمس من خلال قطعة داخنة من الزجاج صباح عيد الفصح ، فسأرى الشمس تهتف بمديح الرب الذي صعد إلى السماء .
وإذا اعترف إنسان بأي شيء على سرير الموت ، فهو الحقيقة ، لأنه ليس في مكنة إنسان أن يحدّق الى وجه الموت ويكذب .
وإذا بصقتُ على كل حبّة قمح زُرعتْ ، فسينمو القمح طويلاً ويحمل كثيراً .
وإذا أهرقت ملحاً ، فينبغي أن أرمي منه شيئاً على كتفي اليسرى لأطرد الأذية .
وإذا غطيت مرآة حين تعصف السماء ، فلن يضربني البرق إذن .

وإذا مررتُ فوق مقشة على الأرض ، فسيلحقني الحظ السيىء .

وإذا مشيت في نومي ، فالله إذن يحاول اقتيادي إلى مكان ما لأقوم بعملٍ صالح في سبيله .

كان كل شيء يتراءى ممكناً ، محتملاً ، مُستطاعاً ، لأني أردت أن يكون كل شيء ممكناً ... ولأني لم أكُ أملك القوة على إحداث الأمور خارجاً عني في العالم الموضوعي ، فقد جعلتُ الأمور تحدث في باطني ... ولأن بيئتي كانت عارية كئيبة ، فقد أسبغت عليها إمكانيات كامنة غيرمحدودة ، وأعتقتها في سبيل لهفتي الجائعة الغامضة .

وقدم هلعٌ من القوم البيض الآنليجيا على الدوام في إحساساتي ومخيلتي . ولما شارفت الحرب على الانتهاء ، اجتاح نزاع عنصري الجنوب بأسره ، ورغم أني لم أشهد منه شيئاً ، فما كان تأثري به يزداد لو أني اشتركت بصورة مباشرة في كل شجارٍ ناشب . ولقد كانت الحرب نفسها غير واقعية بالنسبة إليّ ، بيد أني شببتُ قادراً على التجاوب عاطفياً مع كل تلميح ، أو همسة ، أو كلمة ، أو انعطاف ، أو أخبار ، أو نرثرة ، أو تلك الإشاعات المتعلقة بالنزاعات بين العرقين . وليس شيء قد تحدّى مجموع شخصيتي قدر ذلك الضغط من الحقد والوعيد الذي يفوح من البيض غير المنظورين . كنت أقف ساعات على أبواب

بيوت الجيران أصغي إلى أحاديثهم ، لأعرف كيف صفعت امرأة بيضاء امرأة زنجية ، وكيف قتل رجلٌ أبيض رجلاً أسود ، فيملؤني ذلك رهبة ، وتساؤلاً ، وخوفاً ، فأروح أُطلق سيلاً لا ينقطع من الأسئلة .

وسمعتُ ذات أمسية قصة أبعدت النوم عن جفوني طوال ليالٍ . كانت القصة تتحدث عن امرأة زنجية قتل الرعاع زوجها . ويقال إن المرأة أقسمت على الثأر لموت زوجها فحملت مسدساً ، ولفّته في قطعة من الورق ، ومضت بتواضعٍ إلى البيض ، راجيةً السماحَ لها بنقل جسد زوجها لتوسيده الثرى . ويظهر أنه سمح لها بالاقتراب من زوجهاالمتوفى ، بينا كان البيض ، مسلحين صامتين ، يتعقبونها بنظرهم . وتقول القصة إن المرأة جثت وصلّت ، ثم شرعت تنشر قطعة الورق ، وتناولت المسدس وقتلتأ ربعة من البيض قبل أن يدركوا حقيقة ما يجري ، مُطلقة النار عليهم من حيث جثمت على ركبتيها .

ولم أدرِ ما إذا كانت القصة صحيحة واقعياً أم لا ، لكنها كانت صحيحة عاطفياً لأني بدأت أحسُ بوجود أناس لا قوة لي أمامهم ، أناس يستطيعون انتزاع حياتي مني وقتما يشاؤون . وعقدتُ النية على الاقتداء بتلك المرأة السوداء إذا واجهت مرة عصابة من الرعاع البيض . لسوف أخفي سلاحاً ، وأتظاهر أني مسحوق الخاطر نتيجة ما أصيب به أحد أحبائي من شرّ ،

ثمّ ، بيناهم يحسبونني قبلتُ وحشيتهم على اعتبارها قانوناً لحياتي ، أُخرج المسدس وأقتل من أتمكن من قتله قبل أن يقضوا عليّ . ومنحتني قصة مكيدة المرأة نموذجاً ، منحتني شكلاً ومعنىً لعواطف دفاعية مبهمة كانت غافية في جوانحي منذ زمن بعيد .

ولم تك تخيلاتي ، طبعاً ، لتحمل أية قيمة موضوعية . وكانت نزواتي العفوية تحيا في ذهني لأني أشعر بالعجز المطلق أمام ذلك الوعيد الذي يتهددني في أي وقت ، ولأنه لا يوجد في حدود معرفتي أي عمل ممكن قد يستطيع إنقاذ حياتي إذا ما جابهتُ قطيعاً من الرعاع البيض . كانت نزواتي متراساً أخلاقياً يسكنني من الشعور بأني أحتفظ بكمالي العاطفي سليماً ، كانت سنداً يمكن شخصيتي أن تعرج عبر الأيام التي عشت في وعيد القسوة والعنف .

ولم تعدُ تلك التخيلات انعكاساً لتفاعلي مع القوم البيض ، فهم قد أصبحوا جزءاً من معيشتي ، من حياتي العاطفية ؛ كنت أجدهم ممثلين لثقافة ، ولعقيدة ، ودين ، وأضحت عداوة البيض متوطدة بعمق في ذهني وأحاسيسي بحيث فقدت صلتها المباشرة بالمحيط اليومي الذي أحيا فيه . وكانت ردود فعلي تجاه هذه العداوة تغذي نفسها بنفسها ، تعظم أو تتضاءل حسب الأخبار التي تردني عن البيض ، وحسب ما أبتغي وأترجى . وكان التوتر

ينطلق في نفسي لمجرد ذكر البيض ، فتثور في هذه النفس شبكة شاسعة من الانفعالات تشمل شخصيتي بمجموعها • وكان ذلك أشبه بارتكاسٍ متصل ضد وعيد واقع عليّ من قبل قوة طبيعية لا يمكن التنبؤ بسلوكها العدائي • ولم يكن البيض قد أساؤوا معاملتي حتى الآن على الاطلاق ، لكنني كنتُ خلصتُ إلى حالة من التنافر مع وجودهم ، فكأنني كنت في الماضي فرسةً لألف عملية من عمليات شنق الزنوج وتعذيبهم •

عشت في هلينا الغربية زمناً طويلاً لا أستطيع تحديده قبل أن أعود إلى المدرسة وأُباشر دراسة منتظمة • وشاء حسن الطالع أن تجد أمي عملاً في مكتب طبيب أبيض بأجر يبلغ خمسة دولارات في الأسبوع ، فأعلنتْ على الفور أن « ولديها سيذهبان إلى المدرسة من جديد » • كنت سعيداً ، لكنني كنت لا أزال خجولاً نصف مشلول في حضرة المجموع • وجعلني يومي الأول في المدرسة أضحوكة الصف • نوديت إلى اللوح الأسود لأكتب اسمي وعنواني ؛ كنت أعرف اسمي وعنواني ، وأعرف كيف أكتبهما ، وأعرف كيف أتهجاهما ؛ بيد أن الوقوف إلى اللوح الأسود وعيون العديد من البنات والصبيان يحدقون إلى ظهري جعلني أتجمّد فأعجز عن كتابة حرف واحد •

نادتني المعلمة :

ــ أكتب اسمك •

فرفعت الحوّارة البيضاء إلى اللوح الأسود ، وبينا أنا أهمّ بالكتابة فرغ عقلي تماماً ، فما قويت على تذكر اسمي ، حتى ولا الحرف الأول منه • وضحك أحدهم ، فتيبَّست أعضائي •

ولاطفتني المعلمة :

ـ تناسانا واكتب اسمك وعنوانك •

وومض باعث على الكتابة في جوانحي ، لكن يدي رفضت أن تتحرك • وبدأ الأولاد يزقزقون ، فاحمررت غضباً •

سألت المعلمة :

ـ أفلا تعرف اسمك ؟

فرنوت إليها ، وما أعطيتها من جواب • ونهضت المعلمة واقتربت مني مبتسمة لتبعث فيّ الثقة • ووضعت يدها بحنان على كتفي ، واستعلمت :

ـ ما اسمك ؟

فهمست :

ـ ريتشارد •

ـ ريتشارد ماذا ؟

ـ ريتشـارد رايت •

ـ تهجأ ذلك •

فتهجأت اسمي • وانطلقت الحروف من فمي في انـدفاع ، محاولاً في يأس تفادي خجلي المتفلج •

خاطبتني المعلمة :

ــ تهجأه ببطء بحيث أسمعه .

ففعلت .

ــ والآن ، هل تستطيع الكتابة ؟

ــ نعـم ، يا سيدتي .

ــ أكتبه إذن .

واستدرت إلى اللوح الأسود من جديد ، ورفعت يـدي لأكتب ، فإذا أنا فارغ خاوٍ . وحاولت بجنون أن أجمع شعوري، فلم أقوَ على اذّكار شيء . وملأني شعور شديد بوجود البنات والصبيان خلفي طرد كل إحساس آخر . وأدركت مبلغ ضعفي ، فازددت انحطاط قوىً ، فأسندت جبهتي الملتهبة إلى اللوح الأسود البارد ، فانفجرت الغرفة في ضحك عال طويل ، فانكمشت عضلاتي .

قالت المعلمة :

ــ تستطيع العودة إلى مقعدك .

فجلست ولعنت نفسي . لماذا أبدو دائماً على هذا الخرس حينما أُنادى لأُنجز شيئاً ما أمام جمعٍ ما ؟ فأنا أعرف كيـف أكتب مثل أي تلميذ آخر في الصف ، ولا ريب أني أستطيـع القراءة أفضل من أي منهم ، وأقوى على الحديث بسرعة وفيض حينما أكون واثقاً من نفسي . إذن ، لماذا تجمـدني الوجوه

الغريبة ؟ وجلستُ وأذناي وعنقي تنهش فيها النار ، أسمع التلاميذ يتهامسون حولي ، كارهاً نفسي ، حاقداً عليهم ؛ جلست ثابتاً كالحجر وعاصفة من الانفعال تتماوج في جوفي .

وبينا نحن جلوس في الصف ذات يوم تناهى إلى سمعي نفخ صفير وصدى أجراسٍ تقرع . وسرعان ما فُقد نظام الصف . وفقدت المعلمة السيطرة على التلاميذ ، فأُهرع البنات والصبيان إلى النافذة . وغادرت المعلمة الحجرة ، ولما عادت أخبرتنا قائلة :

ــ ليحزم كل منكم أشياءه ويرحل إلى البيت !

ــ لماذا ؟

ــ ماذا حدث ؟

فأبانت المعلمة :

ــ انتهت الحرب .

تبعتُ بقية الأولاد إلى الشوارع فرأيت أن البيض والسود يضحكون ويغنون ويصيحون . وأحسستُ الخوف وأنا أدفع نفسي بين جموع البيض ، وبارحني الخوف حينما دخلت الجوار فرأيت وجوهاً سوداً ضاحكة . وتجولت بينهم ، محاولاً أن أدرك ما هي الحرب ، وما معناها ، فلم أقدر . ولاحظت أن جموعاً من البنات والصبيان يشيرون إلى شيء في السماء . حلّقت ببصري فشاهدتُ ما يشبه طيراً صغيراً يحوّم ويسبح .

ــ أنظروا . طائرة !

ولم أكن رأيت طائرة قط ، فقلت :

ـ إنها عصفور .

فضحك الجميع .

قال أحد الرجال :

ـ إنها طائرة ، يا صبي .

ـ بل هي عصفور . لقد رأيته .

فرفعني رجل على كتفه . قال :

ـ يا صبيّ ، تذكر هذا . أنت ترى إنساناً يطير .

فلم أصدقه . فهي ما تزال تتمثل كالعصفور في نظري . وأخبرتني أمي تلك الليلة في البيت أن البشر يستطيعون الطيران .

وأطلّ عيد الميلاد فلم أحصل سوى على برتقالة واحدة . جرح شعوري ، فرفضت الخروج واللعب مع أطفال الجيران الذين ينفخون في أبواق ويطلقون ألعاباً نارية . وداعبت برتقالتي طيلة نهار الميلاد ، وفي الليل ، قبل انطلاقي إلى سريري ، أكلتها ، انتزعت قطعة من قمتها ، ومصصت عصيرها وأنا أضغط عليها ، ثم مزقت قشرتها إلى قطع صغيرة ومضغتها على مهل .



٣

حين ازددتُ طولاً وسناً ، رحت أعاشر الصبيان الكبار ، ولم يكن لي بدٌ من الاكتئاب في بعض العواطف العرقية ثمناً لقبولي في حلقتهم . وكان محكّ الأخوة بيننا هو شعوري تجاه القوم البيض ، ومقدار العداوة التي أُكنها لهم ، ودرجات التقدير والشرف التي أخصّ العرق بها . ولم يك شيء من ذلك مقرراً عن سابق تعمّد أو تبصّر ، بل كان ينبثق بصورة

عفوية من حديث الصبية السود الذين يجتمعون في مفـارق الطـرق .

وكان أن نلعب مع الفتيات أمراً مذلاً ، فكنا نعزلهن في أحاديثنا في جزيرة نائية من الحياة . وقد التقطنا بطريقة ما روح الدور الذي يلعبه جنسنا ، فتجمهرنا سوية لنتعلم مبادىء أخلاقية مشتركة . كنا نتكلم متفاخرين بأصوات جاشّة ؛ وكنا نستعمل كلمة « زنجي » لنثبت ما تمتاز به ألياف أحاسيسنا من صلابة ؛ وكنا نغرق في استعمال الكلمات الفاحشة إشارة إلى رجولتنا المقبلة ؛ وكنا نتظاهر بالقساوة وعدم الاهتمام تجاه إيعازات أهلينا وتوصياتهم ، ونسعى إلى أن نقتنع بعضنا بعضاً أن قراراتنا تصدر عن أنفسنا ، وأنفسنا وحدها . ومع ذلك كنا نكتم بهوس مبلغ ارتباطنا ببعضنا بعضاً .

وبعيد ظهيرة كل يوم ، حين تنتهي المدرسة ، كنت أتلكأ في الشارع ، أرفس بتكاسل صفيحة فارغة من التوتياء ، أو أخبط بالعصا على سياج سور خشبي ، أو أصفر ، حتى أتعثر بفرد أو أكثر من أفراد العصابة يتمهلون في زاوية ما ، أو يقفون في حقل ما ، أو يجلسون على درجات أحد البيوت . وعندئذ تبـدأ ثرثتنـا :

في خجل :

ــ مرحبـاً .

وفي اضطراب محاولاً بدء الحديث :
ــ هل طعمتَ ؟
عرضــاً :
ــ أجل ، يا رجل . لقد أُطعمتُ حقاً ملء شبعي .
بثقــة :
ــ أكلت ملفوفاً وبطاطا .
وبلهجة من يعطي معلومات :
ــ وأنا حليباً مسحوباً وحِمَّصاً .
بتجهُّم :
ــ يا للجحيم ! لن أقف أمامك ، يا زنجي !
في براءة مصطنعة :
ــ وكيف ذلك ؟
في اتهــام صارخ :
ــ لأنك ستملأ هذا الهواء بالروائح الكريهة في دقيقة !
ويجتاز الضحك الجمهور ويلفّه بأمواجه .
في وعظ يبعث على السخرية :
ــ يا زنجي ، إن ذهنك لفي خندق .
إعلان ظافر يخلق توتراً :
ــ خندق ، لا شيء ! يا زنجي ، أنت ستفســد الريح في أية لحظة الآن !

الذروة :

ـ أجل ، حينما يرغم الحِمَّص الحليب على الحركة ، فالحليب يرفض التحرُّك ، فتشبُّ الحرب في أمعائك ، وتنتفخ معدتك وتنفجر !

ويضحك الجمهور بصوتٍ عالٍ زمناً طويلاً .

ويطرح الموضوع في حقل أعرض :

ـ يا رجل ، يجب أن يقبض عليك القوم البيض ويرسلوك إلى حديقة الحيوانات ويحتفظوا بك للحرب القادمة !

ويتقبل الموضوع ويزداد اتساعاً :

ـ إذن ينبغي ، حينما يبدأ ذلك القتال ، أن يغذوك بالحليب المسحوب والحمَّص ويدعوك تفسد الريح !

وذروة صارخة :

ـ سوف تربح الحرب بنوعٍ جديد من الغاز السام !

ثم ضحك مرتفع يخفتُ رويداً رويداً .

ويزحف موضوع القوم البيض بالمناسبة إلى مدار الحديث :

ـ لربما كان الغاز السام شيئاً يحسن الحصول عليه .

وفي تكبُّر مرٍّ :

ـ أجل ، إذا حدثت اضطرابات عرقية هنا ، فلسوف أقتل جميع القوم البيض بالسمّ الذي أملك .

ويسود الجو ضحك يعبر عن سرور . ثم صمت ، وكل واحد

ينتظر أن يقترح الآخر شيئاً .
ويتبع ذلك بيان وقور لمسألة عتيقة :
ــ هم ، القوم البيض ، يخافوننا بكل تأكيد !
وفي مزيجٍ من التباهي والشكوى :
ــ أجل ، هم يرسلونك إلى الحرب ، ويجعلونك تسحق أولئك الألمان ، ويعلمونك كيف تحارب ، وحينما ترجع يخافونك ، ويريدون قتلك .
توسيع وتطوير للموضوع ، وتفاخر يعجُّ بروح التضحية :
ــ تقول أمي إن العجوز البيضاء في مكان عملها تتحدث دائماً عن عزمها على صفعها ، فتقول أمي : « يا آنسة جرين ، إذا ضربتني فسأقتلك وأمضي إلى جهنم فأدفع ثمن ذلك ! » .
همهمة غاضبة تعني تأكيداً عنيفاً للشعور العرقي :
ــ يا للجحيم ، كنت قتلتها لو قالت لي هذا .
صمت .
شكــوى :
ــ يا رجل ، أولئك القوم البيض وضيعون حقاً .
إبــلاغ :
ــ ولهذا يغادر الجنوب كثير من الملوّنين .
فخر بالقيمة الفردية والعرقية :
ــ وبالتأكيد ، يا رجل ، فهم يكرهون أن ترحل .

ـ أجل ، هم يبغون إبقاءك ههنا لتعمل لهم حتى الموت .
تمرّد ساذج :
ـ إن أول ابن كلبة أبيض يضايقني سيعود بثقب مُحتفَر في رأسه .
رفض للتمرّد الساذج :
ـ هذا لن ينفعك البتة . يا للجحيم ، سوف يقبضون عليك .
تقدير لدقة العداء الأبيض :
ـ ها ، ها ، ها .. أجل ، يا للعنة ، لسوف يقبضون عليك حقاً .
كبرياء مرّة لدن إدراك ما تكلّف هزيمتهم :
ـ أجل ، فالقوم البيض يرسلون حميرهم البيض ليلاً ونهاراً ، ولكن فليفعل الزنجي شيئاً ، فهم يرسلون في أعقابه كل كلب متعطش للدماء يعثرون عليه .
رجاء متسائل خجول :
ـ يا رجل ، هل تعتقد أن هؤلاء القوم البيض سيتغيرون ؟
رفض لهذا الرجاء خوفَ ألا يتحقق قط :
ـ يا للجحيم ، أبداً ! لقد خُلقوا على هذا الشكل .
تمرّد على الرجاء الغير مجدي والركون إلى الفرار :
ـ هراء ، يا رجل . سأمضي إلى الشمال حينما أكبر .
تبرير للفرار :

ـ إن الرجل الملوّن لعلى ما يرام في الشمال •
أمنية لجوج تريد الإيمان في الفرار :
ـ يقولون إن الرجل الأبيض يضرب الرجل الملوّن في الشمال ، وإن الرجل الملوّن يضرب الرجل الأبيض ، ويقتله ، وليس من يحرّك ساكناً كذلك !
تَرَجٍّ للإيمان في العدل :
ـ رجل برجلٍ هناك •
صمت •
قفزة بالمناسبة إلى شيء محسوس ، ومحاولة لجعل الإيمان حقيقياً :
ـ أصغِ ، أتعتقد حقاً أن بناياتهم في الشمال تبلغ من الارتفاع ما يدّعون •
أمر أعظم من أن يصدق :
ـ يقولون إنهم رفعوا بناية في نيويورك تبلغ أربعين طابقاً !
على استعدادٍ للتنازل عن فكرة الفرار المكبوتة الآونة :
ـ يا رجل ، إني أخاف من تلك البنايات !
تقرير لمعجزة :
ـ أتدري ، يقولون إن بناياتهم تتمايل وتهتزّ في الريح •
دهشة تامة ورفض :
ـ كلا ، يا زنجي !

إصرار على المعجزة :
ــ بلى ، يقولون إن هذا صحيح •
رجاء متسائل :
ــ أتعتقد أن ذلك ممكن ؟
تحرّك للجسد باضطراب ، وضرب لجوج بالقدمين ،وهروب إلى الواقع الأمين من جديد :
ــ يا للجحيم ، أبداً ! إذا تمايلت بناية واهتزت في الريح ، يا للجحيم ، فسوف تسقط ! إن أي أحمق يعرف هذا ! فلا تدع الناس يخدعوك إذ يخبرونك بمثل هذه الأمور !
صمت • ويلتقط أحد الحاضرين حجراً ويطوّح به عبر الحقل •
عودة إلى معالجة المسألة العتيقة :
ــ يا رجل ، ما الذي يجعل القوم البيض وضيعين حتى هذه الدرجة ؟
رفض عاطفي للبيض :
ــ إني أبصق أيّان ألتقي بواحدٍ منهم •
رفض عاطفي متزايد :
ــ يا رجل ، أفليسوا بشعين ؟
توقع وانتظار لتقريرٍ أو بيان :
ــ يا رجل ، هل صدف واقتربت من رجل أبيض ، اقتربتَ

بما فيه الكفاية حتى تشمه ؟

رغبة في موت العدو :

ــ يقولون إننا نطلق رائحة كريهة تتنة • وأمي تقول إن القوم البيض يفوحون بمثل رائحة الأموات •

العدو حيوان يجب أن يقتل لدن وقوع البصر عليه :

ــ إن رائحة الزنوج مأتاها العَرَق • لكن القوم البيض تفوح رائحتهم « طوال » الوقت •

وينسج الحديث ، ويدور ، ويموج ، ويندفق ، وينحرف ، ويعلو ، دون أن يكون له هدف مخصوص أو وجهة معيّنة ، يمسّ مساحات شاسعة من الحياة ، ويعبّر عن دوافع الطفولة التجريبية • المال ، الله ، العرق ، الجنس ، اللون ، الحرب ، الطائرات ، الآلات ، القطارات ، السباحة ، الملاكمة ، وأي شيء آخر ••• إن ثقافة دار سوداء تنتقل هكذا إلى دار سوداء أخرى ، وتسلّم التقاليد الشعبية من فريق إلى فريق • وتصنع مواقفنا ، وتحدّد ، وتنظم ، أو تصلّح ، وتكتشف أفكارنا ، وتطرح جانباً ، وتوسّع ، وتمزّق ، وتقبل • ويسقط الليل ويحوّم الخفاش في الفضاء • ويتصايح صرصار الليل بين العشب • وتنقّ الضفادع • وتبرز النجوم • ويرطب السّدى[1] الأرض • وتشعّ مربعات صفر من النور في البعد حينما تضاء

---

(١) ندى الليل •

مصابيح الغاز في بيوتنا . وأخيراً ، تدف عبر الحقول أو على طول الطريق صيحة طويلة بطيئة :

ــ أززززنت َ ، يا ديييييف !

ضحكات رخوة تعلو من الصبيان ، لكن دون جواب .

ــ ينادون الخنازير .

ــ إمضِ إلى البيت ، يا خنزير .

ضحك من جديد . وينفصل صبيّ ببطء عن العصابة .

ــ أززززنت َ ، يا ديييييف !

فلا يردّ على نداء أمه ، لأن ذلك سيكون دلالة على التبعية .

ويقول الصبي :

ــ سأفعل بكم جميعاً مثلما يفعل المزارع بالبطاطا .

ــ كيف ذلك ؟

ــ أزرعكم الآن وأحفركم بعد ذلك !

ويخبُّ الصبي إلى بيته على مهلٍ ، فيتعالى ضحك رخو من خلفه . وأحاديث أخرى . ويُنادى علينا واحداً واحداً لنستقي من بَرِيْزَة الماء في الساحة الخلفية ، ولنمضي إلى المخزن ونبتاع الخضار واللحم للغد ، ولنقتطع حطباً للوقود .

وكانت أمي أيام الآحاد ، إذا كانت ثيابنا لائقة ، تصحبني وأخي إلى مدرسة الأحد . وما كنا نعترض ، لأن الكنيسة لم تكُ حيث نتعلّم عن الله وطرقه ، بل حيث نجتمع برفاق المدرسة

نتابع أحاديثنا الطويلة المتنقّلة . وكانت بعض أقاصيص الكتاب المقدس تبعث على الاهتمام بنفسها ، لكننا نشوهها ، ونحولها إلى مستوى حياة الشوارع ، ونبيد جميع المعاني التي لا تناسب بيئتنا . ونفعل الشيء ذاته بالترانيم الجميلة . وحين يُنشد القس :

« ما أحيلى النعمة التي تحلُّ علينا ! »

كنا نغمز لبعضنا ، ونهمهم في صدورنا :

« إن كلباً قد هاجم جدتنا ! » .

لقد كثرنا الآن بحيث أضحى الصبية البيض يخشوننا ، وغدونا جميعاً ، الصبية البيض والصبية السود على السواء ، نلعب أدوارنا العرقية التقليدية فكأننا خُلقنا لها ، وكأنها تجري في دمنا ، وكأنها تقودنا بالفطرة . وكانت جميع الأوصاف المرعبة التي سمعنا عن بعضنا ، وسائر التعابير العنيفة عن الحقد والعداوة اللتين انزلقتا إلينا مما يحيط بنا ، قد صعدت إلى السطح لتوجه أفعالنا . وكان المرآبُ الحدَّ العرقي لجيرتنا . وقد جرى اتفاق ضمنيّ بين الصبية البيض والصبية السود .. إن الصبية البيض يحتفظون بالجهة البعيدة من المرآب ، ونحتفظ نحن الصبية السود بجهتنا . وحينما كنا نعثر على صبي أبيض في جهتنا رجمناه ، وإذا انتقلنا إلى جهتهم رمونا بحجارتهم .

كانت معاركنا حقيقية دموية . كنا نطلق الحصى ، والرماد ،

والفحم ، والعصي ، وقطع الحديد ، والزجاجات المكسورة ، ونحن نطلقها إلى أسلحة أكثر فتكاً . وإذا جُرحنا فإنا نأخذ الأمر بالهدوء ، فلا بكاء ولا شكوى . وإذا لم تكن جروحنا بذات أهمية حقيقية ، فنحن نخفيها عن أهلنا ، فما كنا نريد أن نُضرب بسببٍ من تلك المعارك . ومرة ، في معركة مع عصابة الصبية البيض ، أُصبت خلف أذني بقطعة من زجاجة مكسورة ، وكان الجرح عميقاً فنزف بغزارة . وحاولت وقف النزيف بالضغط على الجرح بخرقة ، ولما رجعت أمي من عملها اضطررتُ إلى إخبارها بأني مجروح ، فقد كنت في حاجة إلى معالجة طبية . واندفعت بي إلى طبيب خاط جرحي . وضربتني لما رجعنا إلى البيت ، وأخبرتني بوجوب الكفّ عن قتال الصبية البيض بعد الآن ، وأنهم قد يقتلونني ، وأنّ عليها أن تعمل فليست تملك وقتاً تقلق فيه من أجلي . ولم تغرق كلماتها فيّ ، لأنها تعارضت مع قانون الشوارع . ووعدت أمي ألا أقاتل من جديد ، وأدركت أني إنْ وفيتُ بعهدي فسأفقد مكانتي في العصابة ، وقد كانت حياة العصابة حياتي .

* * *

هدّ المرض أمي كثيراً فبدأت أقوم ببعض الأعمال في الجوار . وكان أول عمل اشتغلت به هو حمل الغداء إلى الرجال العاملين في المرآب ، وكنت أتلقى مقابل ذلك خمسة وعشرين قرشاً في

الأسبوع ، وألتهم الكسرات التي يخلفها الرجال حينما يتركون شيئاً من طعامهم • وحصلت أخيراً على عمل في قهوة صغيرة ، حيث كنت أطعم الموقد الكبير خشباً كيلا ينطفىء لهيبه ، وأحمل صواني الطعام إلى المسافرين حين تتوقف القطارات فترة نصف ساعة أو أكثر في المحطة القريبة • وكنت أجني دولاراً في الأسبوع من هذا العمل ، لكنني كنت صغيراً هشاً بحيث لا أستطيع إنجاز واجباتي كما يجب ، وبينا أنا ذات صباح أحاول حمل صينية ثقيلة وأتسلق بها درجات القطار ، سقطت فهوت صينية الطعام على الأرض •

وحين عجزنا عن دفع الايجار اضطررنا للانتقال إلى بيت يجثم على جذوع عالية من الخشب في ضاحية من المدينة تتدفق إليها المياه الفائضة • وكان سرورنا ، أخي وأنا ، بالغاً بالركض صعوداً وهبوطاً على الدرجات الطويلة المرتجفة •

وغدا دفع الآجار معضلة من جديد ، فانتقلنا مقتربين من قلب المدينة ، حيث وجدت عملاً في مصبغة ؛ فأسلم الثياب إلى الفنادق ، وأمسح الأرض ، وأصغي إلى الرجال السود يتباهون في موضوع حياتهم الجنسية ويتفاخرون •

وانتقلنا من جديد ، لكن إلى خارج البلدة هذه المرة ، قريباً من شبكات متشعبة عريضة للسكة الحديدية ، حيث كنت أحمل كيساً وأجمع الفحم لتدفئة بيتنا كل صباح ، قبل رحيلي إلى

المدرسة ، متنقلاً بين العربات الكبيرة السود .

وشرعت أمي الآن ، وصحتها تزداد سوءاً يوماً بعد يوم ، تتحدث عن بيت الجدة باستمرار ، وعن مبلغ رغبتها برؤيتنا كباراً قبل أن توافيها المنية . وقد زحفت إلى حديثها صفة من التردّد والتلعثم كانت تعكس مستقبلها ، وإنْ لم أعرف ذلك حينئذ . وأصبحت أشعر بوجود أمي أكثر مني في أي وقت مضى ، وأدرك ما يمكن أن يعنيه البقاء بدونها . وانسلّ إليّ خوف بطيء ، فكنت أرنو إليها للحظاتٍ طوالٍ ، ثم أردّ طرفي إلى ناحية أخرى حين ترفع إليّ بصرها . وتملكني رعب حقيقي حينما تواتر مرضها في فترات متزايدة القصر . وثبت الزمان في مكانه جامداً ، ورحنا نترقب ، أخي وأنا ، جائعين مذعورين .

وذات صباح ، أيقظني صوت يصيح :

ـ ريتشارد ! ريتشارد !

فتدحرجت عن السرير . ودخل أخي الغرفة راكضاً ، وهتف:

ـ ريتشارد ، يفضل أن تأتي وترى أمنا . فهي مريضة جداً .

وركضت إلى غرفة أمي فرأيتها ممددة في فراشها ، مرتدية لبوسها ، مفتوحة العينين ، فاغرة الفم . كانت جامدة دون حراك .

صحت :

ـ أماه !

فلم تردّ على صيحتي أو تدر رأسها . وتقدمت أهزهـا ، لكنني تراجعت ، خشية أن تكون ميتة .

ناديت من جديد ، وفكري لا يقوى على إدراك عجزها عن الجواب :

ـ أمـاه !

وخطوتُ إليها أخيراً وهززتها . فتحركت قليلاً وأنّت . ورحت أناديها وأخي تكراراً ، فلم تتكلم . أهي تفارق الحياة ؟ لكن ذلك بدا مستحيلاً . وتبادلت وأخي النظر ، ما كنا نعرف ماذا نفعل . قلت :

ـ يفضل أن ننادي أحداً .

وهرولت أنادي إحدى الجارات ، فخرجت من الباب زنجية طويلة القامة . أخبرتها :

ـ أرجوك ، هلاّ جئت لرؤية أمي ؟ إنها لا تتكلم . ولم نستطع إيقاظها . فهي مريضة بصورة هائلة .

وتبعتني تلك المرأة حتى شقتنا .

صاحت بأمي :

ـ يا سيـدة رايت !

كانت أمي تستلقي جامدة ، صامتة ، فكأنها لا ترى شيئاً . وتحسست المرأة يدي أمي ، وكشفت :

ـ لم تمت . لكنها مريضة . حسناً ، يحسن أن أجيء ببعض

الجيران •

وجاء خمس أو ست من الجارات ، وانتظرت وأخي في الممر بينا رحن يخلعن ملابس أمي ويضعنهـا في الفراش • وقالـت إحدى النساء لما سُمح لنا بالعودة إلى الغرفة :

ـ ليخيَّل إلي أنها ضربة شمس •

وقالت أخرى :

ـ لكأنه فالج تماماً •

وردت ثالثـة :

ـ وإنها لصبية" بعد •

استندت وأخي إلى جدار ، بينا النساء يعملن بحمية فوق أمي •• ضربة شمس ، فالج ؟ ما هذه الأمور ؟ هل ستمـوت ؟ وسألتني إحداهن عما إذا كان في البيت نقود ، وهذا ما لم أكن أعرفه •• وفتَّشنَ في الجرار ، فوجدن دولاراً أو دولارين ، فبعثن في طلب طبيب • وقدم الطبيب • نعم • أخبرنا أن أمي تعاني ضرباً من الفالج • وهي في حال خطرة • وتحتاج إلـى شخص يلازمها ليل نهار • إنها تتطلب علاجاً • أين هو زوجها ؟ فرويت له القصة ، فهزّ رأسه •

قال الطبيب :

ـ إنها في حاجة إلى كل المساعدة التي يمكن الحصول عليها • لقد شلّ جانبها الأيسر بكامله • ولن تستطيع الكلام ، ويجب

أن تتغذى جيداً .

ورحت أنقب في ساعة متأخرة من ذلك النهار في الدروج ، فعثرت على عنوان جدتي . وكتبت لها ، راجياً أن تأتي فتساعدنا . وعنى الجيران بأمي ليل نهار ، وأطعمونا وغسلوا ثيابنا . وكنت أقضي الأيام بدون وعي ، غير قادر على تصديق ما حدث . ولنفرض أن جدتي لم تأتِ ؟ لم أحاول التفكير في هذا . « يجب » عليها أن تأتي . إن الوحدة المطبقة الآن لترسل الهلع في قلبي . لقد طوّحت عاطفياً على ذاتي وبصورة مباغتة ، وانقلب العالم نصف الصديق الذي عرفت إلى عالم بارد عدائي في مدى ساعة واحدة . وكنت أكثر خوفاً من أن أبكي . وكنت سعيداً لأن أمي لم تفارق الحياة ، لكنّ هنالك الواقع الذي يعلن أنها ستبقى زمناً طويلاً طويلاً ، لربّما حتى آخر العمر . وغدوت مكتئب النفس ، رغم أني كنت صغيراً ما أزال، فما عدت أحس أحاسيس الصغار ، ولا عدت أستطيع التصرّف تصرف الصغار . وبرحتني الرغبة في اللعب ، ولجأت إلى التفكير، متسائلاً هل ستجيء الجدة فتساعدنا ... وحاولت ألا أفكر في غدٍ لن يكون حقيقياً أو مرغوباً فيه ، لأن جميع أيام الغد كانت تحمل في جعبتها أسئلة لا أقوى على الاجابة عليها .

وحين قدم لي الجيران طعاماً رفضته ، خجلان لكوني قد تغذيت من طعام الغرباء كثيراً في حياتي . وعندما كانوا يحملوني

على الطعام ، كنت آكل أقل قدر ممكن ، شاعراً أن شيئاً من ذل الصدقة يتلاشى بذلك • وآلمني التفكير في أن الأطفال الآخرين يتساءلون ما إذا كنت جائعاً ، وكلما توجهوا إليّ بسؤالهم عما إذا كنت أرغب في الطعام كنت أجيبهم بالنفي ، رغم أن الجوع كان ينهش أحشائي • وظللت متوتراً طوال أيام انتظاري جدتي ، واستسلمت حينما وصلت ، وتركتها تسوس الأمور ، مجيباً على الأسئلة بصورة آلية ، مطيعاً لأوامرها ، عارفاً أنه ينبغي لي مواجهة الأمور وحيداً • وانكمشت على نفسي •

وكتبتُ رسائل أملتها عليّ جدتي لأولادها الثمانية ــ لقد أنجبت تسعة أولاد ، بما فيهم أمي ــ المنتشرين في أطراف البلاد ، تطلب مالاً تستطيع به « نقل إيلا وولديها الصغيرين إلى بيتنا » • وجاءنا المال ، وكان ثمة من جديدٍ أيام حزمنا فيها متاع البيت • ونُقلت أمي إلى القطار في عربة إسعاف ووُضعت على محفّة • وركبنا إلى جاكسون في صمت ، وأضجعت أمي في السرير في الطابق الثاني • وجاءت الخالة ماجي من ديترويت لتساعد في التمريض والتنظيف • وكنا نسير بخطوات مخفوتة الجرْس • وكانت رائحة الأدوية معلقة في الفضاء ، وأطباء يجيئون ويذهبون ، وأنا أسمع ليلاً ونهاراً أمي تئن • وحسبنا أنها ستموت بين لحظة وأخرى •

وقدمت كليو من شيكاغو • وجاء الخال كلارك من جرينوود ،

في الميسيسيبي • وأتى الخال ادوارد من كارترز ، في الميسيسيبي • وجاء الخال شارل من موبيل ، في ألباما • والخالة أدي من مدرسة دينية من هانسفيل ، في ألباما • والخال توماس من هازيلهرت ، في الميسيسيبي • وطغى على البيت جوّ من الترقب ، وتناهت إليّ أحاديث مهموسة عن « ماذا سيحلّ بولديها ؟ » • وشعرتُ بالخوف يهتك قميص قلبي ، عارفاً أن الآخرين ــ الغرباء رغم أنهم أقرباء ــ يقررون مصيري • لم أكُ قد رأيت إخوة أمي وأخواتها من قبل ، فأحيا حضورهم في نفسي خجلي القديم مرة ثانية • وناداني الخال إدوارد ذات يوم وتحسس ذراعيّ وساقيّ المتعظمة •

عقّب بصورة لا شعورية، متوجهاً بالحديث إلى إخوته وأخواته:

ــ إنه في حاجة إلى مزيد من اللحم على جسده •

واضطربت بصورة فظيعة ، شاعراً أن حياتي كانت نوعاً ما مليئة بخطإٍ لا اسم له ، وبذنب لا نغمة فيه •

قالت الجدة :

ــ سيجعله الطعام أكثر وزناً •

وتقرر في المؤتمرات العائلية وجوب افتراقي عن أخي ، وأنه عبء ثقيل على أية خالة أو خال أن يأخذ على عاتقه مهمة إعالتنا نحن الإثنين • إلى أين أذهب ؟ ومن يأخذني ؟ وسيطر القلق عليّ أكثر منه في أي وقت آخر •

وإذ كانت إحدى الخالات أو الأخوال يظهر أمامي ، فأنا أعجز عن النظر إليه . وكنت أذكر نفسي دائماً أنه يجب ألاأقترف شيئاً يجعل أياً من ذلك الجمع يرفض اصطحابي إلى بيته .

كان نومي في الليل يعجّ بأحلام وحشية . فأفيق أحياناً وأنا أصرخ في رعب . وكان الكبار يسرعون اليّ فأحدّق اليهم ، فكأنهم أشباح كابوسي الليلي ، ثم أعاود النوم . وألفيتُ نفسي ذات ليلة واقفاً في الساحة الخلفية . كان القمر مضيئاً الجو كالنهار ، والصمت يحوطني . وأحسستُ فجأة أن شخصاً يمسك بيدي . فتطلعت ، فرأيت أحد أخوالي . كان يحدثني في صوت خفيض لطيف :

ــ ما الأمر ، يا صغيري ؟

فصعّدت فيه النظر ، محاولاً أن أفهم ما يقول . بدا لي أنه ملفوف بنوعٍ من الضباب .

ــ ريتشارد ، ماذا تفعل ؟

فلم أستطع جواباً . وبدا أني عاجز عن اليقظة . فهزني . فاستعدت وعيي وشخصت إلى الساحة المنارة بضوء القمر . سألته :

ــ إلى أين سنذهب ؟

فقال :

ــ كنت تمشي في نومك .

ومنحتني الجدة وقعات طعام عامرة ، وجعلتني أنال قسطاًمن النوم بعد الظهر ، فبدأ سيري في الليل يخفّ شيئاً فشيئاً . وتركتني الأيام والليالي المضطربة أقرّر مغادرة بيت جدتي حالما أكبر فأغدو قادراً على إعالة نفسي ، ليس لأنهم قساة عليّ ، بل لأني كنت أعرف أنهم لا يملكون ما يكفي من المال ليطعموني وأخي . وتجنّبت الدخول إلى حجرة أمي . إن مجرد النظر اليها ليحزّ في القلب ، وهي قد نحلت كثيراً . وما تزال عاجزة عن الكلام ، تحدّق أبداً ، جامدة كالحجر .

دعيتُ وأخي ذات يوم إلى الحجرة الأمامية حيث عقد مؤتمر الخالات والأخوال .

قال أحد أخوالي :

ــ ريتشارد ، أتعرف مقدار مرض أمك ؟

ــ نعم ، يا سيدي .

فتابع يقول :

ــ حسناً ، والجدة لا تملك القوة الكافية كي تعنى بكليكما .

فأجبتُ ، منتظراً قراره :

ــ نعم ، يا سيدي .

ــ حسناً ، إن الخالة ماجي ستصحب أخاك إلى ديترويت وترسله إلى المدرسة .

فانتظرت . من سيصحبني أنا ؟ كنت أنوي الذهاب مع

الخالة ماجي ، لكن ما كنت أقوى على مناقشة القرار المتخذ .
سألوني :
ــ والآن ، إلى أين تحبّ الذهاب ؟
وانهال عليّ السؤال بصورة مفاجئة . كنت أنتظر حكماً لا اختياراً ، ولم تحضرني الشجاعة الكافية لأقدّر أن أحداً منهم يريدني .
قلتُ :
ــ إلى أي مكان .
فأجاب :
ــ إن كلاً منا على استعداد لاصطحابك .
وبحثت في ذهني بسرعة عن أقربهم إلى جاكسون . إن الخال كلارك يعيش في جرينوود التي لا تبعد أكثر من أميال معدودات .
أَبَنْتُ :
ــ أحبُّ العيش مع الخال كلارك ، طالما أنه قريب من البيت ههنا .
ــ أهذا ما تريد حقاً ؟
ــ نعم ، يا سيدي .
واقترب الخال كلارك مني ، ووضع يده على رأسي :
ــ حسناً ، سأصحبك معي وأرسلك إلى المدرسة . سنمضي

غداً فنبتاع ثياباً .

خفَّ توتري نوعاً ما ، لكنه ظلَّ يلازمني . كان أخي سعيداً، فقد رحل إلى الشمال . وأردتُ الذهاب معه ، لكنني لم أفه بحرف .

وهذي رحلة في القطار ، وهأنذا في بلدة جنوبية صغيرة . كان البيت في جرينوود شبه كوخ مؤلف من أربع غرف ،يشغل نصف مساحة منزل مزدوج قابع في طريق ظليلة هادئة . وكانت الخالة جودي ، وهي فتاة متوسطة الحجم ، أنيقة ، خلاسية ، قد هيأت عشاء حاراً ينتظرنا على المائدة . وحيرتني بسلوكها الجدي المتحفظ . كان يلوح أنها تتصرف طبقاً لشريعة مجهولة مني ، فخلصتُ من ذلك إلى أنها تنظر إليَّ على أنني « فرد ضالّ » ، صبي لا يملك ، لسبب من الأسباب ، بيتاً يؤويه . وشعرتُ أنها تطردني في فكرها خارج حدود الحياة ، فأصير أخرق مرتبكاً في حضورها . وكان الخال كلارك والخالة جودي يتحدثان اليَّ كأنني من الكبار ، فتساءلت عما إذا كنت أقوم بما يتوقع مني . كنت أحسُّ دائماً بدفء حقيقي مع أمي ، حتى حينما كنا نعيش في القذارة ؛ إلا أنني لم أشعر بشيء من ذلك ههنا . لربما كنت أكثر خوفاً من أن أحسّ بذلك .

وتقرَّر على مائدة العشاء وجوب إرسالي إلى المدرسة في اليوم التالي . كان الخال كلارك والخالة جودي يشتغلان ، فأخبراني أني واجد الطعام عند الظهر على الموقد .

قال الخال كلارك :

ــ والآن ، يا رينشارد ، هذا هو بيتك الجديد •

ــ نعم ، يا سيدي •

ــ إجمع الحطب والفحم للمواقد بعد المدرسة •

ــ نعم ، يا سيدي •

ــ وأضرم النار في فرن المطبخ •

ــ نعم ، يا سيدي •

ــ إحمل سطلاً من الماء من الساحة بحيث تستطيع جودي الطهي في الصباح •

ــ نعم ، يا سيدي •

ــ وبعد أن تنتهي من واجباتك ، يمكنك الدرس طوال بعد الظهر •

ــ نعم ، يا سيدي •

ما عهد لي بوظائف معينة من قبل ، فمضيتُ إلى فراشي خائفاً قليلاً • اضطجعت والنوم يجفوني ، متسائلاً هل كان يجب أن أجيء ، شاعراً أن الليل المظلم يخفي أناساً غرباء ، وبيوتاً غريبة ، وشوارع غريبة • ماذا سيحدث لي ههنا ؟ وكيف سأعيش ؟ ؟ وأي نوع من النساء هي الخالة جودي ؟ وكيف ينبغي لي أن أتصرّف هنا ؟ وهل يسمح لي الخال كلارك بعقد صلات الصداقة مع الصبية الآخرين ؟ وأفقتُ في الصباح التالي

لأرى الشمس مشعة في غرفتي ، فأحسست بالراحة قليلاً .

كان خالي يناديني :

ــ ريتشارد !

فغسلتُ وجهي ، وارتديت ثيابــي ، ودلفت إلــى المطهى ، وجلست إلى الطاولة دون أن أنبس بحرف .

قالت الخالة جودي :

ــ نعمتَ صباحاً ، يا ريتشارد .

فجمجمت ، متمنياً لو فكرت في قول ذلك أولاً :

ــ أوه ، نعمتما صباحاً .

فاستوضحت :

ــ أفلا يقول الناس صباح الخير من حيث أتيت ؟

ــ أجل ، يا سيدتي .

فقالت بلهجة واضحة الدلالة :

ــ حسبتُ ذلك .

وبدأت الخالة جودي والخال كلارك يسألانني عن حياتي ، فعظم ارتباكي بحيث برحني جوعي . وصحبني الخال كلارك ، بعد الظهر ، إلى المدرسة وقدمني إلى المدير . ومرّ نصف يوم المدرسة الأول دون أي حادث . جلست أحملق في كتاب القراءة الغريب ، أتتبّع الدروس . وبدت لي المواضيع بسيطة ، وشعرتُ أني أستطيع متابعة الصف . كان قلقي ساكنــاً في جوانحــي ؛

وكنت أتساءل كيف سأحيا مع الصبيان • إن كل مدرسة جديدة تعني منطقة جديدة من الحياة ينبغي غزوها • هل الصبيان قساة؟ وما مقدار بأسهم في القتال ؟ وأيقنت سلفاً أنهم يقاتلون بـكل تأكيد •

ودخلتُ في فرصة الظهيرة إلى ملاعب المدرسة ، فتلكأ حولي جماعة من الصبيان ، يتطلّعون إليّ من رأسي إلى قدمي ، وهم يتهامسون فيما بينهم • واستندتُ إلى جدار ، محاولاً السيطرة على اضطرابي •

سأل أحدهم بفظاظة :

ــ من أين أنت ؟

فأجبتُ :

ــ من جاكسون •

فاستطلع :

ــ كيف صيّرك القوم ، هناك في جاكسون ، بشعاً هكذا ؟

وارتفع صدى ضحك عال •

رددتُ عليه في الحال :

ــ وأنت لست جميل المظهر على أية حال •

ــ أوه !

ــ آه !

ــ أسمعتم ما قال له ؟

فسأل الصبي متهكماً :
ـ. تحسب نفسك ذكياً ، هه ؟
فقلت :
ـ. إسمع ، لست أطلب قتالاً . لكن إذا رغبتَ في القتال ، فسأقاتل .
ـ هَهْ ، إنك لفتىً شديد البأس ، أليس كذلك ؟
ـ في مثل بأسك .
فاستفسر :
ـ أتعرف لمن تستطيع أن تقول مثل هذا الكلام ؟
فسألت :
ـ وهل تعرف لمن تستطيع أن تردّه ؟
فقال ، وهو يخطو متقدماً :
ـ أتتحدث عن أمي ؟
ـ إذا شئت ذلك ، فليكن هكذا .
ذلك كان اختباراً لي . فإذا فشلت الآن ، فسوف أفشل في المدرسة ، لأن الاختبار الأول لا يأتي في الكتب ، بل في كيف يعامل الفتيان رفيقاً لهم ، وفي أية قيمة يضعون في إرادته للقتال .
وهدّدني الصبيّ :
ـ إسحب كلامك .
فنبرتُ :

ـ أرغمني .

وتكاثر الحشد ، مستشعراً ريح قتال . وتردّد الصبي ، يزن أسهمه في التغلّب عليّ .

وعيّره أحد الصبيان :

ـ أنت لن ترضى بما قال الصبي الجديد ، أليس كذلك ؟

ودنا الصبي مني . فوتّدت قدميّ في الأرض . كانت المسافة بين وجهينا تزداد ضيقاً .

استفهم :

ـ أتحسبني أخافك ، إيه ؟

فقلت :

ـ أخبرتك بما يجول في خاطري .

ودفع أحدهم ، خشية ألاّ تتقاتل ، الصبيّ صوبي فوقع عليّ ، فدفعته بقسوة .

صاح :

ـ لا تدفعني !

فقلت :

ـ إذن ابتعد عني !

ودُفع مرة ثانية من الخلف ، فضربته بيدي اليمنى ، فأصبته على فمه . وصاح الحشد ، وزغرد ، وماج مقترباً بحيث ما كنت أستطيع رفع ذراعي وتسديد الضربة إلا بعد جهدٍ كثير . وكلما

حاول أحدنا أن يسدد ضربة للآخر جعلنا زعيق الصبية تفقد توازننا . وكانت ترافق كل ضربة صيحات ثائرة . ولما كنت أدرك أني إذا لم أنتصر أو أثبت بأسي على الأقل ، فسوف أضطر لمقاتلة صبيٍّ جديد كل يوم ، رحتُ أقاتل متنمراً ، محاولاً أن أترك ندبة ، ساعياً أن أسيل دماً كي أثبت أني لست بجبان ،وأني أقوى على الدفاع عن نفسي . وقرع الجرس ، ففرّقنا الحشد . وبدا أن المعركة ستتصل .

صاح الصبيّ :

ــ أنا لم أُنه حسابي معك !

فأجبت :

ــ إمضِ إلى الجحيم !

وطرح الصبيان عليّ في الصف عدة أسئلة عن نفسي ، فأنا شخص أستأهل المعرفة . ولما قرع جرس الانتهاء من المدرسة ، استعديت للقتال من جديد ، لكنني لم أعثر للصبي على أثر .

وفي طريق عودتي إلى البيت وجدت خاتماً صغيراً في الشوارع ، فعرفت فوراً ما ذا سأفعل به . كان للخاتم حجر أحمر تحمله شعب رقيقة حلّلتها ، وأخرجت الحجر منها . وتركت الشعب الرقيقة الحادة بارزة . وأدخلت إصبعي في الخاتم وسددت ضربة في الهواء . والآن ، بالله ، فليتقدم أي مشاغب لعين وسأرينّه كيف أقاتل . سأخلّف خطوطاً قرمزية على وجهه

بعد كل ضربة أوجهها له •

بيد أني لم أستعمل الخاتم أبداً • فلم أكد أعرض سلاحي الجديد في المدرسة ، حتى انتشر وصف" له بين الصبيان جميعاً • ودعوت عدوي إلى معركة جديدة ، فلم يرد عليّ • فليس ثمة حاجة للقتال بعد الآن : لقد قبلوني •

ولم أكد أربح حقوقي على أرض المدرسة حتى قام في نفسي خوف جديد • فذات أمسية ، قبل النوم ، وأنا جالس في الغرفة الأمامية أقرأ وأدرس ، والخال كلارك ، الذي كان يعمل متعهداً للنجارة ، جالس" إلى طاولة عمله يرسم نماذج بيوت ، بينا الخالة جودي ترتق الجوارب ، قرع جرس الباب على حين بغتة ، فأدخلت الخالة جودي الجار الملاصق لنا ، وهو صاحب البيت الذي نقطن ، وكان يشغله قبلاً • كان يدعى بوردن ، وهو طويل العود ، أسمر اللون ، محني القامة ، وما أن قدموني إليه حتى نهضت وصافحته •

قال لي السيد بوردن :

ـ حسناً ، يا ولدي ، لممّا يبعث على الانشراح رؤية ولد آخر في البيت •

فسألت متشوقاً :

ـ أثمة صبيّ آخر هنا ؟

قال السيد بوردن ، وهو يهز رأسه :

ـ ولدي كان هنا • لكنه رحل الآن •

سألت :

ـ كم له من العمر ؟

فهمهم السيد بوردن بحزن :

ـ كان في مثل سنّك •

فاستقصيتُ بغباوة :

ـ وأين ذهب ؟

فردّ السيد بوردن :

ـ لقد مات •

ـ أوه !

لم أفهمه • وكان ثمة صمت طويل ، كان ينظر إليّ السيد بوردن خلاله وهو مغرق في التفكير •

استوضح ، وهو يشير إلى غرفتي :

ـ هل تنام هناك ؟

ـ نعم ، يا سيدي •

ـ هنالك كان ينام ولدي •

فسألت ، راغباً في التأكد من ذلك الأمر :

ـ « هنالك » ؟

ـ نعم ، هنالك بالضبط •

ـ في « ذلك » السرير ؟

ـ أجل ، ذلك كان سريره . حينما سمعت أنك آتٍ منحت خالك ذلك السرير .

ورأيت الخال كلارك يهزّ رأسه بقوة للسيد بوردن ، لكن فات الوقت . وبدأت مخيلتي ، على الفور ، تموج بالأشباح . ما كنت أومن بالأشباح من قبل ، لكن تعلمت أن ثمة إلهاً ، فقبلت وجوده بشيء من القلق والاحجام . والآن ، إذا كان ثمة إله ، فيجب إذن أن يكون ثمة أشباح . وفي دقيقة واحدة ، بعث فيّ اشمئزاز قوي من النوم في تلك الغرفة حيث توفي الصبي . كنت أعرف تماماً أن الصبيّ الراحل لن يزعجني ، لكنه غدا حياً بالنسبة إلي بطريقة لم أقوَ على تجاهلها . وذهبت حجلان إلى الخال كلارك بعد رحيل السيد بوردن .

أخبرته :

ـ أنا خائف من النوم هنالك .

ـ لماذا ، لأن صبياً مات هنالك ؟

ـ نعم ، يا سيدي .

ـ لكن ، يا ولدي ، ذلك شيء لا يُخاف منه .

ـ أعرف ، لكنني خائف .

ـ يجب أن نموت جميعاً ذات يوم ، فلمَ نخاف ؟

لم أكن أملك جواباً لهذا .

ـ وقتما تموت ، هل تريد الناس أن يخافوا « منك » ؟

ولم أستطع الجواب على هذا أيضاً .
وتابع الخال كلارك يقول :
ــ هــذا هراء .
فرددتُ :
ــ لكنني خائف .
ــ ستتغلّب على خوفك .
ــ أفلا يمكنني النوم في مكان آخر ؟
ــ ليس ثمة مكان آخر تنام فيه .
ــ أفلا أستطيع النوم هنا على الأريكة ؟
فصحّحت الخالة جودي جملتي في نغمة ساخرة :
ــ « هل يُسمح » لي بالنوم هنا على الأريكة ؟
فكررتُ بعدها :
ــ هل يسمح لي بالنوم هنا على الأريكة ؟
فقالت الخالة جودي :
ــ كــلا .

وتلمست طريقي في الغرفة المظلمة وتحسست السرير ، وجال في وهمي أني إذا لمستــه فسوف أصطدم بالجســد الميت . وارتعشت . ثم قفزت أخيراً إلى السريــر بخشونة وسحبتُ الغطاء فوق رأسي . ولم أعرف النوم تلك الليلة ، فكانت عيناي حمراوين منتفختين في الصباح التالي .

سألني الخال كلارك :
ـ أفلم تنم جيداً ؟
ـ لا أستطيع النوم في تلك الغرفة .
واستفسرت الخالة جودي :
ـ لقد نمتَ فيها قبل أن تسمع عن ذلك الصبي الذي مات هنالك ، أليس كذلك ؟
ـ نعم ، يا سيدتي .
ـ إذن ، لمَ لا تستطيع النوم فيها الآن ؟
ـ إني خائف فقط .
فأخبرتني :
ـ كفَّ عن أن تكون طفلاً .
وجرى الشيء ذاته في الليلة الثانية . أرقني الخوف فهرب النوم عن جفوني . ونهضتُ ، بعدما لجأ الخال كلارك والخالة جودي إلى فراشيهما ، وزحفت حتى الغرفة الأمامية وغفوت على شكل طابة محكمة على الأريكة ، دون غطاء . وأفقت في الصباح التالي لأرى الخال كلارك يهزني . سأل :
ـ لمَ فعلت هذا ؟
ـ أنا خائف من النوم هنالك .
ـ ستمضي إلى تلك الغرفة فتنام فيها الليلة . يجب أن تتغلب على هذا .

وقضيت ليلة أخرى مؤرقة ، أرتعش الليل بطوله في غرفة الصبي الميت ـ فهي لم تعد غرفتي أبداً ـ وكنت خائفاً بحيث كدّني العرق ، فأدنى صوت في البيت كان يوقف قلبي عن الخفقان • وفي الصباح التالي كنت مغموماً في المدرسة •

ورجعت إلى البيت وقضيت ليلة أخرى طويلة من اليقظة بحيث غفوت في الغداة في غرفة الصف • وإذ سألتني المعلمة عجزت عن الجواب • وبدأت أشتاق إلى بيتي الأصلي وأحنّ • وأنا عاجز عن التخلّص من خوفي • وقادني ذلك الأسبوع الكامل من الأرق إلى حافة انهيار عصبي •

وجاء نهار الأحد ورفضت الذهاب إلى الكنيسة ، فَتشدّده الخال كلارك والخالة جودي • ولم يدركا أن رفضي الذهاب إلى الكنيسة هو طريقتي في استرحامهما بصمت كي يسمحا لي بالنوم في أي مكان آخر • وتركاني وحدي في البيت فقضيت النهار جالساً على الدرجات الأمامية •• ما كنت أملك الشجاعة الكافية لأدخل المطبخ فأصيب طعاماً • ولما رمضني الظمأ ، درتُ حول البيت وشربت من بريزة الماء في الساحة الخلفية بدلاً من الدخول إلى البيت • وأرغمني اليأس على طرق موضوع الغرفة من جديد وقت النوم •

توسلت :

ـ أرجوكما ، دعاني أنم على المتكإ في الحجرة الأمامية •

فقال خالي :

ـ يجب أن تتخلّص من ذلك الخوف .

وعزمتُ على أن أطلب إرسالي إلى منزلي . مضيت إلى الخال كلارك ، عارفاً أنه تجشّم كثيراً في اصطحابي معه إلى هنا ، حاسباً أنه يساعدني ، وأنه ابتاع لي ثياباً وكتباً .

قلت :

ـ يا خالي كلارك ، أعدني إلى جاكسون .

كان منحنياً على طاولة صغيرة ، فشدّ عوده ، وحدّق إليّ .

سأل :

ـ أفلست سعيداً هنا ؟

فأجبت في صدق ، خائفاً من أن يهبط السقف فوق رأسي :

ـ كلا ، يا سيدي .

ـ وتريد حقاً العودة إلى البيت ؟

ـ نعم ، يا سيدي .

ـ إن الأمور لن تكون سهلة عليك في البيت مثلها هنا . ليس ثمة مال يكفي الطعام والأشياء الأخرى .

فقلتُ ، محاولاً تشديد التماسي :

ـ أريد أن أكون إلى جوار أمي .

ـ أذلك بسبب الغرفة حقاً ؟

ـ نعم ، يا سيدي .

قال خالي متنهداً :

ــ حسناً ، حاولنا إسعادك هنا • لربما لم نعرف كيف نفعل ذلك • لكن إذا شئت العودة ، فباستطاعتك أن تعود •

سألت متشوّقاً :

ــ متى ؟

ــ حالما تنتهي المدرسة •

فصحتُ :

ــ لكنني أريد العودة الآن !

ــ ستحطّم سنتك الدراسية •

ــ لستُ أُبالي •

ــ بل ستبالي ، في المستقبل • فأنت لم تكمل سنة دراسية واحدة •

ــ أريد العــودة إلى البيت •

ــ أكان هذا شعورك منذ زمن طويل ؟

ــ نعم ، يا سيدي •

قال ، وعيناه تتوهّجان دهشة :

ــ سأكتب إلى جدتك الليلة •

ورحت أستوضح منه يومياً عما إذا وصله شيء من جدني ، فأسمع أن ليس ثمة كلمة واحدة • وجعلني الأرق أحسُ أن أيامي حلم حار مزعج ، واختلّت دراساتي في المدرسة • كنــت

أنال علامات عالية ، أما الآن فهي ضعيفة ، ثم بدأت أفشل نهائياً . كنت متبرماً ، أحيا من دقيقة إلى دقيقة .

وذات عشية ، أثناء قيامي بواجباتي ، حملت الدلو إلى بريزة الماء في الساحة الخلفية . كنت نصف نائم ، متعباً ، متوتراً ، أتأرجح على قدميَّ . ووضعت مقبض السطل على طرف صنبور الماء الحديدي وانتظرت أن يمتلىء . وانزلقت الدلو ، وبلل الماء سروالي وحذائي وجوربي .

قلتُ في همس من الحقد واليأس :

ـ هذه الدلو الملعونة الحقيرة بنت الزانية والكلبة !

فرنَّ صوت الخالة جودي المدهوش في الظلمة من خلفي :

ـ ريتشارد !

واستدرت . كانت الخالة جودي واقفة على الدرجات الخلفية . وجاءت عبر الساحة وسألت :

ـ ماذا قلت ، يا صبي ؟

فعمغمتُ ، وأنا أنظر إلى الأرض مسحوق القلب :

ـ لا شيء .

فأمرت :

ـ أعد ما قلت !

فلم أجب . انحنيتُ وحملت الدلو . فاختطفتها من يدي . سألتني من جديد :

ـ ماذا قلت ؟

فأبقيتُ رأسي مخفوضاً ، أتساءل بغموض عما إذا كانت تهددني أو إذا كانت تريدني حقيقة على إعادة لعناتي .

قالت أخيراً :

ـ سوف أخبر خالك بالأمر .

فكرهتها حينئذ . حسبتُ أن خفض رأسي والنظر إلى الأرض في خَرَسٍ صامت نوع من الاعتراف واستجداء الصفح، لكنها لم تقبله على هذا الأساس .

قلت :

ـ لست أبالي!

فأعطتني الدلو ، فملأتها ماء وحملتها إلى البيت . وتبعتني . قالت :

ـ ريتشارد ، أنت صبي شرير ، شرير .

فرددتُ :

ـ لستُ أُبالي .

وتجنبتها ، ونحوت إلى العتبة الأمامية وجلستُ . ما كنت أقصد تركها تسمع لعناتي ، لكن ما دامت سمعتني فلا سبيل إلى تهدئتها ، فقد عزمت على ترك الأمور تأخذ مجراها الطبيعي . سأذهب إلى البيت . لكن ، أين هو البيت ؟ أجل لسوف أهرب .

وجاء الخال كلارك وناداني إلى الغرفة الأمامية :

ــ تقول جودي إنك كنت تستعمل لغة فاسدة .
ــ نعم ، يا سيدي .
ــ أتعترف بذلك ؟
ــ نعم ، يا سيدي .
ــ لماذا فعلت ذلك ؟
ــ لست أدري .
ــ سوف أجلدك . إخلع قميصك .
عريت ظهري تماماً ، فانهال عليّ بحزامٍ جلدي ، وأطبقت أسناني ولم أصرخ .
ســأل :
ــ هل ستستعمل تلك اللغة ثانية ؟
فقلت :
ــ أريد العــودة إلى البيت .
ــ إلبس قميصك .
فأطعت أمره .
قلت ثانية :
ــ أريد العودة إلى البيت .
ــ لكن هذا هو بيتك .
ــ أريد العودة إلى جاكسون .
ــ ليس لك بيت في جاكسون .

ـ أريد العودة إلى أمي •

فأذعن :

ـ حسناً • سأبعث بك إلى البيت نهار السبت •

ورنا إليّ بعينين منتفختين :

ـ قل لي ، أين تعلمت تلك الكلمات التي سمعتك جودي تتلفّظ بها ؟

نظرت إليه ، ولم أجب • وعندئذ ومضت في ذهني صورة سريعة راكضة لجميع تلك الزرائب القذرة التي عشت فيها ، فجعلني ذلك أحسّ ، وأنا واقف أمامه ، أني أكثر غربة مني في أي وقت آخر • كيف يمكنني إخباره أني تعلّمت أن ألعن قبل أن أتعلّم القراءة ؟ كيف يمكنني إخباره أني كنتُ سكيراً في السادسة من عمري ؟

عندما صحبني إلى القطار صباح السبت ، شعرتُ بجرمي فما أردت أن أرفع نظري إليه • أعطاني تذكرتي ، فتسلقت القطار بسرعة • ولوّحت له بكلمة وداع جامدة من النافذة والقطار يسير ، ولما غاب وجهه عن بصري ذبلتُ ، وترهّلت • وأعمت العبرات قدرتي على الرؤية • فاستندت إلى الخلف وأغلقت عينيّ ونمت طوال الطريق •

★ ★ ★

كنت مسروراً لرؤية أمي • كانت صحتها قد تحسنت كثيراً ،

وإن كانت لا تزال ملازمة فراشها • ونصح لها الطبيب بعملية أخرى ،وكان ثمة أمل بالشفاء • لكنني كنت قلقاً • فيمَ عملية أخرى ؟ كان رأيي ، وأنا نفسي ضحية كثرة من آمالٍ لم تـؤد قط إلى أية نتيجة على الإطلاق ، أن تترك أمي على حالها • كانت مشاعري مسيّرة بعامل الخوف ، فلم أحدّث أحداً عنها • لقد بدأت أستشعر منذ الآن أن مشاعري أكثر اختلافاً عن مشاعر أولئك المحيطين بي بحيث أعجز عن الثرثرة بما يعتلج في باطني •

ولم ألتحق بالمدرسة مجدداً ، بل رحت ألعب وحيداً في الساحة الخلفية ، أقذف طابة من المطاط فوق السور ، وأرسم صوراً في الطين الناعم بسكين عتيقة ، أو أقرأ ما أجد من كتب في البيت ، أحنّ بألمٍ كي أغدو في سنّ تتيح لي العناية بنفسي •

وجاء الخال إدوارد من كارترز لاصطحاب أمي إلى كلاركسدال لإجراء العملية ، فأصررت في اللحظة الأخيرة على مرافقتهم• وارتديت ثيابي على عجل ،واتجهنا إلى المحطة • جلست طوال الرحلة أفكّر ، خائفاً من التطلع إلى أمي ، راغباً في العودة إلى البيت ، ومع ذلك راغباً في متابعة الرحلة ، وبلغنا كلاركسدال، واستأجرنا سيارة أجرة حتى عيادة الطبيب •كانت أمي بشوشة ، شجاعة ، مبتسمة ، بيد أني كنت على يقين من أن شكوكها تماثل شكوكي • ولما بلغنا غرفة انتظار الطبيب ، رسخ في ذهني اعتقاد يقول إن أمي لن تتحسن حالها من جديد أبداً • وخرج الطبيب

أخيراً في قميصه الأبيض وصافحني ، ثم دخل بأمي إلى الغرفة • وذهب الخال إدوارد يتدبر أمر إيجاد غرفة وممرضة • وشعرت بالانسحاق ، فرحت أنتظر وأنتظر ، وبعد ساعات مديدة خرج الطبيب من الباب •

ــ كيف هي أمي ؟

ــ على أحسن ما يرام !

ــ هل ستتحسن صحتها ؟

ــ سيزول كل شيء في برهة أيام قليلة •

ــ هل أستطيع رؤيتها الآن •

ــ كلا ، ليس الآن •

رجع الخال إدوارد بعد قليل ترافقه سيارة إسعاف ورجلين يحملان محفّة • ودخلوا غرفة الطبيب وخرجوا بوالدتي • كانت تضطجع مغلقة العينين ، يلفُّ البياض جسدها كله • وأردت أن أركض إلى المحفّة وألمسها ، لكنني لم أقوَ على الحركة •

سألت الخال إدوارد :

ــ لماذا يحملون أمي على هذا الشكل ؟

فقــال :

ــ ليس في المشافي تسهيلات للملونين ، فلا بدّ لنا أن ننقلها هكــذا •

راقبت الرجلين يهبطان السلّم بالمحفة • ثم وقفت علــى

الرصيف وراقبتهما يضعان أمي داخل سيارة الاسعاف ويمضيان بهـا • وعرفت أن أمي خرجت من حياتي • لقد كنت أحسّ ذلك •

نزلت وخالي إدوارد في بيت للآجار • وكان ينطلق كل صباح إلى المستوصف للاستفسار عن أمي ، ويرجع كل مرة مكتئباً صامتاً • وأخبرني أخيراً أنه سيعود بأمي إلى البيت •

سـألته :

ـ ما هو الأمل الذي تملكه أمي في الحقيقة ؟

فأجاب :

ـ إنها مريضة جداً •

وبرحنا كلاركسدال • ركبت أمي على محفّة في عربةللبضائع وخالي إدوارد إلى جانبها يعنى بها • وفي البيت ، اضطجعت طوال أيام ، تئن ، وعيناها خاويتان • وزارها الأطباء وغادروها دون أي تعقيب • وعظم خوف جدتي • ورجع الخال إدوارد ، بعدما رحل إلى بيته ، فاستدعى أطباء آخرين أيضاً أخبرونا أن خثرة دموية تشكلت في دماغ أمي وأن ضربة أخرى من الشلل نجمت عن ذلك •

وذات ليلة ، نادتني أمي إلى سريرها وروت لي أنها لا تستطيع تحمّل الألم ، وأنها تريد أن تموت • أمسكتُ بيدها وتضرّعت إليها أن تجنح إلى الهدوء • وفي تلك الليلة كففتُ عن التجاوب

مع مشاعرها • لقد تجلّدت أحاسيسي • كنت لا أفعل سوى العناية بها ، عارفاً أنها تقاسي وتتعذب • ولازمت السرير عشر سنوات ، وهي تتحسن شيئاً فشيئاً ، لكن دون أن تشفى تماماً ، مترديّة بصورة دورية في حالتها الشللية • وأنفقت العائلة كل ما لديها من المال لمقاومة مرض أمي حتى لم يبق لنا أي مورد ، وأضحى مرضها شيئاً فشيئاً أمراً مقبولاً في البيت ، شيئاً لا يمكن إيقافه أو منعه •

وانقلب عذاب هذه الأم إلى رمز فكري ، رمز يمثل كل الفقر ، والجهل ، واليأس ، والألم ، والحيرة ، وأيام الجوع وساعاته ؛ يمثل الحركة التي لا تعرف الهدوء ، والبحث العقيم ، والالتباس ، والخوف ، والرهبة ؛ يمثل الألم الذي لا معنى له والعذاب الذي لا نهاية له • وعيّنت حياتها الاتجاه العاطفي لحياتي ، ولوّنت الرجال والنساء الذين قدّر لي أن ألقاهم في المستقبل ، وكيّفت علاقتي بالحوادث التي لما تحدث بعد ، وحددت موقفي من الأمور والظروف التي لم يكن لي بدّ بعد من مواجهتها • واستقرّت فيّ ، خلال السنوات البطيئة من عذاب أمي اليائس ، كآبة روحية لن أتخلّص منها البتة ، كآبة جعلتني أقف على حدة أرنو إلى الفرح الزائد بريبة ، كآبة سوف تجعلني قلقاً متشككاً ، سوف تجعلني إلى الأبد في تنقّل دائم ، فكأني أهرب من قدر مجهول يريد اللحاق بي •

وفي الثانية عشرة من عمري ، قبل أن أكمل سنة واحدة من الدراسة الرسمية ، اكتسبتُ مفهوماً عن الحياة لن تمحوه قط أية تجربة ، وميلاً لما هو واقعي لن تنقضه قط أية محاكمة ، وشعوراً بالعالم هو ملكي وملكي وحدي ، وفكرة تتعلق بمعنى الحياة لن تستطيع قط أية ثقافة أن تبدلها ، ويقيناً بأن معنى العيش لا ينشأ إلا حين يكون المرء يناضل كي يغتصب معنى من العذاب الذي لا معنى له .

في الثانية عشرة من عمري اكتسبتُ موقفاً حيال الحياة سيقدَّر له أن يدوم ويتصل ، موقفاً سيحملني على البحث عن تلك المناطق من العيش التي يمكن أن تحفظه على قيد الحياة ، وسيجعلني متشككاً في كل شيء وأنا أسعى وراء كل شيء ، متسامحاً بشأن كل شيء ونقاداً لكل شيء . ولقد منحتني تلك الروح التي اقتبستُ القدرةَ على النظر عميقاً في عذابات الآخرين ، وجعلتني أنجذب صوب أولئك الذين تماثل مشاعرهم مشاعري ، فأجلس طوال ساعات بينا الآخرون يروون لي قصص حياتهم ، وصيرتني حنوناً وقاسياً بصورة غريبة ، عنيفاً ومسالماً في وقت واحد .

لقد ولدت فيَّ إرادة تمنحني القوة كي أنفذ ببرود إلى قلب كل سؤال فأصل إلى نواة العذاب التي كنت أعرف أني واجدها فيه ، جعلتني أحبّ الغوص في علم النفس ، في القصة والفن

الواقعيين والطبيعيين ، في تلك الدوامات من السياسة التي تملك القدرة على المطالبة بمجموع نفوس البشر • ولقد وجهت عواطفي نحو الناس المتمردين ، وجعلتني أحب الحديث الباحث عن أجوبة لأسئلة لا تعود بفائدة على أحد ، بل جلّ ما تستطيع هو أن تحافظ في باطني على شعلة الحياة الخاصة بذلك الشعور الساحر بالعجب والخشية حيال مأساة الشعور الانساني الذي تخفيه المأساة الظاهرية للحياة •



٤

كانت جدتي عضواً غيوراً في كنيسة اليوم السابع التبشيرية ، وكنت مضطراً للتظاهر بعبادة إلهها ، وكانت هذه العبادة ضريبتها للاحتفاظ بي . وكان شيوخ كنيستها يشرحون إنجيلاً غاصاً بصور بحيرات واسعة من النار الأبدية ، وبحار تتلاشى ، وأودية من العظام الجافة ، والشمس تحترق فتستحيل رماداً ، والقمر يتفجر دماءً قانية ، والنجوم تهوي على الأرض ، وهراوة

خشبية تتحول إلى ثعبان ، وأصوات تصدر عن السحب ، ورجال يسيرون على الماء ، والله راكباً الزوابع ، وماء يتحوّل إلى خمر ، وأموات يبعثون ويعيشـون ، وعميٍ يبصرون ، ومقعدين يمشون ، وانعتاق يكتظ بحيوانات خيالية ذات رؤوس عديدة وقرون وعيون وأقدام ؛ ومواعظ عن تماثيل ذات رؤوس من ذهب ، وأكتاف من فضة ، وسيقان من نحاس ، وأقدام من طين ؛ وقصة كونية بدأت قبل الزمان وانتهت بسحب السماء تتبعثر لدى عودة المسيح ؛ وسِفْر أخبار ينتهي بأرماجدون ؛ وقصص تحتشد بسائر ملايين المخلوقات البشرية التي عاشت أو ماتت بينا الله يحكم على الأحياء والأموات ...

وبينا أنا أصغي إلى لغة المواعظ الحية كنت أنجرفُ نحو إيمان عاطفي ، لكن لا أكاد أخرج من الكنيسة وأرى الشمس البراقة وأحسّ حياة الناس الخفاقة في الشوارع ، حتى أدرك أن لا شيء من ذلك صحيح ، وأن لا شيء من ذلك سيحدث .

ومرة ثانية عرفت الجوع ، الجوع الناهش ، الجوع الذي يجعل جسدي لا يستقر أو يهدأ على حال ، لكن دون أي هدف .. الجوع الذي يجعلني متوتراً باستمرار ، الجوع الذي يلهب مزاجي ، الجوع الذي يرغم الحقد على الوثوب من قلبي مثل نبلة من لسان ثعبان ، الجوع الذي يخلق فيّ شهوات غريبة. وما كان ثمة طعام يمكن أن أحلم به يبدو لي شهياً لذيذاً بقدر

نصف لذة بسكويت الفانيليا ، فلا أكاد أحصل على خمسة قروش حتى أركض إلى بقالية المخزن القائم في الزاوية وأبتاع علبة من بسكويت الفانيليا وأُقفل إلى البيت ، على مهل ، بحيث أستطيع التهامها جميعاً دون اضطرار لاقتسامها مع شخص آخر. وعندئذ أقتعد الدرجات الأمامية وأروح أحلم بتناول علبةأخرى. وتصير هذه الشهوة أخيراً على درجة عظيمة من الحدة بحيث أحمل نفسي على النشاط طلباً للنسيان . وتعلمت طريقة لشرب الماء تشعرني بالشبع إلى حين ، أكنتُ راغباً في الشرب أم لا ؛ كنت أضع فمي تحت الصنبور وأفتح الماء بقوة وأترك مجراه يتدفق في معدتي حتى تمتلىء وتتوتر . وتؤلمني معدتي أحياناً ، لكنني كنت أحسّ الشبع خلال برهة من الزمن .

ما كنا نأكل قط في بيتجدي لحم الخنزير أو العجل ، ونادراً وكنا نطعم لحماً من أي نوع كان . وإذا أكلنا السمك ، فلسنا نعرف غير تلك الأسماك المليئة بالحسك والحراشف . وما كان مسحوق خبز المعجنات يستعمل أبداً ، إذ يقال إنه يحتوي مادة كيماوية تؤذي البدن. وكنت أفطر ثريد طحين الذرة ومرقاً مصنوعاً من الدقيق وشحم الخنزير ، فأظلُّ بعدئذ طوال ساعات أتجشأه في فمي . وكنا نتناول بصورة مستمرة بيكربونات الصودا نقاوم بها سوء الهضم . وكنت آكل في الساعة الرابعة بعد الظهر صحناً من الخضراوات مطهوة بشحم الخنزير ، وكنا

نبتاع أيام الآحاد أحياناً لحم بقر بعشر دولار كثيراً ما يتضح لنا أنه غير قابل للأكل . وكان صحن جدتي المفضل الفول السوداني المحمص تحاول أن تجعله شبيهاً باللحم ، إلا أن مذاقه يختلف عن ذلك كل الاختلاف .

كان مركزي في البيت مركزاً دقيقاً حرجاً . كنت قاصراً ، تابعاً غير مرغوب فيه ، وقريباً بالدم لا يؤمن بالخلاص ، بل لا تبرح نفسه عرضة للخطر الأبدي . وكانت جدتي تعلن بجرأة ، مؤسسةً منطقها على عدالة الله ، بأن شخصاً خاطئاً واحداً في البيت يمكنه أن يجتذب غضب الله على البيت بأسره ، مديناً بذلك البريء والمذنب على السواء . ولقد علّلت في أكثر من مناسبة واحدة مرض أمي المديد كنتيجة لعدم إيماني . وأصبحت حاذقاً في تجاهل هذه التهديدات الكونية ، وصرتُ متحجراً تجاه سائر المواعظ الميتافيزيكية .

لكن جدتي وجدت حليفاً لها فيما تبذل من جهود لإقناعي بالاعتراف بإلهها . لقد أنهت الخالة أدي ، ابنتها الصغرى ، دراستها الدينية في مدرسة اليوم السابع التبشيرية في مدينة هاسفيل في ولاية ألباما ، ورجعت إلى البيت لتعلن أنه إذا كانت العائلة على ما يكفي من الرأفة لتأخذ أمر تغذيتي على عاتقها ، فأقلّ ما يجب أن أقابلها به هو اتباع إرشاداتها . واقترحت أن أتنسب ، حينما يبدأ الفصل الدراسي الجديد ، إلى مدرسة

دينية عوضاً عن مدرسة علمانية • وإذا رفضتُ ، فإني أجعل نفسي لا كافراً فظيعاً فحسب ، بل جاحداً عقوقاً متحجر القلب أيضاً • ورحت أناقش وأعترض ، لكن أمي انحازت إلى صف الجدة والخالة أدي ، فلم يبق لي بدٌ من الرضوخ •

وافتتحت المدرسة الدينية أبوابها ، فواظبتُ عليها في تجهّم • كان ثمة عشرون تلميذاً ، بين الخامسة والتاسعة عشرة ، مبعثرين بين الدراستين الابتدائية والمتوسطة ، ومتراكمين في غرفة واحدة • وكانت الخالة أدي المعلمة الوحيدة ، فقام بيننا ، منذ اليوم الأول ، تضاد شديد • تلك كانت أول مرة تدرّس فيها ، فهي نزقة ، مضطربة لأن قريباً لها ــ قريباً لا يعترف بإيمانها ، وليس هو عضواً في كنيستها ــ يقعد بين تلامذتها • ولقد كانت عازمة أن تُعرّف كل تلميذ بأني خاطىء لا ترضى هي عنه ، وأني لا أستأهل اعتباراً من أي نوع كان •

كان التلامذة ليني العريكة كثيراً ، يفتقرون إلى ذلك الشعور المرهف بالخصومة ، هذا الشعور الذي يجعل فتيان المدارس العلمانية وفتياتها حشداً يُختبر فيه الفتى ويُوزن ، ويلتقط فيه ومضةً عن ماهية العالم • كان أولئك الفتيان والفتيات تعوزهم الارادة ، فحديثهم تافه ، وحركاتهم خرقاء ، وشخصياتهم بعيدة عن الغضب ، والأمل ، والضحك ، والغَيْرَة ، والهوى ، أو اليأس ••• وكنتُ قادراً على النظر إليها بموضوعية تفوق

تصوّرهم . كانوا ملكاً بكليتهم للبيئة التي يعيشون فيها ، فلا يقوون على تخيُّل غيرها ، بينا جئتُ أنا من وسط آخر من الحياة ، من أبواب الحانات المتأرجحة ، ومن ساحة السكة الحديدية ، ومن المرائب ، ومن عصابات الشوارع ، ومن جسور النهر ، ومن دار اليتامى ؛ وقد تنقلت من بلدة إلى بلدة ومن بيت إلى بيت ؛ واختلطت بالكبار ، ربما أكثر مما يصلح لي . وكان عنيّ أن ألجم عادتي في إطلاق الشتائم والتفوه بها ، لكن ليس قبلما صدمت أكثر من نصفهم ، ورميت الخالة أدي في حالة من الضيق تجاوز العجز المطلق .

ولم يكد الأسبوع الدراسي الأول يجرّر أذياله حتى تفجَّر النزاع المخنوق بيني وبين الخالة أدي . نهضت عصر أحد الأيام عن طاولتها وسارت على طول المشى بين المقاعد ، وتوقفت أمامي .

همهمت ، وهي تنقر بمسطرتها على عقلة أصابعي :

ــ بإمكانك التصرف أفضل من هذا .

فسألتُ ، وقد خبلتني الدهشة ، وأنا أعالج يدي :

ــ أفضل من ماذا ؟

فصاحت :

ــ أنظر إلى الأرض فقط .

فخفضت بصري ، فرأيت قطعاً صغيرة من قلب الجوز مبعثرة

على الأرض ، وبعضهـا قد تركت لطخاً دهنيـة على الألواح الصنوبرية البيضاء النظيفة . وأدركتُ حالاً أن الفتى الجالس قبالتي قد فعل ذلك ، فجوزاتي في جيبي ، غير مكسورة بعد .

قلت :

ــ لستُ أعرف شيئاً عن هذا .

زمزمت :

ــ كان عليك أن لا تأكل في غرفة الصف .

فقلت :

ــ ما كنت آكل .

فنبرت في سخط غاضب :

ــ لا تكذب ! هذه ليست مدرسة فحسب ، بل أرض الله المقدسة .

ــ أيتها الخالة أدي ، إن جوزاتي في جيبي ...

فزعقت :

ــ أنا الآنسة ويلسون !

فحدقت إليها ، عاجزاً عن النطق ، وقد استوعبت أخيراً ماذا يزعجها حقاً . لقد أنذرتني أن أناديها الآنسة ويلسون في غرفة الصف ، وهذا ما كنت أفعل غالباً . كانت تخاف إذا ناديتهـا الخالة أدي أن أنسف معنويات التلامذة . وكان كل تلميذ يعرف أنها خالتي ، وكثرة منهم قد عرفوها أكثر مني .

قلتُ ، وقد استدرت عنها وفتحت كتاباً :

ــ أنا آسف .

ــ ريتشارد ، انهض !

فلم أتحرك . كان التوتر يسود الغرفة . وضغطتُ أصابعي على الكتاب ، وتيقّنت أن كل تلميذ في الغرفة يراقبنا . أنا لم آكل الجوز ، وكنت آسفاً لأني ناديتها بالخالة أدي؛ لكنني ما كنت أريد أن أُخصّ بعقوبة مجانية لا مسوغ لها . وبالاضافة ، فقد كنت أتوقع من الفتى الجالس قبالتي أن يختلق أكذوبة ينقذني بها ، ما دام هو المذنب في الحقيقة .

صاحت :

ــ أمرتك أن تنهض !

فظللت جالساً ، دون أن أرفع عيني عن الكتاب . وفجاءة ، قبضت عليّ من ياقة قميصي وجرتني عن المقعد . فتعثرت على أرض الغرفة .

صاحت صيحة هستيرية :

ــ كنت أتحدث إليك !

فانتصبتُ ورنوت إليها ، وكان ثمة حقد" في عينيّ .

ــ لا تنظر إليّ على هذا الغرار ، يا صبي !

ــ أنا لم أضع تلك الجوزات على الأرض !

ــ من فعل ذلك إذن ؟

كانت شريعة عصابة الشارع التي أنتمي إليها تقسو عليّ • فأنا لم أبلّغ عن أي صبي في المدرسة العلمانية ، وكنت أنتظر من الفتى الجالس قبالتي أن يهرع لمساعدتي ، فيكذب ، أو يعتذر ، أو أي شيء آخر • ولقد نلت في الماضي عقوبات لا أستحقها حماية لتضامن العصابة ، ورأيت فتياناً آخرين يفعلون الشيء ذاته • لكن الفتى الدينيّ ، بإيمانه بالله ، لم يتكلم •

قلت أخيراً :

ــ لستُ أعرف من فعل ذلك •

فقالت الخالة أدي :

ــ إمضِ إلى مقدمة الغرفة •

فمشيت ببطء إلى طاولتها ، متوقعاً أن أوبخ وأُزجر • لكن قلبي أسرعت ضرباته لما رأيتها تنحو إلى الزاوية وتنتخب غصناً أخضر لدناً طويلاً ، وتتجه صوبي ••• ففقدتُ سيطرتي على أعصابي • وصحت :

ــ أنا لم أفعل شيئاً !

وضربتني ، فتملّصت منها •

وانفجرت ، وجهها عامر بالغضب ، وجسدها يرتعش :

ــ قف ثابتاً ، يا صبي !

وقفتُ ثابتاً ، وقد هزمني الصبي الصالح الجالس خلفي أكثر مما فعلت ذلك خالتي أدي نفسها •

ــ مدَّ يدك !

فمددتُ يدي ، ناذراً على نفسي ألا يحدث مثل هذا الشيء مرة ثانية ، مهما كلفني الثمن . وظلت تقرع راحتي حتى احمرَّت ، ثم ضربتني على ساقيَّ العاريتين حتى انتفختا . وكززت أسناني حتى لا أطلق لساني بشكوى أو تذمر . ولما انتهت من ضربي ظللتُ مادّاً يدي لها ، مشيراً إلى أن ضرباتها لا يمكن أن تبلغني حقاً ، وعيناي مثبتتان في محياها لا تطرفان .

قالت :

ــ أنزل يدك وارجع إلى مقعدك .

فأرخيت يدي واستدرتُ على عقبيَّ ، وراحة يدي وساقاي تلتهب ، وجسدي متوتر مشدود . وسرتُ في غضب ناحية مقعدي .

زعقت خلفي :

ــ لم أنتهِ منك بعد !

لقد قالت كلمة واحدة لا تُطاق .. وقبل أن أعرف ما أفعل ، استدرتُ ورحت أحملق فيها بفمٍ مفتوحٍ وعينين ملتهبتين .

عدت أقول :

ــ لم تنتهي مني ؟ لكن ، ماذا فعلت لك ؟

فجأرت الخالة أدي :

ــ إجلس واخرس .

فجلست • كنت واثقاً من أمر واحد : سوف لن أتعرض لضربها مرة ثانية • لقد ضُربت من قبل بشكل مؤلم ، لكن كنت أشعر دائماً أن الضرب حقّ نوعاً ما ومعقول ، وأني كنـــت على ضلال • أما الآن ، وللمرة الأولى ، فقد شعرتُ أني ندّ للكبار ، وعرفت أني ضُربت لسبب يفتقر إلى الحق • واستشعرت مشكلة عاطفية في الخالة أدي غير اهتمامها بكوني أكلت في المدرسة • هل يشعرها وجودي بعدم الأمان بحيث تحسّ أن من واجبها إنزال العقاب بي أمام بقية التلاميذ لتصبّ الرعب في قلوبهم ؟ ظللت أمعن التفكير طوال بعد الظهر ، متسائلاً كيف أستطيع هجر المدرسة •

ولم تكد تصل الخالة أدي إلى البيت ــ كنتُ قد وصلتُ قبلها ــ حتى نادتني إلى المطهى • وحين دخلت ، رأيت أنها تحمل مسطرة أخرى • وتوترت عضلاتي •

قلتُ لها :

ــ سوف لن تضربيني مرة ثانية !

ــ سأعلمك بعض حسن التصرف والسلوك !

فانتصبتُ أقاتل ، أقاتل كما لم أفعل في حياتي من قبل ، أقاتل ضدّ نفسي • لعلها طفولتي الصعبة ، لعله تنقلي من بلدة إلى بلدة ، ولعلها القسوة التي سبق فرأيتُ وشعرتُ قد تمكّنت جميعاً مني ، فكنت أحاول كبت ذلك الدافع الذي ينحو بي جهة

درج طاولة المطبخ لأتناول منه سكيناً وأدافع عن نفسي • غير أن هذه المرأة المنتصبة أمامي هي خالتي ، أخت أمي ، وابنة جدتي ، وفي دمها يسري دمي ، وكنت أرى في أغلب أفعالها جزءاً مراوغاً من ذات نفسي ، وألتقط في حديثها أصداء من ذات حديثي • لم أرد أن أكون قاسياً معها ، ورغم هذا لم أرد أن أُضرب لذنب لم أقترفه • قلت :

ــ أنت مجنونة غضباً عليَّ لأمرٍ ما !

ــ لا تقل إني مجنونة !

ــ أنت أكثر جنوناً من أن تستطيعي تصــديق أي شيء أقول •

ــ لا تخاطبني هكذا !

ــ إذن كيف أستطيع مخاطبتك ؟ لقد ضربتني لأني رميت قشر الجوز على الأرض ! لكنني لم أفعل ذلك !

ــ من فعل ذلك إذن ؟

ولما كنت وحيداً معها الآونة ، وكنت قانطاً ، فقد اطرحت ولائي جانباً وأخبرتها باسم الصبي المذنب ، شاعراً أنه لا يستأهل أيما اعتبار ، فاستفسرت قائلة :

ــ لمَ لمْ تخبرني قبلاً ؟

ــ لم أرد الوشاية بالآخرين •

ــ إذن ، لقد كذبت ، هه ؟

فما استطعت كلاماً • كنت عاجزاً عن شرح مقدار ما أكنّ من تقدير لقانون التضامن •

ــ مدّ يدك !

ــ سوف لن تضربيني ! فأنا لم أفعل ذلك !

ــ سأضربك لأنك كذبت !

ــ لا ، لا تلمسيني ! فإذا لمستني قاتلتك !

وترددت برهــة ، ثم ضــربتني بالمسطرة فَرَغْتُ منها ، وتعثرت في الزاوية • فلحقت بي ، وانهالت تجلدني على وجهي • وقفزت صارخاً ، وتجاوزتها وشددتُ درج المطبخ ، فوقــع على الأرض مرسلاً صوتاً راعداً • وتناولت سكيناً منه وحملتها على استعــداد •

زعقتُ :

ــ والآن ، قلتُ لك أن تقفي عند حدك !

ــ ضع هذه السكين جانباً !

ــ دعيني وشأني وإلا جرحتك !

فوقفت تزن الأمر ، ثم اتخذت قرارهاوتقدمت مني ، فهجمت عليها بالسكين ، فقبضت على يدي وحاولت اختطافها • ودفعتُ بساقي اليمنى حول ساقيها ودفعتها ، فتعثرت ، وارتمينا على الأرض • كانت أقوى مني ، فأحسست بقواي تنحطّ • وكانت لا تبرح تقاتل في سبيــل سكيني ، فرأيت على وجههــا نظرة

أشعرتني أنها ستستعمل هذه السكين ضدي إذا تمكنت من الحصول عليها . وعضضت يدها فتدحرجنا ، تترافس ، وتتخادش ، وتتضارب ، وتتقاتل فكأننا غريبان ، أو بالأحرى عدوان مستميتان ، تتصارع من أجل حياتنا .

جأرت بأعلى صوتي :

ــ دعيني وشأني !

ــ أعطني هذه السكين ، يا صبي !

ــ سأقتلك ! سأقتلك إن لم تدعيني وشأني !

وجاءت الجدة راكضة ، ووقفت مصعوقة .

ــ أدي ، ماذا تفعلين ؟

فلهثت :

ــ إنه يحمل سكيناً . أرغميه على تركها .

وصاحت جدتي :

ــ ريتشارد ، دع تلك السكين !

وجاءت أمي تظلع إلى الباب . صاحت :

ــ ريتشارد ، كفَّ عن هذا !

ــ لن أفعل ! سوف لن أدعها تضربني !

وقالت أمي :

ــ أدي ، اتركي الصبي وشأنه .

ونهضت الخالة أدي ببطء ، وعيناها على السكين ، ثم

استدارت وسارت خارج المطهى ، رافسةً الباب بحيث انفتح على مصراعيه قبل أن تمرّ منه •

قالت أمي :

ـ ريتشارد ، أعطني السكين •

ـ لكن ، يا أماه ، سوف تضربني ، تضربني من أجل لا شيء • سوف لن أسمح لها بضربي • ولن أبالي مهما يحدث !

فأعلنت جدتي باكية :

ـ ريتشارد ، أنت شرير ، شرير •

وحاولت أن أشرح ما حدث ، لكنهمالم تصغيا إلي • وتقدمت الجدة مني لتأخذ السكين ، فأفلتّ منها وركضت حتى الساحة الخلفية • جلست وحيداً على الدرجات الخلفية ، مرتجفاً ، منهكاً عاطفياً ، أبكي بيني وبين نفسي • وجاء جدي : لقد أخبرته الخالة أدي بما حدث • قال :

ـ أعطني السكين ، يا سيّد •

فكذبت ، دافعاً ذراعي إلى جانبي لأخفي السكين :

ـ لقد أعدتها لمكانها •

استفسر :

ـ ماذا جرى لك ؟

ـ لست أريدها أن تضربني •

فرعد :

ـ أنت ولد ، طفل !

ـ لكنني لا أريد أن أضرب !

ـ ماذا فعلت ؟

ـ لا شيء .

ـ أنت سريع في كذبك مثل الكلب في عدوه . ولولا إصابتي بالرثية ، لكنت نزعت سروالك وضربت مؤخرتك كما يجب . يا لفكرة سافل صغير مثلك يهدّد شخصاً بالسكين !

فقلت مرة ثانية :

ـ لن أدعها تضربني مرة أخرى .

ـ أنت شرير . يحسن أن تراقب خطواتك ، أيها الرجل الصغير ، وإلا انتهيت على المشنقة .

منذ عهد بعيد وأنا لا أخاف جدي . لقد كان رجلاً مريضاً عجوزاً ، وهو لا يدري شيئاً عما يجري في البيت . وكانت النساء يدعونه بين حين وحين ليلقي الرعب في قلب واحدٍ منا . بيد أني كنت أعرف ضعفه فلا أخافه البتة . كان يقضي أيامه في غرفته ، تلفّه ذكريات عائمة من أيام فتوته ، وبندقيته الباقية من الحرب الأهلية تنتصب محشوة في زاوية من الغرفة ، وبزته الزرقاء الخاصة بجيش الاتحاد تستلقي مطوية في عناية عظيمة .

قبلت الخالة أدي هزيمتها في قسوة ، وراحت تنظر إليّ في

شمم باردٍ صموت • وأدركت أنها انحطت إلى مستواي العاطفي في جهودها للسيطرة عليّ ، فمات احترامي لها • ولم نكلّم بعضنا ، حتى زواجها بعدعدة سنوات ، إلا نادراً ، رغم أنّا تتناول الطعام على مائدة واحدة وننام تحت سقف واحد ، ورغم أني كنت صبياً متعظماً نصف خائف ، وكانت هي سكرتيرة الكنيسة ومعلمة مدرستها • وقد بارك الله بيتنا بسببٍ من الحب الذي يربط ••••

وتابعت دراستي في مدرسة الكنيسة ، رغم أن الخالة أدي لم تنادني مرة للتسميع أو إلى اللوح الأسود • وتوقفت عن الدرس بناءً على ذلك • ورحت أقضي وقتي ألعب مع الفتيان الذين وجدت أن الألعاب الوحيدة التي يعرفون هي ألعاب وحشية • أما الباسبول ، والمصارعة ، والملاكمة ، والركض ، فتلك تسليات محرّمة من أعمال الشيطان • وعوضاً عن هذا كانوا يلعبون لعبة قمينة بالقطط البرية يدعونها « فرقع السوط » ، وهي تسلية تبدو بريئة ولكنها مثيرة في الاندفاع الوحشي الذي يمكن أن يجعل المرء على قاب قوسين من الموت أو أدنى • وأيان ما وجدتنا الخالة أدي واقفين في ساحة المدرسة في كسلٍ ، فهي تقترح أن نفرقع السوط • وقد كان آمن لأجسادنا وأسلم لأرواحنا لو اقترحت علينا أن نلعب بالنرد •

أمرتنا الخالة أدي عصر أحد الأيام أن نفرقع السوط • لم

أكن قد لعبتُ اللعبة من قبل فاشتركت فيها عن نية حسنة • وشكلنا صفاً طويلاً ، وكل صبي يمسك بيد الآخر حتى امتددنا مثل خيط طويل من الأجساد البشرية • ورغم جهلي بتلك اللعبة ، فقد وقفت في رأس السوط البشري • وكان المرشد ، قبضة السوط ، قد انطلق يخبّ ، متموجاً إلى اليسار وإلى اليمين ، مضاعفاً من سرعته حتى تلوى السوط البشري في عَدْوٍ خطر • وقبضت على يد الصبي التالي بكل ما فيّ من قوة ، مستشعراً أني إذا لم أثابر وأتماسك فسأطير في الفضاء • وازداد السوط توتراً بمقدار ما يتحمل اللحم والعظم البشريان ، فأحسست أن ذراعي تنتزع من تجويفها • وبرحني تنفسي فجأة وتأرجحتُ في قوس صغيرة حادّة • إن السوط يقرقع الآن ، وأنا عاجز عن أن أتحمل أكثر مما فعلت •• وطوّحت بي قوة السوط النابذة عن الأرض إلى الفضاء ، مثل قطعة من جلد تطير من سوط حصان ، وسقطت على طولي عبر الفراغ ثم حططت في خندق • وتدحرجت ، مصعوقاً ، مرضوض الرأس ، دامياً • كانت الخالة أدي تضحك ، وهي المرة الأولى التي أراها فيها ضاحكة على أرض الله المقدسة •

كانت الجدة متمسكة في البيت بنظام ديني قاس • فثمة صلوات عند الشروق والغروب ، على مائدة الفطور والغداء ، متبوعة بقراءة من الانجيل يتلوها أحد أفراد العائلة • وكان من المظنون أني أصلي قبل أن أمضي إلى فراشي ليلاً • وكنت

أتنصّل من أكبر عدد من الخدمات الكنسية التي أستطيع إلى التنصّل منها سبيلاً في أيام الأسبوع ، متذرعاً بالـدرس . وطبيعي أن أحداً لم يصدقني ، لكنهم قبلوا كذبي لأن أحداً لا يريد المجازفة بعراكٍ جديد . وكانت الصلوات اليومية عذاباً لي ، رغدت ركبتاي متقرحتين من طول الركوع وكثرته . وأخيراً اكتشفت طريقة في الركوع لم تك ركوعاً على الاطلاق ، فتعلمت بعد تكرارٍ مجهد أن أوازن نفسي على رؤوس أصابعي وأريح رأسي على جدار في إحدى الزوايا الملائمة . ولم يلحظ ذلك مني غير الله ، ولا أعتقد أنه أعار ذلك أدنى اهتمام .

وأمرت جدتي ، على أية حال ، أمراً قطعياً بوجوب مواظبتي على اجتماعات بعض الصلوات الطقَسية التي تدوم طـوال الليل . كانت العضو الأكبر سناً في الكنيسة ، ولمن المعيب جداً إذا لم يحضر الحفيد الوحيد في بيتها تلك الخدَمات الهامة ؛ وكانت تشعر أني إذا تهاونت تماماً في واجباتي الدينية فذلـك يلقي الريبة على صلابة إيمانها ، وقدرتها على الإقناع والإغراء ، أو على الأقل قابليتها في تطبيق العصا على مؤخرتي .

كانت الجدة تهيىء طعاماً لجميع من يحضر الصلوات الليلية ، وكنا ننطلق ثلاثتنا ــ الجدة ، والخالة أدي ، وأنا ــ مخلّفين أمنا وجدّنا في البيت . وكنت أجلس خلال الصلوات العاطفية الحارة والتسابيح المرنمة متلوياً فوق مقعد ، مشتاقاً أن أكبر كي

أتمكن من الفرار ، ، مصغياً بلا مبالاة إلى موضـوع الابادة الكونية ، متعشقاً التسابيح لملاطفاتها الشهّاء ، لكن مختلساً أخيراً النظر إلى جدتي متسائلاً إن كنت أستطيع أن أتمـدد بأمان على المقعد وأغرق في النوم . وكنت في العاشرة أو الحادية عشرة أزدرد سندويشة ، وتومىء لي جدتي بالأذن في النوم . وأفيق في فترات متقطعة لأسمع تنفاً من التسابيح أو الصلوات التي تهدهدني فأنام من جديد . وتهزني الجدة أخيراً ، فأفتـح عينيَّ وأرى الشمس تتسلل خلال زجاج النوافذ .

كان عدد كبير من الرموز الدينية يستغيث بإحساساتي ، فأتجاوب مع النظرة الفاجعة إلى الحياة التي تبشر الكنيسة بها ، شاعراً أن العيش يوماً إثر يوم بينا الموت هو فكرة المرء الوحيدة يخلق حساسية مشفقة حيال الحياة تمكن المرء من النظر إلـى البشر فكأنهم جميعاً بسبيـل الموت على مهل ، بينا الشعـور الراعش بالقضاء المحموم ، المنفجر بعذوبة وكآبة من الترانيم الدينية ، يمتزج بشعور القضاء الذي سبق فالتقطتُ مـن الحياة . بيد أن الإيمان العاطفي والفكري الكامل لم يأتني قط . ولعلي كنت أتجه نحو استكمال الاعتراف بالله لو أني التقطت شعوري الأول بالحياة من الكنيسة ، لكن تسابيح الله ومواعظه لم تطرق باب قلبي إلا بعد فترة طويلة من تشكل شخصيتـي وانصهارها بفعل ظروف الحياة القاسية . وكنت أحسّ أذ في

باطني شعوراً بالحياة سواء في عمقه مع ذلك الشعور الذي تحاول الكنيسة أن تبعثه في نفسي ، بحيث بقيت آخر الأمر لا مبالياً في أعمـــاق قلبي .

ونما جسدي ، حتى على غذاء مشكل من مجرّد ثريد طحين الذرة ومرق شحم الخنزير ، وهي معجزة كان على الكنيسة أن تدعي الفضل فيها . ولقد قضيت السنة الثانية عشرة من عمري على حمية لو عاش كلب متوسط الحجم عليها لتوقف نموُّه بكل تأكيد ، بينا شرعت غددي تنشر في دمي ، مثل النسغ الـــذي يرتفع في الأشجار عند مقدم الربيع ، تلك المواد الكيموية الغريبة التي تحملني على التطلع بفضول إلى الفتيات والنساء . وكانت زوجة القسيس تنشد في الجوقة ، فوقعتُ في حبها مثلما يستطيع ابن الثانية عشرة وحده أن يعبد أمرأة بعيدة لا يمكن الوصـــول إليها . وكنت أحدّق إليها أثناء الخدمات ، أتساءل كيف يكون الزواج منها ، متعجباً من مبلغ حيويتها . ولم أحسّ أدنى تأنيب من ضميري لأن لهفتي الأولى إلى الجسد قد ولدت على أرض مقدسة ، فالتناقض بين الرغبات الجسدية المتفتحة ووحـــدة التسابيح الأليمـــة لم يثر في نفسي قط أي شعور بالاثـــم والخطيئـــة .

ولعلّ تلك الترانيم الطنانة العذبة كانت تثيرني جنسياً ، أو لعلّ أهوائي الجسدية بدورها ، وهي تقوم سلفاً على أســـاس

من حساسيتي المنتبجة ، قد جعلتني أهوى الصلوات المازوخية • ولمن المحتمل حتى درجة بعيدة أن أفعى الخطيئة التي كانت تتسلل إلى حجرات قلبي قد أثارت جوعَها الترانيم والأحلام التي تغذي بعضها بعضاً بصورة متبادلة • ومما لا ريب فيه أن حياة الكنيسة الروحية قد تدنست برغباتي الوضيعة ، وبذلك الجوع الجموح إلى الجسد الثائر في دمي ، لأني كنت أحدّق إلى زوجة القسيس طوال ساعات ، محاولاً اجتذاب عينيها إلى عينيّ ، مجرباً أن أسحرها مغناطيسياً ، ساعياً إلى الاتصال بها بأفكاري • ولو أن رغباتي انقلبت إلى رمز ديني مشخص ، فقد كان الرمز إذن يشبه شيئاً من هذا القبيل : عفريت أسود له قرنان وذنب طويل متعرج متشعب ، وحوافر مشقوقة ، وجسد عريان ذو حراشف ، وأصابع رطبة لزجة ، وشفتان نديتان شهوانيتان ، وعينان داعرتان معلقتان بمحيا زوج القسيس •••

وأُعلن عن محاولة رياضة روحية دينية ، فشعرت جدتي أن تلك هي فرصتها الأخيرة لإنقاذي قبل أن أجتاز تخوم الخطيئة في المدرسة الأهلية ، لأني كنت أعلنت بحزم وتصميم أني لن أذهب بعد الآن إلى أية مدرسة كنسية • وكان عداء الخالة أدي قد تضاءل بصورة بيّنة ، فلعلها انتهت أخيراً إلى أن نفسي الضالة أثمن من أية كبرياء سخيفة • بل إن موقف أمي نفسها كان أيضاً على هذا الغرار : « ريتشارد ، ينبغي أن تعرف الله من خلال

إحدى الكنائس » •

وصارت العائلة بأسرها لطيفة غفورة ، بيد أني كنت أعرف الدوافع إلى هذا التبدل المفاجىء ، بحيث ابتعدت عنهم عاطفياً أكثر فأكثر • وشـرع بعض زملائي في الصـف ـ وكانوا ـ يتجنبونني نزولاً عند نصيحة أهليهم ـ يزورونني الآونة ، فكنت أعرف في أقل من ثانية واحدة أنهم لقنوا ما يجب أن يقولوا لي •

وجاء صبي يقطن في شارعنا لزيارتي ذات يوم بعد الظهيرة ، فإذا اضطرابه وقلقه يفضحانه • وتحدث إليَّ بسذاجة عظيمة وخراقة كبيرة بحيث كان في مكنتي رؤية العظام العارية لدسيسته المقدسة وأسمع طقطقة مناورات جدتي من بين كلماته •

سـأل :

ـ رينشارد ، أتدري أنّا جميعاً قلقون عليك ؟

فاستفهمتُ في تعجب متصنع :

ـ قلقون عليَّ ؟ مَنِ القلق عليَّ ؟

فقال ، وعيناه تتجنبانني :

ـ جميعنـا •

استقصيتُ :

ـ ولمـه ؟

فردَّ في حزن :

ـ أنت لم تَخلَّص •

فقلتُ ضاحكاً :

ـ أنا على خير ما يرام .

ـ لا تضحك ، يا ريتشارد . ذلك جدّي .

ـ لكنني أخبرتك أني على خير ما يرام .

ـ قل لي ، يا ريتشارد ، أودّ أن أكون لك صديقاً طيباً .

ـ أعتقد أننا صديقان حقاً .

ـ أعني صديقين بالمسيح .

فقلتُ في صوت لطيف جلجل في تهكم :

ـ نحن نعرف بعضنا .

ـ لكن ، ليس بالمسيح .

ـ الصداقة هي صداقة عندي .

ـ إنّما ، ألا تريد أن تنقذ روحك ؟

فعالنته ، لأخبره عن اعتقادي أني لا أضمُّ بين جوانحي تلك الروح التي يحسبني حائزاً عليها :

ـ أنا بكل بساطة لا أُبالي بالدين .

فاستوضح :

ـ هل حاولت حقاً الشعور بالله ؟

ـ كلا ، لكنني أعرف أني لا أستطيع الشعور بشيء مثل هذا .

ـ أنت لا تستطيع ترك السؤال يستقرُّ هنالك بكل بساطة ،

يا ريتشـــارد .
ــ ولم أتركه يستقر ؟
ــ لا تهزأ بالله .
ــ قلت لك إني لن أشعر بالله أبداً ، فلا فائدة .
ــ هل تترك مصير روحك معلقاً بالكبرياء والغرور ؟
ــ أظنني لا أملك أية كبرياء في مثل هذه القضايا .
ــ ريتشارد ، فكّر في المسيح الذي مات من أجلك ، مهرقاً دمه ، دمه الغالي على الصليب .
فجازفت :
ــ ثمة أناس آخرون أهرقوا دمهم .
ــ لكن ذلك ليس سواء . أنت لا تفهم .
ــ ولست أظنني سأفعل في يوم من الأيام .
ــ آه ، يا ريتشارد ، يا أخي ، أنت ضائع في ظلمة العالم . يجب أن تسمح للكنيسة بمساعدتك .
ــ أخبرتك أني على خير ما يرام .
ــ أدخل إلى البيت ودعني أصلّ من أجلك .
ــ لا أريد جرح شعورك ...
ــ أنت لا تستطيع . إني أتحدّث في سبيل الله .
فقلتُ ، والكلمات تنزلق بوقاحة من بين شفتيّ قبل أن أدرك معناها التام :

ـ ولست أريد جرح شعور الله أيضاً •

صدمته كلماتي • فمسح الدموع من عينيــه ، فشعرتُ بالأسف •

همس :

ـ لا تقل هذا • قد لا يغفر الله لك أبداً •

كان يستحيل عليَّ أن أخبره عن ماهية شعوري بالدين • لم أكُ قد قررت في ذهني إن كنت بالله مؤمناً أم لا ؛ ولم يقلقني وجوده أو عدم وجوده في يوم من الأيام • كنت أفكر أنه إن كان ثمة إله كلي الحكمة وكلي القوة ، يعرف البداية والنهاية ، ويكيل العدالة للجميع ، ويسوس مصير كل إنسان ، فهذا الله يعرف حتماً أني أشكُّ بوجوده ، وسيضحك من إنكاري الأحمق له • وإذا لم يك ثمة إله على الاطلاق ، إذن فيمَ هذه الضجة كلها ؟ ماكنت أستطيع أن أتصور الله يتأنى في قيادته هذه العوالم الفسيحة التي لا يدركها العقل كي يشغل باله بي •

كان مفهوم عن العذابات في الحياة مطموراً في جوانحي ، لكن شيئاً منه لم يك يشبه تبعات الخطيئة الأصلية في نظري ؛ فأنا ما كنت لأقوى ، بكل بساطة ، على أن أحسَّ الضعــف والضياع بأسلوبٍ كوني • ولقد مَنَحْتُ ، قبلما توجَّب عليَّ المواظبة على الكنيسة ، وجودَ الله نوعاً من قبولٍ ضمنيٍ ؛ لكنني ، بعدما رأيت كيف تخدمه مخلوقاته ، انتابتني الشكوك

واجتاحت قلبي . كان إيماني ، مرتبطاً إلى وقائع الحياة العامة ، راسياً في أحاسيس جسدي وما كان فكري بقادرٍ على إدراكه ، وما كان شيء ليمكنه أن يزحزح ذلك الإيمان ، حتى ولا خوفي أيضاً من قوة غير منظورة .

عالنت الصبي :

ـ لست بخائفٍ من أمور مثل هذه .

فسـأل :

ـ ألست بخائفٍ من الله ؟

ـ كلا ، ولمَ أخاف ؟ أنا لم أفعل له شيئاً .

فحذرني :

ـ إنه إله غيور .

فأخبرته :

ـ آمل أن يكون إلهاً لطيفاً .

ـ إذا « كنت » لطيفاً معه ، فهو إله لطيف . لكن الله لن ينظر إليك إذا لم تنظر إليه .

وقدمت ، خلال حديثنا ، تقريراً نظرياً يلخّص موقفي تجاه الله ، والعذابات في العالم ،تقريراً استخلصته من معرفتي بالحياة كما عشتها ، ورأيتها ، وأحسستها ، وقاسيتها في نوبات الخوف ، والرهبة ، والجوع ، والرعب ، والوحدة .

قلت له :

ـ إذا كانت التضحية بحياتي يمكن أن توقف العذابات في العالم ، فأنا أضحي بها . لكنني لا أومن بأن ثمة شيئاً يمكن أن يوقفها .

أصغى إلى ما تفوّهت به ، لكنه لم يتكلم . وددت أن أزيده إيضاحاً ، بيد أني أدركتُ عبث ذلك . ورغم أنه كان يكبرني سناً ، فهو لم يعرف أو يحسّ شيئاً من الحياة بنفسه . لقد ثقفه أبواه بعناية ، فهما ينبئانه دائماً بالأحاسيس التي ينبغي أن يشعر بها .

قلت له :

ـ لا تغضب .

وغادرني ، خائفاً محتاراً . وأحسست الأسف من أجله .

وبدأت جدتي ، إثر زيارة ذلك الفتى مباشرة ، مرحلتها في الحملة . لا ريب أن الفتى حمل لها كلماتي المجدِّفة ، لأنها ظلت تحدثني ساعات ، تنذرني بأني سأحترق إلى الأبد في بحيرة من نار . وبقدر ما كان يوم البعث يقترب ، كان الضغط يتكاثف عليَّ ويشتدّ . كنت ألج غرفة الطعام في مهمة صغيرة فأجد الجدة جاثية ، ورأسها يرتاح على كرسي ، تتمتم باسمي في صلاة مهموسة متوترة . وأضحى الله فجأة في كل ناحية من البيت ، حتى على وجه الخالة أدي المتجهم المفكّر . وبدأ ذلك يثقل عليَّ . وحننتُ إلى الوقت الذي أستطيع أن أرحل فيه . كانوا

يتوسلون إلي باستمرار كي آتي إلى الله ، فكان يستحيل عليَّ أن أتجاهلهم دون أن أجرح شعورهم . وحاولتُ ، يائساً ، التفكير في طريقة أقول فيها كلمة « لا » دون أن أجعلهم يحقدون عليَّ . وعزمتُ على مغادرة البيت قبل أن أستسلم .

وعندئذ أخطأت وجرحت روح جدتي . لم يكُ في نيتي أن أؤذيها أو أذلها ، بل إن ما يبعث على الضحك في الأمر هو أن الخطة التي تصورتها كانت تهدف إلى إنقاذ عواطف جدتي الخائبة تجاهي ، فإذا بها تصاب عوضاً عن ذلك بأعظم عارٍ وإذلال لحقا بها طوال حياتها .

ذات عشية ، أثناء موعظة ، سمعت القسيس ــ وكنت قد نزعتُ عينيَّ عن زوجه ما يكفي من الزمن لأصغي إليه ، رغم أنها كانت تتهوّم في إحساساتي طوال الوقت ــ يصف كيف شاهد يعقوب أحد الملائكة . وعلى الفور ، شعرتُ أني وجدت طريقة أخبر بها جدتي أني أحتاج إلى برهان قبل أن أومن ، وأني لا أستطيع منح نفسي إلى شيء لا أحسه أو أراه . لسوف أخبرها أني إذا شاهدتُ ملاكاً فسأقبل ذلك كبيِّنة على وجود الله لا يتطرق الشك إليها ، وحينئذ أخدمه بدون تردّد . ومما لا ريب فيه أنها ستفهم مثل هذا الموقف وتقتنع بصوابه .

وان ما وهب لي الشجاعة للإدلاء بهذه الحجة هو يقيني بأني لن أرى ملاكاً ، ولو أني رأيت مثل هذا الملاك يوماً فقد كنت

أملك ما يكفي من الحسّ السليم للإسراع الى أقرب طبيب أجده في طريقي . وانحنيتُ عليها ، وهذه الفكرة البراقة تفور في ذهني ، متمنياً أن أخفّف من مخاوف جدتي على نفسي ، آملا أن أقنعها بأن قلبي ليس أسود خاطئاً كله ، وأني أعنى الآن جدياً بتوسلاتها الحامية ، انحنيت عليها إذن ، وهمستُ :

ـ أنت ترين ، يا جدتي ، أني إذا رأيت ملاكاً كما حدث ليعقوب فأنا أومن عندئذ .

فتيبست جدتي ، وحملقت فيَّ في ذهول ، ثم أضاءت ابتسامة سعيدة وجهها الأبيض العجوز المتغضن ، فهزت رأسها ، وربتت على يدي بلطف . واعتقدتُ أن ذلك يصدها عني لفترة من الوقت . ورنت إليَّ جدتي عدة مرات خلال الموعظة وتبسَّمت . أجل ، إنها تعرف الآن أني لم أطرّح توسلاتها من ذهني نهائياً ..

وظاناً أن خطتي قد أثمرت ، استأنفت عبادتي لزوج القسيس بضمير نقي ، متسائلاً كيف يكون شعوري لو قبَّلتها ، مشتاقاً للإحساس ببعض تلك العواطف الشهوانية التي أدركت شيئاً عنها من مطالعاتي . وانتهى القداس ، فاندفعت جدتي إلى مقدمة الكنيسة وراحت تحدث القسيس بانفعال . ورأيت القسيس ينظر إليَّ في دهشة . وفكرتُ في غضب : أوه ، يا للعنة ، إنها تخبره بما حدثتها ! لكنني لم أخمّن جزءاً من ألف جزء من أفكارهما !

وهُرع القسيس إليَّ ، فنهضتُ بحركة آلية ، فمدَّ يده صوبي ، فصافحتها .

قال في نغمة مرتاعة :

ـ لقد أخبرتني جدتك .

كان الغضب يخرس لساني ، فقلت :

ـ ما أردتها أن تخبرك بذلك .

فانصبت هذه الكلمات حرفياً من بين شفتيه :

ـ تقول إنك رأيتَ ملاكاً .

فاجتاحني ذهول عظيم لم أستطع معه سوى طحن أسناني . وتمكنت من الكلام أخيراً ، فقبضتُ على ذراعه :

ـ كلا ... كل ... لا ، يا سيدي ! كلا ، يا سيـــدي ! أنا لم أقل هذا . إنها لم تفهمني .

كان مثل هذا المأزق آخر ما أبغيه في الوجود . وفرك الشيخ عينيه في دهشة .

سأل :

ـ ماذا رويت لها ؟

قلتُ ، وأنا أستشعر الحماقة والخجل في نفسي ، والحقد والشفقة على جدتي المؤمنة :

ـ قلتُ لها إني إذا رأيتُ ملاكاً ، فإني أومن إذن .

وغدا وجه الشيخ كئيباً جافاً .لقد صعقته خيبة الأمـــل .

استوضح :

ـ أنت ... أنت لم ترَ ملاكاً ؟

فقلتُ مؤكداً ، وأنا أهزّ رأسي بعنف ، بحيث لا أترك مجالاً لأي التباس :

ـ كلا ، يا « سيدي » !

فتنفس زافراً :

ـ فهمتُ .

كانت عيناه ترنوان في تَوَقَان إلى إحدى زوايا الكنيسة . ونوَّه في شيء من الرجاء :

ـ أنت تعرف أن كل شيء ممكن مع الله .

ـ لكنني لم أرَ « شيئاً » . وأنا آسف لذلك .

فقال :

ـ إذا صليت ، فسيأتي الله إليك إذن .

وصارت الكنيسة لاهبة على حين بغتة ، فتمنيت أن أهرب منها ولا أراها أبداً مرة أخرى . إلا أن القسيس أمسك بذراعي ولم يترك لي مجال الحركة . قلت :

ـ أيها القسيس ، ذلك كله خطأ . وأنا لم أرد أن يحدث شيء من هذا القبيل .

ـ أصغِ ، أنا أكبر منك سناً ، يا ريتشارد ، وأعتقد أن هبة الله موجودة في قلبك .

ولعلّ الشك بدا في ملامحي عندئذ ، لأنه استرسل يقول :

ــ حقاً إني أعتقد ذلك .

فتوسلت :

ــ أيها القسيس ، أرجوك ألا تخبر أحداً بشيء عن هذا .

فتضوأ وجهه من جديد برجاء مُبهم ، وهتف :

ــ لعلك لا تريد إخباري بسببٍ من حيائك . أنظر ، هذا أمر جدي . إذا رأيت ملاكاً ، فأخبرني .

ولم أعد أستطيع أن أنفي ذلك ، وبكلمات لا تجدي ، فهززتُ رأسي له . كانت الكلمات تبدو عقيمة جوفاء حيال رجائه . قال :

ــ عدني أن تصلي . فإذا صليت فالله يستجيب .

فأدرتُ رأسي عنه ، خجلان من أجله ، شاعراً أني اقترفتُ ، غصباً عني ، عملاً قبيحاً حينما أثرت آماله بمثل هذا العنف ، شاعراً بالأسف لمثل هذه الآمال عنده .وأردتُ الهروب من حضرته ، فسمح لي بالذهاب أخيراً ، وهو يهمس :

ــ بودّي أن أتحدث إليك من وقت لآخر .

كان أعضاء الكنيسة يحدقون إليّ ، فتجمعت قبضتاي في غضب . وكانت ابتسامة جدتي البريئة الشبعى تشعّ عليّ ، بينا كان اليأس يملؤني . أن ترتكب الجدة مثل هذه الخطيئة ، ذلك معناه أنها تعيش في جوّ يومي يهيئها لانتظار حدوث أمرٍ من

هذا القبيل • لقد أخبرت الأعضاء الآخرين ، وهؤلاء هم جميعاً يعرفون ذلك ، بما فيهم زوج القسيس ! كانوا ينتصبون هنالك ، أعضاء الكنيسة ، يتهامسون ودهشة فرحة مرتسمة على صفحات وجوههم • لعلي كنت أستطيع في تلك اللحظة أن أرقى المنبر فأقودهم جميعاً ، ولعل ذلك كان يكون ظفري الأعظم !

واندفعت جدتي إليّ واحتضنتني بقوة ، وهي تذرف عبرات الفرح • وتلعثمت ، متحدثاً باستنكار عاطفي ، أوبخها لأنها لم تفهمني • ولا ريب أني تحدثت بصوت أعلى وأقسى مما كان ينبغي ـ كان الآخرون يتحلقون الآن حولي وحول الجدة ـ لأن الجدة فَصَلَت عني فجأة وذهبت إلى زاوية بعيدة في الكنيسة وراحت تصرو إليّ بوجه صارم بارد • وسُحقت ، فمضيتُ إليها أحاول أن أخبرها كيف حدث ذلك •

قالت في صوت متقطع فضح عمق خيبة أملها :

ـ ما كان يجب أن تحدثني •

ولم تفه بحرف واحد طوال طريق العودة إلى البيت • سرتُ إلى جانبها قلقاً ، أرنو إلى وجهها الأبيض العجوز المتعب ، وإلى التجاعيد التي تخطط عنقها ، وإلى عينيها المترقبتين السوداوين ، وإلى جسدها الواهن ، وعرفت أكثر مما كانت تظنني أعرف عن معنى الدين ، وعن جوع القلب البشري إلى ذلك الشيء الذي يوجد ولا يمكن أن يوجد ، وعن عطش الروح البشرية إلى

التغلب والسمو على حدود الحياة البشرية التي لا ترحم .

وأقنعتها فيما بعد أني لم أرد جرح شعورها ، فأطبقت في الحال على اهتمامي بعواطفها كفرصة جديدة لتحاول مرة أخرى إقناعي بالإيمان بالله . بكت وتوسلت إليّ أن أصلي ، أن أصلي حقاً ، أن أصلي كثيراً ، أن أصلي حتى أذرف الدموع ..

تضرعت إليها :

ــ جدتاه ، لا ترغميني على الوعد .

فقالت :

ــ لكن ، يجب عليك ، في سبيل روحك .

فوعدت . لقد أحسستُ ، بعد ذلك كله ، أني أدين لهـا بشيء لأني جعلتُ منها أضحوكة أمام أعضاء كنيستها .

وكنت أرقى السلّم إلى غرفتي يومياً ، فأقفل الباب ، وأجثو، وأحاول الصلاة ، لكن كل ما أستطيع أن أفكر في قوله يلوح لي حماقة وسخفاً . وبدا لي ذلك مرة على درجة عظيمة من العبث حتى ضحكت بصوت عالٍ وأنا أركع على قدميّ . لافائدة البتة، فأنا عاجز عن الصلاة ، ولن أستطيع ذلك مطلقاً . لكنني احتفظت بفشلي سراً . كنت متيقناً أني إن نجحتُ يوماً في الصلاة ، فإن كلماتي ستصطدم دون صخب بالسقف ، ثم تتهاوى عليّ مثـل الريش .

وأضحت محاولاتي للصلاة شيئاً مزعجاً ، وغدت تفسد عليّ

أيامي ، فندمتُ على الوعد الذي منحته لجدتي • لكني وجدت طريقة أضيع فيها الوقت في غرفتي ، طريقة جعلت الساعات تطير بسرعة الريح ، إذ أخذت الكتاب المقدس ، وقلماً ، وورقة ، وقاموساً للقوافي ، ورحت أحاول أن أكتب أشعاراً للتراتيل • وبرّرت ذلك بأني إذا كتبتُ ترنيمة جيدة فستغفر جدتي لي • لكنني فشلتُ حتى في ذلك ، فالروح القدس لم يكن في أي مكان إلى جواري •••

وذات يوم ، بينا أنا أقتل وقت صلاتي ، تذكرت مجموعة من مجلدات تاريخ الهنود قرأتها السنة المنصرمة • أجل ، إني أعرف ماذا سأفعل • سأكتب قصة عن الهنود ••• لكن ، ماذا أكتب عنهم ؟ حسناً ، فتاة هندية • كتبتُ عن فتاة هندية ، جميلة ومتحفظة ، تجلس وحيدة على ضفة تيار ساكن ، محاطة بغسق أبدي وأشجار عجوز ، تنتظر ••• كانت الفتاة تفي بنذر ما كنت أقوى على وصفه ، وحين لم أعرف كيف أطوّر القصة قرّرت أن الفتاة يجب أن تموت • ونهضت ببطء وسارت صوب المجرى الأسود ، ووجهها بارد جامد • ودخلت الماء ، وسارت حتى بلغ الماء كتفيها ، وذقنها ، ثم غمرها • ولم يندّ عنها أي همس أو لهاث ، حتى وهي تموت •

وكتبتُ ، وأنا أخطّ السطر الأخير :

« وانحدرت عتمة الليل أخيراً ، وقبّلت سطح الضريح المائي

بلطف ، وكان الصدى الوحيد الذي يتردد هنالك هو خشخشة الأشجار الهرمة الوحيدة » •

كنتُ مهتاجاً • وقرأت القصة مرة ثانية فوجدت فيها فراغاً متثائباً • ليس ثمة موضوع ، أو أحداث ، لا شيء سوى الجو والحنين والموت • لكنني لم أصنع في حياتي شيئاً مثل هـذا ؛ ولقد صنعت شيئاً ، مهما يكن رديئاً ، وإنه لملكي ••• والآن ، من يمكنني أن أطلعه عليهـا ؟ ليس لأقاربي ، سيعتقـدون أني جننتُ • وقررت أن أقرأها لامرأة شابة تعيش إلى جوارنـا • وقطعت عليها عملها في غسل الصحون ، وجعلتهاتقسم على صون السرّ ، وقرأت عليها القصة بصوت عالٍ • وتبسمت لدناءتها بشكل غريب ، وتحيّرت عيناها في دهشة •

سألت :

ـ ما فائدة هذا ؟

قلت :

ـ لا شيء •

ـ لماذا كتبتها ؟

ـ أردت ذلك فقط •

ـ من أين جئت بالفكرة ؟

فخفضت رأسي ، وهدّلت جانبي فمي ، ودفعت مخطوطتي في جيبي ورنوت إليها في طريقة لعوب تقول : « أوه ، هذا لاشيء

على الاطلاق . فأنا أكتب مثل هذه الأشياء طوال الوقت . ذلك سهل ، إذا كنت تعرفين كيف » . إلا أنني قلت لهـا في صوت متواضع خفيض :

ــ أوه ، لست أدري . لقد ابتدعتها من فكري .

ــ وماذا ستفعل بها ؟

ــ لا شيء .

والله وحده يدري فيم فكرت . كانت بيئتي لا تضمّ أشياء أكثر غرابة من الكتابة أو رغبة المرء في الاعراب عـن نفسيتـه بالكتابة . لكنني لم أنسَ قـط نظرة الدهشـة والاستغراب المرتسمة على وجه المرأة الشابة حينما انتهيتُ من القراءة وتطلعت إليها . كان عجزها عن إدراك ما صنعت أو كنت أحاول أن أصنع قد أرسل البهجة في قلبي . وكنت فيما بعد ، كلما فكرت فـي ارتكاسها ، أبتسم مسروراً لسبب لا أستطيع تفسيره .



٥

لم يمضِ زمن طويل على مقاطعة الناس لي كخاطىء حتى شعرت أني أستطيع أن أتنفس من جديد ، وأن أحيا من جديد ، وأني قد أُطلق سراحي من سجن • وقد تلاشت الآن صور الهلع الكونية ، وأضحى العالم الخارجي حقيقة واقعية ، يرتعش أمامي يوماً بعد يوم • وهأنذا أقدر ، عوضاً عن التأمل ومحاولة الصلاة بخراقة وحمق ، أن أركض وأتجوّل ، وأختلط بالفتيان والفتيات،

وأشعر الألفة مع الناس ، وأقاسم الآخرين جزءاً من الحياة ، وأرضي جوعي إلى الكينونة والعيش .

وتغيَّر موقف جدتي والخالة أدي مني بعد أن قطعنا الأمل من نجاتي ؛ وأخبرتاني أنهما ميتتان بالنسبة إلى العالم ، وبالتالي فإن أولئك الذين يمتون إليهما برابطة الدم ويعيشون في هذا العالم أموات" أيضاً بالنسبة إليهما . وانتقلتا من الود اللجوج إلى البرودة والعداوة . وكانت أمي ، وقد استعادت شيئاً من صحتها في تلك الأثناء ، هي الشخص الوحيد الذي يقف عليَّ بعض الاهتمام ويحثني على الدراسة بجدٍّ ، وتدارك الزمن الذي بعثرته وضيَّعته .

وجلبت الحريةُ المشاكلَ ، فأنا أحتاج الى كتب مدرسية ، ولا بدَّ لي من الانتظار شهوراً للحصول عليها . وأعلنت الجدة أنها لن تشتري لي كتباً دنيوية . وكانت ثيابي في حالٍ يرثى لها ، بينا الجدة والخالة أدي قد صارتا على درجة عظيمة من العداء بحيث أصبحتا تأمرانني بأن أغسل ثيابي وأكويها بنفسي . وكان الطعام لما يبرح قليلاً ، لكنني تآلفت في هذه الاثناء مع الخضراوات والنشويات وشحم الخنزير . وكنت أغدو إلى المدرسة شاعراً أن حياتي لا تتعلق بالدراسة بقدر ما تتعلق بالدخول الى عالم جديد من الناس .

لم أكن قد واظبتُ على دراسة جدية غير منقطعة ، حتى

دخولي مدرسة جيم هيل الأهلية ، غير سنة واحدة . وإذا ضربنا صفحاً عن السنة التي قضيتها في المدرسة الكنسية ، فأنا لا أكاد أبدأ فصلاً دراسياً جديداً حتى يقطعه عليّ حَدَث ما . وهكذا كانت شخصيتي منذ ذلك الحين غير متوازنة الجانبين ، وكانت معرفتي الحسية أعظم بكثير من معرفتي الواقعية . ورغم عدم درايتي بذلك ، فإن السنوات الأربع التالية ستكون الفرصة الوحيدة للدراسة الرسمية في حياتي .

وطرح النهار الأول في المدرسة المشكلة المعتادة ، فكنت متهيئاً عاطفياً للقائها . على أي أساس سيسمح لي بالبقاء على أرض المدرسة ؟ وحملت القلم واللوح ، وسرت في تكاسل مجتازاً ساحة المدرسة ، ألبس قبعة جديدة من القش ، رخيصة الثمن عريضة الحافة . واختلطت مع الفتيان ، آملاً ألا يلحظوني، لكن عارفاً أنهم سيشيرون إليّ عاجلاً أو آجلاً بصفتي قادماً جديداً . وجاءت المتاعب سريعاً — مرّ صبي أسود بقربي ، وطوّح بقبعتي على الأرض ، وصاح :

— أيها القشّاش !

فالتقطتُ قبعتي ، فركض صبي آخر وطوّح بها بقوة أشدّ ، صائحاً :

— أيها القشّاش !

والتقطتُ قبعتي من جديد ، وانتظرتُ . وانتشر الهتاف .

وتجمهر الصبيان حولي ، يشيرون إليّ ، ويرنّمون :

ـ أيها القشاش ! أيها القشّاش !

ولم أشعر حتى الآن أنهم يتحدونني حقيقة ، إذ لم يبرز صبي واحد ليجابهني ويعيّرني • كنت آمل أن السخرية ستنقطع ، وغداً سأترك قبعتي المصنوعة من القش في الدار • لكن الصبي الذي بدأ اللعبة اقترب مني •

قال بسخرية :

ـ لقد اشترت لي أمي قبعة من القش •

فحذرته :

ـ انتبه لما تقول •

فقال الصبي :

ـ أوه ، أنظروا ! إنه يتكلم !

فضجّ الحشد بالضحك، ينتظرون ويترجون •

وسألني الصبي :

ـ من أين أنت ؟

فنبرتُ :

ـ هذا ليس من شأنك •

ـ والآن ، انتبه ، لا تتكبّر ، وإلا مزقتك •

فقلت :

ـ سأقول ما يعنّ لي •

فالتقط الصبي حجراً صغيراً وضعه على كتفه واقترب مني مرة ثانية .

دعاني :

ـ هيا ارمه عني .

فترددتُ برهة ثم فعلت . طوّحت الحجر عن كتفه وانحنيت وقبضتُ عليه من ساقيه ورميته على الأرض ، فانفجر بركان من الزعيق يطلقه الحشد . وقفزت على الصبي الواقع أرضاً ورحتُ ألكمه . ثم نشتت عنه تنشاً ،فقد بدأ صبي آخر يقاتلني . وكانت قبعتي المصنوعة من القش مسحوقة منسيّة .

صاح الصبي الجديد :

ـ لا تضرب أخي !

فزعقت :

ـ اثنان ضد واحد ، ليس هذا من العدل في شيء !

وراح الاثنان يقتربان مني ، واستقرت ضربة على مؤخـرة رأسي ، فاستدرت ، فرأيت قرميدة تتدحرج ، وشعرتُ بالدم ينزفُ على ظهري . وتطلعتُ حواليّ فأبصرتُ عدداً من قطع القرميـد مبعثرة على الأرض . جمعتُ قبضة منها ، فتراجـع الصبيان . وسددتُ الهدف بينا هما يطوقانني ، وقمتُ بحركة من يقذف ، فإذا بأحدهما يستدير ويسلم ساقيه للريح . وأطلقت القرميدة فأصابته في منتصف ظهره . فصاح . ولحقتُ بالآخر

على طول منتصف ساحة المدرسة . وسُرَّ الفتيـان كثيراً ، وتآصروا حولي ، يخبرونني أنني قاتلت بقوة اثنين . وعلى حين غرة هدأ الحشد وتفرَّق . وانصَبَّ بصري على المعلمة تخطو صوبي . فرحت أربت على الدم النازف من عنقي . سألت:

ـ أأنت من قذف تلك القرميدة ؟

فأخبرتها :

ـ صبيان كانا يقاتلانني .

فقالت ، وهي تأخذ بيدي :

ـ تعال .

ودخلت المدرسة ، ترافقني المعلمة . ونقلت إلىغرفةوجوبهت بالصبيين .

سألتْ :

ـ أهذان هما ؟

فقلت :

ـ قاتلني كلاهما ، فاضطررت أن أدافع عن نفسي .

فصاح أحدهما :

ـ لقد ضربني أولاً !

فصرخت به :

ـ أنت تكذب !

فأعلنت المعلمة :

ـ لا تستعمل هذه اللغة هنا ٠

فقلت :

ـ لكنهما لا يقران بالحقيقة ٠ أنا جديد هنا ، وقد مزقا قبعتي ٠

فأعلن الصبي من جديد :

ـ لقد ضربني أولاً ٠

فدرتُ حول المعلمة ، التي كانت تقف بيننا ، وصفعتُ الصبيّ ٠ فزعق وقفز عليّ ٠ وفصلت المعلمة بيننا ٠

صاحت بي :

ـ يا للفظاعة ! أنت تحاول القتال في المدرسة ! ماذا حلّ بك ؟

فهتفتُ :

ـ إنه لا يقول الحقيقة ٠

فأمرتني بالجلوس ، فجلست وعيناي لا تفارقان الأخوين ٠ وخرجت بهما المعلمة من الغرفة فقبعتُ جالساً حتى رجعت ٠ قالت :

ـ أناصافية المزاج بحيث لن أؤدبك هذه المرة ٠

ـ لم تكن غلطتي ٠

ـ أعرف ٠ إلا أنك ضربت أحدهما هنا ٠

ـ أنا آسف ٠

وسألت عن اسمي وأرسلتني إلى الصف . وأُلحقتُ بالصف الخامس لسببٍ لم أفهمه . هل سيكتشفون أن هذا ليس بمكاني؟ وجلست وانتظرت . ولما سألوني عن عمري أخبرتهم فقبّلت .

درستُ ليلاً ونهاراً ، ولم يمضِ أسبوعان حتى رقيت إلى الصف السادس . وركضت إلى البيت ، والسرور يغمر جوانحي، وأطلعتهم على النبأ . ولم تصدق العائلة أن ذلك مستطاع . كيف يمكن لصبي شرير أن يفعل هذا ؟ وأخبرت العائلة مؤكداً أني سأدرس الطب ، وأعمل في البحوث العلمية ، وأكتشف أموراً جديدة . كان النجاح يلهبني ، فلم أفكر ثانية واحدة كيف أشق طريقي إلى المدرسة الطبية . وبما أني قفزتُ صفاً في بحر أسبوعين ، فكل شيء يبدو ممكناً ، بسيطاً ، سهلاً .

ها أنا الآن مع فتيان وفتيات يدرسون ، ويتقاتلون ، ويتحادثون ، وهذا ما جدّد الحياة في كينونتي ، وساطَ حواسي حتى درجة عظيمة من التقبّل الحاذق . كنت أعرف أن حياتي تدوّم حول عالم ينبغي أن أجابهه وأقاتله حينما أكبر . وعلى حين فجأة ، تبلّج المستقبل بصورة ملموسة أمامي ، ملموساً بقدر ما يمكن للمستقبل أن يتبلّج أمام صبي أسود من ولاية الميسيسيبي .

كان معظم رفاق الصف يشتغلون صباحاً ، ومساء ، وأيام السبت ، فيكسبون ما يكفي لشراء ملابسهم وكتبهم ، ويحملون

دراهم في المدرسة . وكانت رؤية صبي يدلف إلى أحد مخازن البقالة في عطلة الظهر ويطوف بعينيه على الرفوف الملأى ،وينتخب ما يريد ـ وإن لم يساوِ ذلك أكثر من عشر دولار فقط ـ معجزة يقفُ لها الشعر بالنسبة إليّ . لكنني حين أعلنت لجدتي فكرتي عن العمل ، رفضت قبولها رفضاً تاماً ، وأنذرتني أني لا أستطيع العمل أيام السبت وأنا أنام تحت سقفها . واعترضت بأن أيام السبت هي الأيام الوحيدة التي يمكنني أن أكسب فيها مبلغاً محترماً ، فرنت جدتي في عينيّ باستقامة واستشهدت بالكتاب المقدس :

« أما اليوم السابع فهو سبت للرب إلهك : لا تصنع فيه عملا ، لا أنت ، ولا ابنك ، ولا ابنتك ، ولا عبدك ، ولا خادمتك ، ولا ثورك ، ولا حمارك ، ولا أي شيء من ماشيتك ، ولا نزيلك الذي داخل أبوابك ، وذلك كي يستطيع عبدك وخادمتك أن يستريحا كما تستريح أنت ... » .

وتلك كانت الكلمة الأخيرة الحاسمة . ومع أننّا كنا نحيا على تخوم سَغَبٍ عتيد ، فلم أستطع رشوة جدتي إذ وعدتُ أن أمنحها نصف أو ثلثي ما أجمع من مال . وكان جوابها : « كلا » الآن وفي كل وقت . وجعلني رفضها على درجة عظيمة من العصبية ، فلعنت نفسي لأني مضطر أن أعيش حياة

مجنونة مغايرة . وبينت لجدتي أنها ليست مسؤولة عن نفسي ، فردت أني قاصر ، وأن مصير نفسي يرتاح بين يديها ، وأنه لا يحق لي التفوّه بأية كلمة في هذا الموضوع .

وكي أحمي نفسي من الأسئلة الحادة عن بيتي وحياتي ، كي أجتنب دعوات الخروج حين أعرف أني لا أستطيع لها قبولاً ، فقد بقيت متحفظاً مع فتيان المدرسة وفتياتها ، أنشد صحبتهم لكن لا أترك لهم أن يخمنوا مبلغ بعدي عن العالم الذي يعيشون فيه ، وأقدّر صداقتهم العَرَضيّة لكن أخفيها ، وأضطرب بحدة ، لكن أغطي الاضطراب بابتسامة سريعة وجملة مهيأة . وكنت ، ظهيرة كل يوم ، أتبع الفتيان والفتيات إلى المخزن القائم في الزاوية وأقف مستنداً إلى جدار وأراقبهم يشترون السندويش ، فإذا سألوني : « لمَ لا تتناول غداءك ؟ » أردُّ وأنا أهزّ كتفي : « آه ، أنا لا أجوع عند الظهر أبداً » . وأبتلع لعابي وأنا أرى إليهم يشقون أرغفة الخبز ويدهنونها بالمربى . وأعيد وأعيد القَسَم أني في يوم من الأيام سأضع حداً لهذا الجوع الذي ينهشني ، وهذه الوحدة ، وهذا الاختلاف الأبدي ، ولا أشك أني لن أدخل حياتهم البتة ، وأني مرغم على الحياة معهم لكن ليس منهم ، وأن لي طريقي الغريبة المنفصلة ، هذه الطريق التي ستجعلهم في السنوات الأخيرة يتعجبون كيف قدرت على اجتيازها .

وقد رأيت الآن عالماً يقفز إلى الحياة أمام عينيَّ لأني أقوى على استكشافه ، وهذا يعني أني لا أعود إلى البيت حالما تنتهي المدرسة ، بل أتجوَّل ، وأراقب ، وأستفسر ، وأتحدث . ولو أني ولجت البيت لأطعم صحن خضراواتي فجدتي لن تأذن لي إذن بمغادرته من جديد ، وهكذا كان العقاب الذي أدفعه ثمناً لتجولي هو البقاء دون طعام طوال اثنتي عشرة ساعة . كنت آكل ثريد الذرة في الثامنة صباحاً ، والخضراوات في السابعة أو ما بعد السابعة ليلاً . وكان الجوع في سبيل تعلّم شيء عن البيئة المحيطة بي أمراً لا عقلانياً ، ولكني وجدت الجوع هكذا أيضاً . كنت أضرب على وجهي ، وكتبي تتدلى عن كتفي ، مع عصابة من الفتيان في الغابات ، ونقصد الأنهار ، والخلجان ، ومنطقة الأعمال ، وحتى أبواب بيوت القمار ، أو ندخل السينما حين نستطيع الانزلاق إليها دون أن ندفع ثمن التذكرة ، أو تتفرج على مباريات الكرة في الجوار ، وعلى أفران القرميد ، أو نصل مخازن الأخشاب ومعامل بذور القطن لنراقب الرجال يعملون . وكان ثمة ساعات يهدني الجوع فيها ، فأتأرجح وأنا أسير ، أو يخفق قلبي بصورة فجائية وحشية تهزّ جسدي برمته وتبهر أنفاسي . لكن سعادتي بالحرية تحملني إلى ما وراء هذا الجوع ، وتمكنني من ترويض أحاسيس جسدي بحيث يمكنني النسيان مؤقتاً .

كان في صفي صبي أسود طويل متمرّد متفوق في دروسه ، ومع ذلك فهو لا يخاف مطلقاً من تأكيد ذاته . كان يستطيع تحطيم نظام الصف في أية لحظة بتصرفاته المضحكة ، والمعلمة لاتجد طريقة توقفه بها عند حدّه . وكان أول من اكتشف جوعي الحاد ، فاقترح عليّ طريقة أربح بها قليلاً من المال . قال :

ـ أنت لا تستطيع الجلوس في المدرسة طوال النهار دون طعام .

فسألت :

ـ وماذا آكل ؟

ـ لماذا لا تفعل مثلي ؟

ـ ماذا تفعل ؟

ـ أبيع الصحف .

ـ لقد حاولت أن أجد شارعاً أبيع الصحف فيه ، لكنها مشغولة جميعاً . وأنا أحبّ بيع الصحف لأني أستطيع قراءتها عندئذ . فأنا لا أجد شيئاً أقرؤه .

فسأل ضاحكاً :

ـ أنت أيضاً ؟

فاستفسرت :

ـ ماذا تعني ؟

فشرح لي :
ــ هذا ما يدفعني إلى بيع الصحف ، فأنا أحب قراءتها ، وهذه هي الطريق الوحيدة التي أستطيع بها الحصول عليها .
فاستقصيت :
ــ وهل يعترض أهلك على مطالعاتك ؟
فقال :
ــ أجل . فأبي فظيع من هذه الناحية .
ــ أية صحف تبيع ؟
فأعلمني :
ــ إنها صحيفة تطبع في شيكاغو . وهي تأتي كل أسبوع ، ولها ملحق على شكل مجلة .
ــ أي نوع من الصحف هي ؟
ــ حسناً ، أنا لم أقرأ الصحيفة قط . فهي غير ممتازة . لكن ، يا رفيق ، يا للمجلة ! أية أقاصيص .. أنا أقرأ قصة زين جراي المتسلسلة « فرسان النبات الأرجواني » .
قلت :
ــ فرسان النبات الأرجواني !
ــ أجل .
ــ أتعتقد أني أقدر على بيع هذه الصحف ؟
ــ طبعاً . فأنا أجمع ما ينوف على الخمسين قرشاً في

الأسبوع ، ولديّ مادة أقرؤها .

وتبعته إلى البيت ، فأعطاني نسخة من الصحيفة والمجلة ملحقها . كانت الصحيفة رقيقة ، سيئة الطبع ، موجهة إلى القراء البيض البروتستانت من أهل الريف .

واستحثني :

ـ أسرع وابدأ البيع . ولأحبّ أن أتحدث إليك عن القصص .

وعدته أن أطلب كمية منها تلك الليلة . وسرتُ إلى البيت يلفني الغسق المتزايد ظلمة ، أقرأ وأرفع عيني بين وقت وآخر عن الأحرف المطبوعة كيلا أصطدم بأحد من السابلة . وكنت مستغرقاً في قراءة قصة عالم مشهور وضع تصميم غرفة سرية مصنوعة من المعدن تحت بيته الملوكي الفخم . وكان يستميل ضحاياه ، مدفوعاً بمحرك غامض مبهم ، إلى هذه الغرفة ثم يحرك مفتاحاً كهربائياً ، فيمتصّ الهواء من الغرفة المعدنية على مهلٍ وبصورة معذبة مضنية ، فتموت الضحية وقد استحالت حمراء ، فزرقاء ، فسوداء . هذا هو ما أبغي ، أقاصيص من هذا القبيل . ولم أكن قرأت شيئاً كثيراً بحيث أنمي ذوقاً خاصاً في المطالعة ، فأي شيء يثير اهتمامي كان يرضيني .

ها أنا الآن ، أخيراً ، أستطيع القراءة في البيت ، أستطيع ذلك ضمن جدرانه بموافقة جدتي . لقد سمحت لي ببيع الصحف .

أوه ، ما أسعد حظي لأن جدتي لا تعرف القراءة ! كانت ، أبـداً ، تحرق الكتب التي أحملها إلى البيت ، متهمة إياها بأنها دنيوية . لكنه لا بدّ لها أن تصبر على هذه الصحف إذا أرادت أن تفي بوعدها لي . ولم يحسب لرأي خالتي أدي أي حساب ، وهي لم تلقِ قط أي انتباه إليّ على أية حال . كنت ميتاً في نظرها . وأخبرت جدتي أني عازم على كسب بعض المال من بيع الصحف فوافقت ، حاسبة أني غدوت صبياً جدياً سليم التفكير في آخر الأمر . وطلبت الصحف في تلك الليلة ، وقعدت أنتظر في قلق عظيم .

ووصلت الصحف ، فرحت أطوف حيّ الزنوج ، أربي ببطء مجموعة من الزبائن يبتاعون الصحف مني بسبب من معرفتهم بي أكثر منهم بدافع أية رغبة في القراءة . ولما كنت أقفل إلـى البيت ليلاً ، فأنا أمضي إلى غرفتي وأغلق الباب وأستغرق في مآثر غريبة لرجال غريبين في بلدان غريبة بعيدة . وللمرة الأولى في حياتي أحسست بحياة العالم الحديث ، والمدن الرحبة ، وقد كانت تأسرني ، وكنت أحب ذلك . ورغم أنها كانت مجـرد قصص لا غير ، فقد قبلتها على أنها صحيحة لأني أردتُ أن أؤمن بها ، ولأني كنت أتلهف إلى حياة مختلفة ، إلى شيء جديد . ووسعت الأقاصيص الرخيصة معرفتي بالوجود أكثر من أي شيء آخر التقيت به حتى ذلك الحين . كانت بالنسبة إليّ ، أنا الذي

لا أعرف سوى المرآب وباب الحانة ورصيف النهر ، أشياء ثورية ، كانت بوابتي إلى العالم الفسيح الرحاب •

كنت سعيداً ، وكنت أستمرّ في بيع الصحف والمجلة الملحقة بها إلى ما لا نهاية لولا الكبرياء العرقية لأحد أصدقاء العائلة • كان رجلاً أسود طويل العود ، صموتاً ، مكتئب الطلعة ، لطيف الحديث ، يعمل بالنجارة • وذات عشية ، ناداني إلى بيته مع صحفي • وأعطاني عشر دولار ، ثم نظر إليّ بشكل غريب ، وقال :

ــ أنت تعرف ، يا ولدي ، أني أحبّ حقاً أن أراك تجمع قليلاً من المال كل أسبوع •

فقلت :

ــ شكراً لك ، يا سيدي •

ــ لكن ، خبرني ، من نصح لك ببيع هذه الصحف ؟

ــ لا أحد •

ــ من أين جئت بها ؟

ــ من شيكاغو •

ــ هل قرأتها مرة ؟

ــ طبعاً • إني أقرأ القصص في المجلة التابعة لها • لكنني لم أقرأ الصحيفة •

ولجأ إلى الصمت برهة •

ســأل :

ــ هل طلب إليك أحد الرجال البيض أن تبيع هــذه الصحف ؟

فأجبت ، مدهوشاً الآن :

ــ كلا ، يا سيدي • فيمَ تسأل ؟

ــ هل يعرف أهلك أنك تبيع هذه الصحف ؟

ــ نعم ، يا سيدي • لكن ، ما الخطأ في ذلك ؟

فاستوضح ، متجاهلاً أسئلتي :

ــ وكيف عرفت أين يجب أن تكتب طلباً لهذه الصحف ؟

ــ إن صديقاً لي يبيعها • وقد أعطاني العنوان •

ــ وهل صديقك هذا أبيض ؟

ــ كلا ، يا سيدي • إنه ملوّن • لكــن ، فيمَ تسألني هذا كله ؟

فلم يجب • كان جالساً على درجات عتبته الأمامية ، فنهض ببطء ، وقال :

ــ انتظر ههنا قليلاً ، يا ولدي • بودي إطلاعك على بعض الأشياء •

ما الخطأ الآن ، والصحف في حال حسنة ، أو هكــذا تبدو على الأقل ؟! وانتظرت ، ضجراً ، متلهفاً إلى الذهاب في جولاتي بحيث يتبقى لديّ الوقت كي أرجع إلى البيت وأضطجع

في سريري ، وأقرأ القسم التالي من قصة مرعبة شائقة . ورجع الرجل يحمل نسخة من الصحيفة مطوية بعناية . وناولنيها .

سأل ، مشيراً إلى صورة مصفرة :

ـ هل رأيت هذه ؟

ـ كلا ، يا سيدي . فأنا لا أقرأ الصحيفة . أنا أقرأ المجلة فقط .

ـ حسناً ، أنظر إليها فقط . تمعّن جيداً في الأمر . وقل لي ما رأيك .

كان إصدار الأسبوع الماضي ، وتطلعت إلى صورة رجل أسود ضخم ذي وجه زَلِقٍ ناضح عرقاً ، وشفتين غليظتين ، وأنف مسطح ، وأسنان ذهبية ، جالساً إلى منضدة لمّاعة عريضة في كرسي ثمين . كان الرجل يلبس زوجاً من الأحذية الصفراء البرّاقة ، وقدمه مستندة إلى المنضدة ، وشفتاه الغليظتان مطبقتين على سيجار أسود كبير في رأسه رماد أبيض بطول إنشٍ كامل . وكان في قبة الرجل دبوس يمثل فرساً يخطف البصر يلتمع بوضوح . وكان الرجل يلبس حمالة سراويل حمراء اللون، وقميصاً من الحرير المقلّم ، وثمة خواتم من الماس في أصابعه السود السمينة ، وسلسلة من الذهب تمنطق بطنه ، وقدم أرنب تتدلى من جيب ساعته . وكان على الأرض، إلى جانب المنضدة ،

ببصقة تعجُّ بالمخاط ، بينا جدار الغرفة حيث يجلس يحمل لوحة خُطت عليها هاتان الكلمتان :

البيت الأبيض

وتحت اللوحة صورة لأبراهام لنكولن ، وقد تشوهت ملامحه بحيث يتراءى محياه مثل وجه قاطع طريق • وانتقلت عيناي إلى أعلى الصورة فقرأت :

« إن حلم الزنجي الوحيد هو أن يصبح رئيساً للجمهورية ، وأن ينام مع النساء البيض ! أيها الأميركيون ، هل نريد هذا في أرضنا النقية ؟ تعاونوا وانقذوا الأنوثة البيضاء ! » •

وحدقت ، محاولاً أن أفهم معنى الصورة والعنوان ، متسائلا لمَ تبدو لي غريبة ومألوفة في وقت واحد •

سألني الرجل :

ـ أتدري ما معنى هذا ؟

ـ كلا ، لست أدري •

وسألني بلطف :

ـ هل سمعت عن الكو ـ كلوكس ـ كلان ؟

ـ طبعاً • لماذا ؟

ـ هل تعرف ماذا يفعل أعضاء الكو ـ كلوكس ـ كلان بالملوّنين ؟

ـ يقتلوننا • ويمنعوننا عن التصويت والحصول على أعمال

جيـــدة •

فقـــال :

ــ حسناً ، إن الصحيفة التي تبيعها تبشر بعقيدة الكو ــ كلوكس ــ كلان •

ــ أوه ، كلا !

ــ يا ولدي، أنت تحملها في يديك •

فقلت بغموض ، وقد اضطربت تماماً :

ــ أنا أقرأ المجلة ، لكنني لم أقرأ الصحيفة قط •

ــ إسمع ، يا ولدي ، إنك صبي أسود وأنت تحاول جمع عدة قروش • حسناً ، أنا لا أريد منعك عن بيع هذه الصحف ، إذا أردت أن تبيعها • لكنني قرأت هذه الصحف الآن طوال شهرين وأعرف ما تهدف إليه • فإذا ثابرت على بيعها ، فأنت تساعد البيض على قتلك •

فعارضت بسذاجة ، شاعراً بعدم الثقة بالعالــم كله الآن ، مدركاً أن الدعاية العرقية لا يمكن بكل تأكيد أن تنشــر في شيكاغو ، المدينة التي يطير الزنوج إليها بالألوف •

ــ ولكن هذه الصحف تأتي من شيكاغو •

فقال :

ــ لا أبالي مصدر هذه الصحف • أصغ إلى هذا فقط •

وقرأ لي بصوت عالٍ مقالاً طويلاً يبرهن بحمية أن شنق

الزنوج هو حلّ لمشكلة الملونين . ومع أني كنت أصغي إلى قراءته ، فما كنت أصدق ذلك . قلت :

ـ دعني أرَ هذا .

وتناولت الصحيفة منه وجلست على حافة الدرج ،وتصفحتها تحت الضوء الشاحب فقرأت موضوعات عدة وحشية ضدّ الزنوج جعلت بثوراً دهنية تنبثق على جلدي .

سألني :

ـ أتحب هذا ؟

فتنفست :

ـ كلا ، يا سيدي .

ـ هل ترى ماذا تفعل ؟

فمغمغت :

ـ ما كنت أدري .

ـ هل ستبيع هذه الصحف الآن ؟

ـ كلا ، يا سيدي . أبداً لن أفعل .

ـ أخبروني أنك ذكي في المدرسة ، وحينما قرأت هذه الصحف التي تبيع ، لم أفقه كيف أعلّل ذلك . ثم قلت لنفسي إن ذلك الصبي لا يعرف ماذا يبيع . والآن ، لقد عزم عدد كبير منا على التحدث إليك عن هذه الصحف ، لكنهم كانوا خائفين . وخطر لهم أنك صديق لواحدٍ من أعضاء الكو ـ كلوكس ـ

كلان البيض ، فإذا تحدثوا إليك في الموضوع أخبرت ذلك الكوكلوكسي عنهم • أما أنا فقلت هراء ، إن ذلك الصبي لايعرف بكل بساطة ماذا يفعل •

ومددت إليه يدي بعشر الدولار ، لكنه رفض أخذه ، وقال :

ـ احتفظ بعشر الدولار ، يا ولدي • لكن ، محبة بالله ، فتش عن شيء آخر تبيعه •

ولم أحاول بيع مزيد من تلك الصحف تلك الليلة • رجعت إلى البيت أحملها تحت ذراعي ، أحس أن بعض الزنوج سيثبون فوقي من وراء دغل أو سور ويقطعون الطريق علي • كيف ، بالله ، استطعت ارتكاب مثل هذه الغلطة ؟ كان أسلوبي في الضلال بسيطاً ، لكنه لا يصدق أبداً • كنت سحرت بقراءة تلك المجموعة المتسلسلة من الأقاصيص في المجلة بحيث لم أقرأ عدداً واحداً من الصحيفة • وقررت أن أبقي كارثتي سراً ، وألا أخبر أحداً أني كنت عميلاً أبله لمنشورات الكو ـ كلوكس ـ كلان ، ودفعت بالصحف في خندق ، ولما وصلت الدار عالنت جدتي ، في هدوء وبساطة ، أن الشركة لن ترسل لي صحفاً بعد الآن لأن وكلاءها صاروا عدداً عديداً في جاكسون ، وهي كذبة اعتقدت أنها تنطبق نوعاً ما على الحقيقة الواقعة • ولم تهتم الجدة مطلقاً ، إذ أن أرباحي من ذلك العمل كانت من القلة بحيث عجزت عن مساعدة العائلة في مصاريف البيت •

واكتشف والد الصبي الذي حثني على بيع تلك الصحف طبيعة تلك الدعاية فمنع ولده عن بيعها . لكنني والصبي لم تتناقش في ذلك الأمر . كنا خجلين من نفسينا . وسألني ذات يوم بتحفظ :

ـ قل لي ، أما زلت تبيع تلك الصحف ؟

فأجبتُ ، وعيناي تتجنبان عينيه :

ـ أوه ، كلا ، ليس لديّ وقت .

فقال ، وهو يرخي جانبي فمه :

ـ ولا أنا . فأنا مشغول جداً .

★ ★ ★

وتهالكت على دراستي . وقرأت ، عند بدء الدورة الدراسية ، كتبي عن المعلومات المدنية ، واللغة الانكليزية ، والجغرافيا بصورة كاملة . ولم أعد أرجع إليها إلا حين أكون في الصف . وحللت جميع مسائلي الرياضية مقدماً ، ثم كنت أقرأ ، خلال ساعات الدراسة وحين لا يُطلب مني تسميع الدروس ، نسخاً مهلهلة مستعملة من مجلة البوليس السري فلين الأسبوعية ، أو مجلة أرغوزي القصصية ، أو أحلم ، خالقاً الأوهام عن بلدان لم أرها من قبل وعن أناس لم أشاهدهم قط .

وانتهت المدرسة . ولم يُتح لي الحصول على عمل يجعلني أستريح نهار سبت جدتي المقدس . كانت أيام الصيف الخاملة

الطويلة الحارة تثقل عليّ ، فأجلس في البيت أتأمل وأفكر ، أعالج جوعاً جسدياً وروحياً • وبعد الظهيرة ، بعدما تفقد الشمس قوتها ، ألعب بالكرة مع صبيان الجيرة • وأقعد في الليل على الدرج الأمامي أحملق بفراغ في السابلة ، والعربات ، والسيارات •••

وذات ليلة صيفية قائظة كسول ، كانت جدتي وأمي والخالة أدي جالسات على العتبة الأمامية ، يتجادلن في ناحية غامضة من الدين • وجلست متراكماً على الدرج ، ووجنتاي ترتاحان بكآبة على راحتيّ ، نصف مصغٍ إلى ما يقول الكبار ونصف ضائع في أحلام اليقظة • وعلى غير انتظار ، استحضر الجدل فكرة إلى ذهني ، فنسيت أن لا حقّ لي بالكلام دون أذن ، فقفزت وأدليت بدلوي في الحديث • ولا ريب أني نطقت كفراً فظيعاً لأن جدتي قالت « : إخرس ، أنت ! » ، وانحنت إلى الأمام بحزم لتعاقبني بصفعة من صفعات قفا يدها المعتادة على فمي • لكنني كنت قد تعلمت كيف أروغ من الضربات ، فنحيت رأسي برشاقة • فأخطأتني • وكانت قوة ضربتها عظيمة بحيث سقطت عن الدرج ، ورأسها إلى الأمام ، فاندسّ جسدها العجوز في بقعة ضيقة بين السور والدرجة السفلى • وثبتُ هارباً ، فصاحت الخالة أدي وأمي واندفعتا هابطتين الدرج ، وحاولتا سحب جسد جدتي • لكنهما عجزتا عن تحريكها •

ونودي على جدي فتوجَّب عليه تهديم السور لإنقاذ زوجه • كانت في شبه إغماء ، فمددوها في سريرها واستدعوا طبيباً •

واعتصرني الخوف • ركضت إلى غرفتي ورتجت الباب ، خائفاً من أن يمزقني جدي إرباً متناثرة • هل كنت مصيباً أم ارتكبت باطلاً ؟ لو ظللت ثابتاً في مكاني وتركت الجدة تصفعني لما وقعتْ • لكن ، أليس من الطبيعي أن أتجنب ضربة موجهة إليّ ؟ وانتظرت راعش الأوصال • لكن أحداً لم يأتِ إلى غرفتي • كان البيت ساكناً • هل ماتت جدتي ؟ وفتحت الباب بعد ساعات وزحفتُ هابطاً • قلت في نفسي : حسناً ، إذا ماتت جدتي فسأغادر البيت • ليس ثمة شيء آخر أفعله • ولقيتني الخالة أدي في الممشى بعينين سوداوين محترقتين • قالت :

ـ أنت ترى ماذا فعلت بالجدة •

قلت :

ـ أنا لم أمسَّها •

أردتُ أن أسأل عن حالها ، فأنساني خوفي ذلك •

قالت الخالة أدي :

ـ لقد حاولت قتلها •

ـ أنا لم أمسها ، وأنت تعرفين ذلك •

ـ أنت شرير • لا يصدر عنك غير المتاعب !

ـ كنت أحاول الافلات منها • وكانت تريد أن تضربني •

فأنا لم أفعل أمراً إداً ...
وتحركت شفتاها بصمتٍ وهي تبحث عن كلمات تضعني فيها موضع المذنب .
استعلمت ، وقد وجدت سلاحها أخيراً :
ــ لمَ تتدخل حينما يتكلم الكبار ؟
فجمجمت باكتئاب :
ــ كنت أريد فقط أن أتكلم . أنا أجلس في هذا البيت طوال ساعات ولا أستطيع حتى الكلام .
فنصحت لي :
ــ احتفظ بفمك مغلقاً حتى يكلموك .
فقلت بأقصى ما استطعت من لطف :
ــ لكن يجب ألا تظل الجدة تضربني هكذا .
فانفجرت ، وقد وجدت أساساً لاتهامها :
ــ يا صبي ، لا تقف ههنا وتقول بما « يجب » على جدتك أن تفعــل .
وتابعت :
ــ إذا لم تحتفظ بفمك مغلقاً فلسوف أضربك « أنا » .
ــ أنا أحاول فقط أن أفسّر السبب في سقوط الجدة .
ــ إخرس الآن ! وإلا دققت عنقك ، أيها الأحمق !
فقلت مجيباً ، لكن بغضب :

ـ وأنت حمقاء أخرى !

فارتجفت حنقاً . وصرخت ، وهي تندفع صوبي :

ـ سوف أنهي أمرك هذه الليلة !

فأفلت منهـا ، وركضت إلى المطهى وتسلّحت بسكـين الخبز الطويلة . وتأثرتني ، فتصديت لها . كنت على درجـة عظيمة من الهستيريا بحيث كنت أبكي .

قلت لاهثاً :

ـ إن لمستيني طعنتك ، فساعديني إذن . سوف أغـادر هذا البيت حالما أتمكن من العمل لتأمين حياتي ، لكن يفضل ألا تلمسيني طالما أنا هنا .

ووقفنا نتراشق النظر ، وجسدانا يرتجفان حقداً .

ونذرت على نفسها في صوت خفيض جدي :

ـ سوف أنالك من أجل هذا .. سأنالك حينما لا تكون مسلحاً بأي سكين .

فأخبرتها :

ـ سأحتفظ دائماً بسكين استعداداً لك .

فهمهمت غضبى :

ـ لا بدّ لك من النوم ليلاً . وسأنالك وقتذاك .

فعالنتها :

ـ إذا لمستني خلال نومي ، فسأقتلك .

خرجت من المطهى ، رافسة الباب بقدمها • وقد كان من عادة الخالة أدي أن ترفس الأبواب ، فهي تقف دائماً أمام باب شبه مفتوح فترفسه كي ينفتح • فإذا تأرجح الباب وعاد إلى وضعه السابق ، فهي تفتحه بقدمها من جديد ! وإذا كان الباب مغلقاً ، فهي تفتحه بيدها قليلاً ، ثم تجهز عليه بقدمها فتفتحه جيداً • كانت تتصرّف فكأنها تريد اختلاس نظرة إلى الغرفة قبل أن تدخلها ، ربما لتتأكد إن كانت لا تضمّ شيئاً مخيفاً أو دنساً بين جدرانها • وظللتُ طوال شهر بعد ذلك أصطحب سكين المطبخ إلى فراشي ليلاً ، فأخفيها تحت وسادتي بحيث أتمكن من حماية نفسي إذا ما هاجمتني الخالة أدي • ولكنها لم تأتِ قط ، ربما لأنها كانت تصلي • ولزمت الجدة السرير ستة أسابيع • لقد التوى ظهرها حينما أخطأتني صفعتها •

كان بيتنا المتدين بصورة عميقة مسرحاً لنزاعات عنيفة أكثر عدداً مما يقع في بيت أي قاطع طريق ، أو لص ، أو عاهرة ، وهي حقيقة اعتدت أن أنوّه بها بلطف في حضرة جدتي ، كما أنها كانت تسيء إلى قضيتي دائماً ••• كانت الجدة تحمل لواء الله ، لكنها كانت تقاتل بصورة دائمة • ولم يكن السلام الناشىء عن التفاهم ليقطن معنا على الاطلاق • وكنت أقاتل بدوري • إلا أني كنت أقاتل لأني أحسّ أنه لا بدّ لي أن أتجنّب السقوط تحت الأقدام ، ولكي أدرأ عن نفسي أخطار هجوم متصل • بيد

أن الجدة والخالة أدي كانتا تتخاصمان وتتقاتـلان باستمرار بسببٍ من نقاط قليلة الأهمية ذات علاقة بالعقيدة الدينيـة ، أو بسببٍ من خرق وهمي لما اختارا أن يسمياه شريعتهمـا الأخلاقية . وأيان أجد الدين في حياتي فأنا أجد الخصـام ، ومحاولة فرد أو جماعة السيطرة على فرد آخر أو جماعة أخرى باسم الله . وكانت الرغبة المجردة في القوة تتراءى لي دائمـاً وكأنها تسير في إثر تسبيح كنائسي .

★ ★ ★

ولما تصرّم الصيف حصلت على عمل غريب . كان جارنـا الملاصق لنا ، وهو بواب مدرسة ، قد عزم على تغيير مهنتـه ليصبح عميل تأمين . وكانت أميّته تعوقه ، فعرض عليّ مهمة مصاحبته في رحلات نقوم بها إلى مزارع الدلتا لأكتب وأسجّل له بأجرٍ قدره خمسة دولارات في الأسبوع . وقمت بعدة رحلات مع الأخ مانس ، وهذا اسمه ، إلى أكواخ المزارعين ، وكنـا ننام على حصير مهترىء ، ونأكل لحم الخنزير المملّح والحمص على مائدة الفطور ، والغداء ، والعشاء . وكنت أشرب ، للمرة الأولى في حياتي ، كل ما أبغيه من حليب .

وقد نسيت كل شيء ما عدا أني ولدت في مزرعة ، وكنت أدهش من جهل الصبية الذين اجتمعت بهم . كنت أرثي لنفسي لأني لا أملك كتباً أقرؤها ، وها أنا الآن أرى صبية لم يقرأوا

قط كتاباً واحداً . وكان حياؤهم المزمن يجعلني أبدو حيالهم جريئاً حكيماً مثل أهل المدن . وكانت أم سوداء تحاول إغراء أولادها بالدخول إلى الغرفة لمصافحتي ، فيقفون جميعاً عند كتف الباب ، يسترقون النظر إليّ بعين واحدة ، وهم يهمهمون بطريقة هستيرية . وكنت أجلس ليلاً إلى طاولةوسخة ، ومصباح غاز يرتعش عند مرفقي ، أملأ طلبات التأمين ، فتقف عائلة كاملة من الذين يستغلّون الأرض بالمحاصصة ، وهي قادمة حديثاً من العمل في الحقول ، ترنو إليّ مبهوتة . ويروح الأخ مانس يجوس أرض الغرفة ، يُطري إمكانياتي فيما يتعلق بالورق والقلم . وقد ابتاعت غالبية العائلات السود السليمة الطوية استمارات التأمين منّا لأنها أحست أنها ترتبط إذن بشيء سيجعل أطفالها « يكتبون ويقرؤون مثل ذلك الصبي الرائع من جاكسون » .

كانت الرحلات قاسية . كنا نركب قطارات ، أو عربات ، وننتقل من الصباح حتى الليل ، وننطلق من كوخ إلى كوخ ، ومن مزرعة إلى مزرعة . وكنت أملأ الطلبات وقد أرهقني الاعياء . ورأيت بركة عارية كئيبة من الحياة السوداء ، وقد كرهتها . كان الناس متشابهين ، وبيوتهم متشابهة ، وحقولهم متشابهة . وكان الأخ مانس يمضي أيام الآحاد إلى أقرب كنيسة قروية ، ويتحدث عن تجارته ، يبشّر بها على شكل موعظة ، وهو يصفق بيديه أثناء الحديث ، ويبصق على الأرض مشدّداً

على المقاطع ، ويضرب الأرض بقدمه في بقعة واحدة موقّعاً جمله ، وهي أمور قد استلبت جميعاً لبّ المزارعين السود .
وكان الفلاحون يتسابقون ، بعد ذلك المشهد ، إلى الأخ مانس ، فأروح أملأ طلباتهم حتى تؤلمني أصابعي .

ورجعت إلى البيت أحمل ملء جيبي مالاً سرعان ما ذاب في جوع البيت الذي لا قرار له . كانت أمي فخوراً بي ، بل إن عداوة الخالة أدي اضمحلت الى حين . أما بالنسبة إلى جدتي ، فقد قمت بمعجزة ، بحيث تبددت بعض صفاتي الخاطئة وتبخرت ، فهي تدرك أن النجاح يشكل ثواب الصلاح ، وأن الخيبة هي أجر الخطيئة . لكن الله استدعى إليه الأخ مانس ذلك الشتاء ، وبما أن شركة التأمين لا يمكن أن تقبل قاصراً كعميل لها ، فقد رجعت إلى حالتي الدنيوية ، فإذا أهل البيت المقدسون لما يبرحوا يحملون عبء صبيٍّ عاصٍ كانت الخطيئة تصرُّ على التعلق به رغم كل شيء .

وفتحت المدرسة . وبدأت الصف السابع . وكان جوعي القديم لا يزال رفيقاً لي ، فكنت أعيش على ما لم أكن آكله . ولعلّ الشمس المشرقة ، والهواء النقي ، وحساء الخضراوات ، هي الأشياء التي حفظتني على قيد الحياة . وكنت أجلس مساء في غرفتي أقرأ ، فأشمّ على غير انتظار رائحة لحم يقلى في مطبخ الجيران ، فأتساءل كيف يكون شعوري إذا طعمتُ من اللحم

بقدر ما أشتهي • ويميل ذهني إلى الوهم ، فأتصوّر نفسي ابنا في عائلةٍ مائدة طعامها تضمّ اللحم في كل وجبة ، ثم أشمئز من أحلام يقظتي العقيمة ، فأنهض وأغلق النافذة لأمنع عني رائحة اللحم المعذّبــة •

★ ★ ★

وإذ هبطت الدرج ذات صباح ودخلت غرفة الطعام لأتناول صحني من ثريد الذرة ومرق شحم الخنزير ، أحسستُ على الفور أن شيئاً هاماً قد حدث في العائلة • كان جدي ، كعادته ، غير جالس إلى الطاولة • فهو يتناول طعامه في غرفته على الدوام• وأومأت جدتي إلى مقعدي ، فجلست وأحنيتُ رأسي • ورأيت من تحت حاجبيّ وجه أمي المتوتر • وكانت عينا الخالة أدي مغلقتين ، وجبهتها مغضنة ، وشفتاها ترتجفان • ودفنت جدتي وجهها في يديها • أردت الاستفسار عما حصل ، لكنني أدركت أني لن أحصل على جواب •

وصلّت جدتي ، واستنزلت رحمــات الله على كلٍ منــا ، وسألته أن يوجهنا إذا كانت تلك مشيئته ، ثم أخبرت الله أن « زوجي المسكين العجوز يضطجع مريضاً هذا الصباح الجميل»؛ وسألت الله ، إذا كانت تلك مشيئته ، أن يمنّ عليه بالشفاء • وهكذا علمت بخبر مرض جدي الأخير • كنت أعلم ، في كثير من المناسبات ، خبر بعض الحوادث ، من وفاة ، أو ولادة ، أو

زيارة عتيدة ، أو حدث جرى للجيران ، أو في الكنيسة ، أو في بيت أحد الأقرباء ، كنت أعلم بهذه الأمور من صلوات جدتي على مائدتي الفطور أو الغداء .

كان جدي رجلاً أسود البشرة ، طويل القامة ، محني الظهر ، ذا وجه طويل ، وأسنان بيض ثلجية ، ورأس يجلّله شعر أبيض صوفي . وكان يعرّي أسنانه إذ يغضب — وتقول جدتي إنها عادة تعلّمها أثناء قتال الخنادق في الحرب الأهلية — ويهسهس ، بينا تتجمع قبضتاه حتى تنتفخ شرايينه . وكان يعرّي أسنانه بذات الطريقة أثناء ضحكه النادر أيضاً ، أما اليوم فما عادت أسنانه تتضوأ ، وقد تهدّل جسده وارتخى . وكان يملك سكين جيب حادة — وقد مُنعت من لمسها — فيجلس ساعات طويلة تحت الشمس ، يبري بالسكين شيئاً ، ويصفر بلطف ، أو ربما يهمهم بنغمة غريبة إذا ما كانت صحته حسنة .

وحاولت سؤاله مراراً عن الحرب الأهلية ، كيف قاتل ، وماذا أحسّ ، وهل شاهد لنكولن ، لكن لم يجبني قط .

وهذا كل ما كان يقول :

— أنت ، ابتعد عن طريقي ، أيها الشاب الصغير .

وعلمت من جدتي — بعد سنوات عديدة — أنه جرح في الحرب الأهلية ولم يُمنح معاشاً تقاعدياً ، وهي حقيقة يطويها في فؤاده بمرارة . ولم أسمعه أبداً يتحدث عن القوم البيض ،

وأعتقد أنه كان يكرههم كثيراً بحيث لا يستطيع الحديث عنهم • وكان جدي ، إما سُرِّح من جيش الاتحاد ، قد انطلق إلى ضابط أبيض يطلب مساعدته في ملء أوراقه • وبينا الضابط الأبيض يملأ أوراقه أخطأ في لفظ اسم جدي ، فكتبه ريتشارد فينسون عوضاً عن ريتشاد ويلسون • ولعلّ لكنة جدي الجنوبية وأميّته جعلاه يخطىء في لفظ اسمه الخاص • وقد أشيع أن الضابط الأبيض كان سويدي الأصل ، فمعرفته باللغة الانكليزية واهية جداً • وقالت شائعة أخرى إن الضابط الأبيض كان جنوبي الأصل وإنه زيّف أوراق الجدّ عن قصد • وعلى أية حال ، لم يكتشف جدي أن سبيله أُخلي تحت اسم ريتشارد فينسون حتى بعد مضيّ أعوام كاملة • وحينما التجأ إلى وزارة الحربية يطلب معاشاً تقاعدياً ، لم تكن ثمة أية آثار تدل على أنه خدم في جيش الاتحاد تحت اسم ريتشارد ويلسون •

وسألت أسئلة لا حصر لها عن معاش جدي التقاعدي ، فكانت المعلومات التي أتلقى دائماً تقول إني أصغر بعد من أن أفهم الأمر • وطوال عشرات السنين ، ظلت المراسلات الطويلة تقوم بين جدي ووزارة الحربية • وظلّ جدي يعيدمراراً وتكراراً حوادث ومحادثات (وكان يستكتب الآخرين هذه التقارير الطويلة) ويذكر أسماء رجال قتلوا منذ زمن بعيد ، ويذكر أعمارهم وأوصافهم ، ويذكر معارك خاضها ، ويسمي مدناً ،

وأنهاراً ، وجسوراً ، وطرقاً ، وبلاداً ، وقرى ً ، ويـذكر أسماء الفرق التي حارب في صفوفها وعددها ، معيناً اليوم المضبوط والساعة المضبوطة للحوادث ، ثم يرسل ذلك كله إلى وزارة الحربية في واشنطن .

واعتدت حمل البريد صباحاً ، وأيان وجدت مغلفاً عريضاً يشبه المغلّفات الرسمية فأنا أعرف أن جدي تلقى جواباً مـن وزارة الحربية ، فأسرع به راقياً الدرج . ويرفع جدي رأسـه عن الوسادة ، ويتناول الرسالة مني ، ويفتحها بنفسه ، ويحملق في الأحرف السود زمناً طويلاً ، ثـم يناولني الرسالة متردداً متخوّفاً ، ويقول :

ـ حسناً ؟

فأقرأ له الرسالة ـ أقرأ ببطء وألفظ كل كلمة بعنـاية خاصة ـ وأخبره أن طلبه للمعاش التقاعدي لم ينل الموافقة ، وأن عريضته رُفضت . ولا يطرف جدي بعينه أبداً ، ثم يسبّ بلطف بينه وبين نفسه ، ويهسّ :

ـ يا للعصاة أولاد الكلبة !

ويرتدي ثيابه ، ويحمل رسالته إلى دزينة كاملة من أصدقائه في الجوار ، فكأنه يرتاب في ما قرأت له ، ويرجوهم أن يقرأوها له . ثم يحفظها عن ظهر قلب . ويضعها أخيراً جانباً باعتناء ، ويروح يفكر من جديد ، محاولاً أن يستعيد من ماضيه بعض

الوثائق التي يمكن أن تساعده في الحصول على التقاعـد • وقد حاول يائساً ، مثل الـ « ك » في قصة كافكا « القلعة » ، أن يقنع السلطات بهويته الحقيقية حتى يوم وفاته ، وقد أخفق •

وفي أغلب الأوقات ، حينما يفرغ البيت من طعام فلا أجد منه شيئاً ، كنت أحلم بأن الحكومة بعثت برسالة يُقرأ فيهـا شيء من هذا القبيـل :

« سيدي العزيز ،

لقد أثبت حقك في تناول المعاش التقاعدي ، واتضحت قضية اسمك بشكل مقبول يبعث على الرضى • واستناداً إلى القوانين الرسمية ، فها نحن نوصي وزارة المالية أن تقرر وتحسب وترسل لك ، بأسرع وقت ، مجموع المبلغ المستحق لك عن الماضي ، مع فائدته ، طوال السنوات •••• الماضية ، هذا المبلغ الذي يساوي •••••• دولاراً •

نحن نأسف كثيراً للتأخر المديد الذي وقع في هـذه القضية • وإنه ليمكنك أن تثق أن تضحيتك هذه كانت منحة وعزاء لبلادك » •

لكنه لم ترد قط أية رسالة من هذا النوع ، فكان جـدي لا يني مكتئباً طوال الوقت حتى إني انقطعت عن التفكير فيه وفي آماله • وأيان ما سار في حضوري ، فأنا أجنح إلى الصمت ، وأترقبه حتى يبدأني بالكلام ، متسائلاً عما إذا كان سيوبخ

على أمرٍ ما . وأرتاح كثيراً حينما يذهب . لقد ماتت رغبتي في التحدث إليه شيئاً فشيئاً .

ومن أحاديث جدتي ، سنة بعد سنة ، عرفت تفاصيل حياة جدي العليلة . حينما انفجرت الحرب الأهلية هرب من سيده وشقّ طريقه عبر الخطوط الاتحادية حتى الشمال . وكان يتبجّح أنه قتل « أكثر من نصيبي العادل من أولئك العصاة الملعونين » ، وهو في طريقه للتطوّع في جيش الاتحاد . وانخرط في جيش الاتحاد ، لشدة غضبه واستيائه من الرقّ ، كي يقتل البيض الجنوبيين ، وقد خوّض حتى في الجداول المتجمّدة ، ونام في الوحل ، وقاسى ، وقاتل ...وعندما سرّح ، رجع إلى الجنوب ، وراح يحرس ، خلال الانتخابات ، صناديق الاقتراع ببندقيته الحربية بحيث يستطيع السود أن يصوتوا . لكنه وقتما طرد السود من السلطة السياسية ، انسحقت روحه تماماً . وكان على يقين من أن الحرب لم تنته حقاً ، وأنها ستشتعل من جديد .

وها نحن الآن نلوذ بالصمت بينا نتناول فطورنا ــ ما كان يدور شيء من الحديث على مائدتنا ، فالجدة تعلن أن الحديث أثناء الطعام خطيئة ، وأن الله قد يجعل الطعام يخنقنا إذن ــ وكنا نفكر في معاش جدي التقاعدي . وخلال الأيام التي تلت ذلك ، كُتبت رسائل ، وخُطّت شهادات ومزقت ، وعقدت مؤتمرات ، لكن شيئاً لم يتأت من ذلك مطلقاً . (كنت على يقين ، غير مستند

إلى أي برهان سوى خوفي العاطفي الخاص من البيض ، أن جدي قد خُدع في موضوع معاشه التقاعدي بسببٍ من معارضته للتسلط الأبيض) .

رجعت من المدرسة عصر أحد الأيام فالتقت بي الخالة أدي في الممشى . كان وجهها يرتعش وعيناها محمرتين . قالت :

ــ إصعد ودّع جدك .

ــ ماذا حدث ؟

فلم تجب . ركضت صاعداً الدرج فالتقيت بالخال كلارك ، الذي قدم من جرينوود . وأمسكت جدتي بيدي . قالت :

ــ تعال ودّع جدك .

وقادتني إلى غرفة جدي . كان مضطجعاً على السرير وقد ارتدى كامل لبوسه ، يبدو جميل المظهر كعادته أبداً . كانت عيناه مفتوحتين ، لكنه جامد الجسد بحيث لم أعرف أهو ميت أم حي .

همست جدتي :

ــ أبتاه ، إنه ريتشارد .

ونظر جدي إليّ ، وضوّأ أسنانه البيض برهة قصيرة جداً .

همستُ :

ــ وداعاً ، يا جداه !

فتكلم بصوت أجش :

ــ وداعاً ، يا ولدي . إفرح وتهلّل ، لأن الله قد اختار نفـ....ـسي ... في السـ....ـماء ..

ومات صوته . لم أفهم ما قال ، فتساءلت ما إذا كان ينبغي أن أطلب إليه إعادة ذلك . إلا أن جدتي أمسكت بيدي واقتادتني خارج الغرفة . كان البيت هادئاً . فليس ثمة بكاء مطلقاً . وجلست أمي صامتة في كرسيها الهزّاز ، تنفذ بصرها من النافذة ، وبين فترة وأخرى تخفض رأسها حتى يديها . وكانت جدتي والخالة أدي تتحركان بصمت وسكون في أرجاء البيت ، فقعدتُ أخرس ، أنتظر جدي حتى يموت . كنت ما أزال مشدوهاً بسبب ما جرّب أن ينبئني به ، فقد كان يلوح لي أن معرفة كلماته الأخيرة أمر على درجة عظيمة من الأهمية . وتبعت جدتي إلى المطهى . همستُ :

ــ جدتاه ، ماذا قال جدي ؟ أنا لم أسمعه .

فاستدارت ، ومنحتني صفعة بقفا يدها على فمي :

ــ إخرس ! إن ملاك الموت في البيت !

قلت ، وأنا أعالج شفتي المرضوضتين :

ــ أريد أن أعرف .

فتطلعت إليّ ، وقد لانت :

ــ قال إن الله اختار له مقعداً في السماء . والآن أنت تعرف . فاجلس واصمت ولا تسل أسئلة حمقاء .

ولما أفقت الصباح التالي أخبرتني أمي أن جدي « انتقل إلى بيتـــه » •

قالت جدتي :

ــ إلبس قبعتك ومعطفك •

فسألت :

ــ ماذا تريدين أن أفعل ؟

فردّت :

ــ كفّ عن أسئلتك ، وافعل ما أُمرت به •

وارتديت ثياب الخروج •

قالت الجدة :

ــ إذهب إلى توم وقل له ان بابا انتقل الى بيته • اسأله أن يجيء ويتدبر الأمور •

كان توم ، ولدها الأكبر ، قد انتقل حديثاً من هازيلهرست إلى جاكسون ، وأقام في ضاحية البلدة • وركضتُ ، أحسُّ أني أحمل رسالة هامة ، على طول الطريق البالغة ميلين• وفكرت أن أنباء الموت يجب أن تعلن على الفور • واستبان لي بيت خالي وصدري لاهث ، وعرجت على الدرج وقرعت الباب ، ففتحته ابنة خالي الصغيرة ماجي •

استفسرت :

ــ أين الخال توم ؟

ــ نائــم .
فأهرعت إلى غرفته ، ومضيت إلى سريره ، وهززته .
لهثت :
ــ أيها الخال توم ، تقول الجدة بوجوب المجيء حالاً . لقد مات جدي .
فحملق فيّ زمناً طويلاً .
أعلن في هــدوء :
ــ أنت ، في الحقيقة ، مجنون عظيم . أفلا تعرف أن هــذه ليست طريقة تصلح لإخبار المرء أن أباه قد مات ؟
فنحوته بصري ، لاهثاً محتاراً .
لهثت :
ــ لقد ركضت طيلة الطريق الى هنا . وإني مبهور النفس . أنا آسف .
ونهض ببطء ، وبدأ يرتدي ثيابه ، متجاهلاً وجودي . ولم يفه بكلمة واحدة لمدة خمس دقائق .
استوضحني :
ــ ماذا تنتظر ؟
قلت :
ــ لا شيء .
رجعت إلى البيت أسير ببطء ، أسائل نفسي ماذا أصابني ،

ولماذا يبدو أني لا أفعل الأشياء التي يتوقع النـاس مني أن أفعلها • إن كل كلمة أو حركة آتي بها تتراءى وكأنها تهيج العداوة والخصومة •• ما كنت أستطيع التحدث إلى الآخرين ، وكان ينبغي عليَّ أن أخمّن ما يريدون من إشاراتهم وحركاتهم • وأنا لم أحاول ، عن قصد ، أن أصدم الخال توم ، ورغم ذلـك فغضبه عليَّ بدا وكأنه يطغى على حزنه لفقد أبيه • وإذ لم أجد جواباً ، فقد قلت في نفسي إني أحمق إذ أقلق بسببٍ من ذلك ، وإني مهما فعلت فسأكون مخطئاً بشكل من الأشكال تبيّنـه لي عائلتي •

لم يسمح لي بالاشتراك في تشييع جدي • أُمرت بالبقاء في البيت « لحراسته » • فجلست أقرأ قصصاً بوليسية حتى قفلت العائلة من المقبرة • لم يتوجهوا إليَّ بحرف ، وأنا لم أتوجه إليهم بسؤال • وظلت الرتابة اليومية تتدفق كالمعتاد ، فليس ثمة سوى النوم ، والثريد ، والخضراوات ، والمدرسة ، والدراسة ، والوحدة ، واللهفة ، ومن ثم النوم من جديد •

★ ★ ★

أمست ثيابي مهلهلة حتى صرت أخجل من الذهاب إلـى المدرسة • إن كثرةً من الصبيان في صفي يرتدون ثياباً ــ سراويل طويلة ــ جديدة لم يلبسوها من قبل • وشعرتُ بالمرارة حتى قررت أن أصرّح بذلك لجدتي • سأقول لها إني سأغادر الدار

إذا لم تسمح لي بالعمل أيام السبت . لكنني لما فتحت الموضوع لم تعرني سمعها . ورحتُ أتبعها في أرجاء الدار ، أطلب حقّ العمل أيام السبت . وكان جوابها كلا وكلا ثم كلا .

أعلنت :

ـ سأترك المدرسة إذن .

ـ أتركها ، وانظر كم سأهتم بذلك .

ـ سأرحل بعيداً عن هذا المكان ، ولن تسمعي عني بعد ذلك أبداً .

فنبرت ، معنّفة :

ـ كلا ، لن تفعل .

فسألتها ، وأنا أبدل خطتي :

ـ وكيف يمكن أن أحصّل ما يكفي من العلم لأحصل على عمل ؟

أريتها جوربي الممزق ، وسروالي المرقع :

ـ أنظري ، لن أذهب إلى المدرسة على هذه الحال ! أنا لا أطلب منك مالاً أو أي شيء آخر . إني أريد أن أعمل !

ـ لستُ أبالي أذهبت إلى المدرسة أم لم تذهب . لقد تركت الكنيسة ، وأنت تحيا على هواك .. إنك مع العالم . أنت ميت في نظري ، ميت في نظر المسيح .

ـ إن كنيستكم العجوز تلك تدمر حياتي كلها .

ـ لا تقل هذا الكلام في هذا البيت !

ـ إنه صحيح ، وأنت تعرفين ذلك !

ـ إن الله يعاقبك ، وأنت أكثر كبرياء من أن تطلب مساعدته .

ـ سأحصل على عمل بأية طريق كانت .

ـ إذن ، لن تعيش هنا وقتذاك .

فقلت ، وأنا أرتجف بقسوة :

ـ سأترك إذن .

فكررت :

ـ أنت لن تفعل .

فسألت ، وفي نيتي إطلاعها على شعوري :

ـ تحسبين أني أمزح ، أليس كذلك ؟ سأذهب هذه اللحظة !

وركضت إلى غرفتي ، وتناولت حقيبة مهشمة ، ورحت أحزم ثيابي المهلهلة . لم أك أملك قرشاً ، لكنني سأرحل . وجاءت إلى الباب .

ـ أيها الأحمق الصغير ! ضع تلك الحقيبة جانباً !

ـ سأرحل إلى حيث يمكنني أن أعمل !

واختطفت الحقيبة من يدي ، وكانت تضطرب بحيث لا تهدأ لها رعشة . قالت :

ـ حسناً ، إذا شئت الذهاب إلى الجحيم ، فاذهب . لكن الله سيعرف أنها ليست غلطتي . سوف يصفح عني ، غير أنه لن يصفح عنك .

وفصلت عن الباب ، باكية . لقد تغلّبت إنسانيتها على خوفها . وأفرغتُ الحقيبة ، أحسّ بالفراغ . وحقدت على تلك الانفجارات العاطفية ، تلك العواصف من الهوى ، لأنها كانت تخلّفني على الدوام متوتراً خائراً . وأنا الآن ميت حقاً في نظر جدتي وخالتي أدي ، لكن أمي ابتسمت وقتما رويت لها كيف تحديتهما ، فنهضت ، وقفزت نحوي على ساقيها المشلولتين ، وقبّلتني ...





٦

استفسرت في الصباح التالي من الطلاب عن كيفية الحصول على عمل ، فأُعطيت اسم عائلة بيضاء تريد صبياً يقوم لهـا بأعمال البيت • وهرعت بعيد الظهر ، حالما انتهت المدرسة ، إلى العنوان المعطى لي ، فتحدثت إلى امرأة بيضاء طويلة قاسيـة الملامح • أجل ، إنها في حاجة إلى صبي ، صبي شريف • دولاران في الأسبوع • يأتي في الصباحات والأمسيات ، وأيام السبت

بطولها • غسيل الصحون • تكسير الحطب • مسح الأرض • تنظيف الساحة • وسأتناول فطوري وعشائي عندها • وبينا أنا أوجه إليها أسئلتي المترددة ، كانت عيناي تنقّبان فيما حولي • أي نوع من الطعام سأحصل عليه ؟ وهل المكان وسخ بقدر ما يشير المطبخ إلى ذلك ؟

استوضحت المرأة :

ـ هل تريد العمل ؟

فقلت ، خائفاً من الوثوق بظني :

ـ أجل ، يا سيدتي •

ـ والآن ، يا صبي ، أريد أن أوجه إليك سؤالاً ، وأريدك أن تجيب بالحقيقة •

فقلت ، وأنا شعلة من انتباه :

ـ أجل ، يا سيدتي •

سألتني بصورة جدية :

ـ هل تسرق ؟

فانفجرت ضاحكاً ، ثم تمالكت نفسي •

استفسرت :

ـ أي باعث على الضحك في هذا ؟

ـ سيدتي ، إذا كنت لصاً فلن أخبر أحداً بذلك قط •

فتأرّث وجهها بالحمرة :

ــ ماذا تعني ؟

لقد ارتكبت غلطة في أول خمس دقائق في العالم الأبيض • وحنيت رأسي ، وهمهمت :

ــ كلا ، يا سيدتي • أنا لا أسرق •

فحملقت فيَّ ، محاولة اتخاذ قرارها :

ــ والآن ، أنظر ، لسنا نريد زنجياً خسيساً ههنا •

فأكدت لها :

ــ كلا ، يا سيدتي • لست خسيساً •

وعدتُ بالعودة في السادسة من صبيحة اليــوم التالي ، وسرت إلى البيت متسائلاً ما يمكن أن تكون غاية المرأة مــن سؤالها الصريح لي عما إذا كنت أسرق • ثم تذكرت أني سمعت مرة أن الناس البيض ينظرون إلى الزنوج على اعتبارهم ضربــاً من الأطفال ، وعلى ضوء ذلك وحده بدا لي أن سؤالها يحوي شيئاً من المعنى • لو كان في نيتي أن أقتلها ، فأنا لن أخبرها بما وطدت العزم عليه ، والشيء المعقول أنها كانت تدرك ذلك من دون أدنى شــك • ومع ذلك فقد طغت العــادة على عقلانيتها وجعلتها تطرح عليَّ ذلك السؤال : « يا صبي ، هل تسرق ؟ » ، والأحمق وحده كان يردُّ عليها إذن : « نعم ، يا سيدتي ، أنــا أسرق » •

ماذا يمكن أن يحدث لي حين أقيم بين القوم البيض طيلة

ساعات دون انقطاع ؟ هل سيضربونني ؟ هل سيشتمونني ؟ إذا أقدموا على ذلك فسأغادرهم في الحال . ورغم رغبتي التواقة إلى العمل ، فأنا لم أكن قد فكرت في كيف سأعامل ، الأمر الذي يتراءى لي الآن على قدر عظيم من الأهمية ، حاسماً ، يطغى على كل اعتبار آخر . سوف أكون محتشماً ، متواضعاً ، أقول نعم يا سيدي ، كلا يا سيدي ، نعم ياسيدتي ، كلاياسيدتي. لكنني سأرسم خطاً يجب ألا يتخطوه . وقلت في نفسي : أواه ، لعلي لا أفعل سوى خلق المتاعب في فكري من الآن ، وقد يحبونني ...

واحتطبت في الصباح التالي لموقد المطهى ، وحملت سطولاً من الفحم للفرن ، وغسلت العتبة الأمامية وكنست العتبة الخلفية والمطبخ ، وقدمت الطعام على المائدة ، وغسلت الصحون. كان العرق يتصبب مني . وكنست الساحة الأمامية وأسرعت إلى المخزن للتبضع . ولما رجعت قالت المرأة لي :

ــ فطورك في المطبخ .

ــ شكراً ، يا سيدتي .

وجدت صحناً من العسل الأسود الكثيف وكسرة من الخبز الأبيض على الطاولة . أفلن أحصل على أكثر من هذا ؟ لقد كان لديهم بيض ، ولحم خنزير ، وقهوة .. والتقطت الخبز وحاولت كسره : كان يابساً قاسياً . حسناً ، سأشرب العسل . ورفعت

الصحن وأدنيته من شفتي فرأيت على سطح السائل الأسـود قطعاً خضراً وبيضاً من العفن . يا للعنـة ! وقلت في نفسي : لا أستطيع تناول هذا . لم يك الطعام نظيفاً على الأقل . ودخلت المرأة المطبخ وأنا أرتدي معطفي لأغادر المنزل .

ـ أنت لم تأكل .

ـ كلا ، يا سيدتي . لست جائعاً .

فسألت في رجاء :

ـ هل ستأكل في البيت ؟

فكذبت :

ـ كل ما هنالك أني لم أك جائعاً هذا الصباح ، يا سيدتي .

فقالت بنغمة روائية :

ـ أنت لا تحب العسل والخبز !

فدافعت عن نفسي بسرعة ، وليس في نيتي أن أوحي لها بأنني أجرؤ على انتقاد ما منحتني :

ـ أوه ، بلى يا سيدتي ، إني أحبهما .

فتنهدت ، وهي تهز رأسها :

ـ لست أدري ماذا ينتابكم ، أيها الزنوج ، في هذه الأيام.

ورنت إلى العسل الأسود :

ـ لمن الخطيئة أن نرمي العسل هكذا . سأحفظه لك لهذا المساء .

فقلت بشهيـــة :

ــ أجل ، يا سيدتي •

فغطت باعتناء صحن العسل الأسود بصحن آخر ، ثـــم تحسست الخبز وأنقته في صندوق القمامة • واستدارت إليّ ، وقد أضاءت وجهها فكرة :

ــ في أي صف أنت ؟

ــ السابع ، يا سيدتي •

فسألت في دهشة :

ــ إذن ، لمَ تذهب إلى المدرسة ؟

فغمغمت ، غير واثق من نفسي :

ــ حسناً ، أودّ أن أغدو كاتباً •

لم أك أنوي إخبارها بهذا ، لكنها جعلتني أشعر أني على ضلال مطلق ، وأني تافه للغاية ، بحيث لم يكن لي بدّ من الدفاع عن نفسي • استفسرت :

ــ ماذا ؟

فجمجمت :

ــ كاتـب •

ــ لماذا ؟

فتمتمت مدافعاً :

ــ لأكتب قصصاً •

ــ لن تصير كاتباً قط • من وضع هذه الفكرة في رأسك الزنجي ، بحق الله ؟

ــ لا أحد •

فأعلنت ساخطة :

ــ ولم يخطر لي أن أحداً فعل ذلك •

وبينا أنا أدور حول بيتها ووجهتي الشارع ، عرفت أني لن أعود إليها • لقد هاجمت تلك المرأة ذاتي ، وادعت أنها تعرف مكانتي من الحياة ، وماذا أحس وماذا يجب أن أكون ، وقد استقبحت ذلك من كل جارحة في قلبي • لعلها على حق ؛ لعلي لن أصبح كاتباً أبداً ؛ لكنني لم أردها أن تقول ذلك •

لو أني ثابرت على عملي لعرفت إذن ، وبسرعة ، كيف يعامل القوم البيض الزنوج ، إلا أني كنت على درجة عظيمة من السذاجة بحيث لم يخطر في بالي البتة أن ثمة عدداً كبيراً من البيض على هذا الغرار • قلت في نفسي إن ثمة قوماً بيضاً صالحين ، قوماً يملكون مالاً ومشاعر حساسة • وأحسست أنهم ، كمجموعة ، شريرون ؛ بيد أني سأكون محظوظاً جداً إذ ألقى بعض الاستثناءات •

وخوفاً من أن تحسبني عائلتي متحذلقاً ، فقد كذبت ، وأخبرتهم أن المرأة البيضاء وجدت صبياً غيري • واسترسلت في المدرسة أستعلم عن الأعمال فأرشدوني إلى عنوان جديد • ولم

تكد المدرسة تنتهي حتى توجهت إلى البيت • أجل ، قالت المرأة إنها تريد صبياً يستطيع حلب البقرة ، وإطعام الفراخ ، وجمع الخضراوات ، والمساعدة في تقديم الفطور والغداء •

قلت :

ــ أنا لا أستطيع حلب البقرة ، يا سيدتي •

فسألت ، وقد صعب عليها التصديق :

ــ من أين أنت ؟

ــ من هنا ، جاكسون •

فقالت في استغراب :

ــ أتعني أنك ستقف هنا ، يا زنجي ، وتخبرني أنك تعيش في جاكسون ولا تعرف كيف تحلب البقرة •

فلم أقل شيئاً ، لكنني كنت أتعلم بسرعة الحقيقة ــ حقيقة زنجي ــ عن العالم الأبيض • تلك امرأة أرادت أن أخبرها إذا كنت أسرق ، وهذه امرأة ثانية الآن تدهش لأني لا أعرف كيف أحلب البقرة ، أنا ، الزنجي الذي أجرؤ على العيش في جاكسون• ليبدو أن جميعهم سواء ، لايختلفون إلا في التفاصيل • وواجهت جداراً في عقل المرأة ، جداراً لم تكن هي نفسها عارفة بوجوده •

قلت أخيراً :

ــ أنا لم أتعلم ذلك •

فنبرت ، فكأنها مسرورة أن تكون على ما يكفي من الرأفة كي ترمّم معرفة زنجي مثلومة :

ـ سأريك كيف تفعل ذلك . إنه أمر يسير .

كان المكان فسيحاً ، وكانوا يملكون بقرة ، وفراخاً،وحديقة ، وذلك كله يوحي بالطعام ، الأمر الذي أقنعني ووطّد عزمي . وأخبرتها أني قبلت العمل ، وحضرت في الغداة . كانت أعمالي بسيطة لكن كثيرة ، وحلبت البقرة تحت المراقبة ، وجمعت البيض ، وكنست ، ومن ثم ساعدت في تقديم الفطور . كانت مائدة غرفة الطعام مهيأة لخمسة أشخاص . وكان ثمة بيض ، ولحم خنزير ، وخبز محمّص ، ومربى ، وزبدة ، وحليب ، وتفاح .. وبدا لي ذلك باعثاً للأمل . وأخبرتني المرأة أن أُدخل الطعام حسبما يأمرون ، وتآلفت والمطهى بحيث أنفذ الأوامر بسرعة حينما تصدر إليّ . ثم جاءت المرأة أخيراً إلى غرفة الطعام يتبعها رجل شاب شاحب جلس إلى المائدة وأنشأ يحملق في الطعام .

كشّر قائلاً :

ـ يا للجحيم : هذا البيض للفطور كل صباح !

فقالت المرأة ، وهي تجلس بدورها :

ـ أصغِ ، يا ابن الكلبة . لست مضطراً إلى أكله .

فردّ ، وهو يتناول لحم الخنزير :

ـ يمكنك أن تجربي تهيئة شيء قذر .

شعرت أني مستغرق في حلم . أهما على هذا المنوال طيلة الوقت ؟ إذا كان الأمر هكذا حقاً فأنا لن أبقى معهما . وجاءت فتاة رشيقة واتخذت مجلسها .

قال الشـــاب :

ـ هذا صحيح ، يا كلبة . تسحبين الطعام من فمي الملعون .

فقالت الفتاة :

ـ أنت تعرف ماذا يمكن أن تعمل .

فحملقت فيهما بشدة عظيمة بحيث لم أشعر بأن الشـــاب يراقبني . صرخ :

ـ هاي ، ما الذي يدعوك إلى التحديق فيَّ هكذا وحقّ جهنم ، يا ابن العاهرة الأسود ؟ إحمل تلك البسكوتات اللعينة عن الموقد وضعها على الطاولة .

ـ أمرك ، يا سيدي .

ودخل رجلان نَصَفَان وجلسا ، ولم أعرف قط من هـــم أفراد العائلة ، وما هي قرابة بعضهم لبعض ، أو هل هم عائلة حقاً . كانوا يتسابّون بطريقة محيّرة مطواعة ، فلا يلوح أن أياً منهم يبالي بذلك . وما كانوا ينظرون إلى بعضهم وهميتراشقون بالشتائم . أما أنا فقد كنت متوتراً في كل لحظة ، أحاول التنبؤ برغباتهم كي أتجنب لعناتهم ، ولم أشك لحظة أن ذلك التوتر

الذي بدأت أحسه ذلك الصباح سينقلب يوماً إلى الشعو
المسيطر في حياتي • لعلي انتظرت طويلاً لأبدأ العمل في خدمة
القوم البيض ، لعله كان ينبغي أن أبدأ في وقت أبكر ، حينما كنت
صغيراً بعد ـ مثلما فعل أكثر الصبية السود الآخرون ـ أو
لعل التوتر قد أضحى في هذه الأثناء بالنسبة إليّ حالة مألوفة ،
يضبطه الانعكاس ويسيطر عليه • لكنه لم يقدّر لي أن يكون
ذلك نصيبي ، ولم يكن لي بدّ أن أكون على الدوام واعياً
ذلك ، أتمعّن فيه ، وأحمله في قلبي ، وأعيش معه ، وأنام إلى
جانبه ، وأقاتل معه •

كان الصباح متعباً جسدياً • لكن المجهود العصبي ،
والخوف من أن تصب أفعالي على رأسي عاصفةً من اللعنات ،
كانا أشدّ أذىً من ذلك الاعياء الجسدي • وحتى يحين موعد
انطلاقي إلى المدرسة أكون منهكاً عاطفياً حتى الدرجة القصوى •
لكنني تعلقت بعملي لأنني كنت أحصل على ما يكفي كي أسد
صراخ الجوع ، وليس من يراقبني عن كثب ويحصي عليّ
طعامي • لم أكن قد تذوقت البيض إلاّ فيما ندر ، أما الآن فأنا
أضع قطعاً من زبدة صفراء مع ثلاث أو أربع بيضات في مقلاة
حارة وألتقمها جميعاً في لقمات ضخمة بحيث لا تراني المرأة •
وكنت أختطف أقداحاً من الحليب وألوذ خلف باب مناسب
وأجرعها دفعة واحدة فكأنها جرعة من الماء ليس غير •

ومع أن الطعام الذي كنت أتناوله قد أمدَّ جسدي بالقوة ، فقد اكتسبت مشكلة أخرى ، إذ تدهورت دروسي في المدرسة • ولو أني كنت جسدياً أكثر قوة ، ولو أن ذلك التوتر الجديد لم يقوّض طاقتي المحدودة من قبل ، فقد كنت أتمكن إذن من العمل صباح مساء ، وأثابر مع ذلك على دراساتي بنجاح • بيد أن الدوار كان ينتابني في منتصف النهار ، فأشعر في الصف أن المعلمة والطلاب يبتعدون عني فأعرف أن النوم يجرني إليه ، فأمضي إلى نبع الماء في الممشى وأسيل الماء البارد على معصميّ ، ويبرد دمي ، على أمل أن أظل صاحياً يقظان •

لكن للعمل نعمته الخاصة • ففي فرصة الظهر كنت أدخل المخزن المجاور لآكل السندويش مع الصبية ، ولأطوّح بدراهمي الخاصة على الصندوق ثمناً لما أشتهي ، وأروي حوادث عن بيوتات القوم البيض التي نعمل في خدمتها • واعتدت تسليتهم بما أرويه من صور حية عن عائلة الشتائم ، وعن صمتها المتأمل ، وعن لا مبالاتها التامة • وحدثتهم عن الطعام الذي أتدبر أمري لآكله خلسة من وراء ظهر المرأة ، فعمّرتْ قلوبهم بغيرة صدوق •

إن الصبية الآن يفحصون نوعاً جديداً من الثياب التي اشتريتها • ولم يكن أي منا يدع أسبوعاً يمرُّ دون أن يبتاع شيئاً جديداً ، يدفع خمسين قرشاً مقدماً وخمسين قرشاً كل

أسبوع ، وكنا نعرف أنهم يخدعوننا ، لكننا لم نملك قط ما يـ
من مال دفعة واحدة لندفع الثمن بطريقة أخرى •

★ ★ ★

وبدأت أمي تسيل إلى شفاء سريع • وكنت سعيداً حينما أعربت عن أملها في أن يكون لنا بيتنا الخاص في يوم قريب • وشرعت أمي ، رغم غضب جدتي وتفورها ، تواظب على كنيسة لشيعة « النظاميين » تقوم إلى جوارنا ، بينا قصدتُ بدوري مدرسة الأحد ، ليس لأن أمي توسلت إليّ أن أفعل ذلك ـ وهذا ما فعلتُ ـ بل لأجتمع برفاق صفي فنتسامر سوية •

وفي كنيسة السود البروتستانتية دخلت عالماً جديداً : هؤلاء فتيات متطرفات ، سمراوات ، متعمقات في الأمور الدينية يعلمن في المدارس العلمانية ؛ وأولئك طلاب جامعيون سود يحاولون إخفاء حقيقة انحدارهم من مزارع الجنوب ؛ فتيات وفتيان سود ينبتقون بقلق من سن المراهقة ؛ ومدبرات كنائس سوداوات وصفراوات نهودهن مترجرجة ؛ وحجّاب وبوابون سود ينشدون بفخر في الجوقة ؛ ونجارون وعملاء عاطلون مقهورون يخدمون شمامسة ، وغسّالات سوداوات العيون رقيقات يصحن ويتأوهن ويرقصن أثناء إنشاد التسابيح ؛ ومطارنة سود بشوشون مكرشون ؛ وعانسات متعظمات ينظمن حفلات خيرية ليجمعن مالاً ؛ تزاحم ، وعصبية ، وثرثرة ، ودسائس ، وتنا

طبقي وضيع حقير ؛ وعرض جلي سخيف للألبسة الرخيصة ...
أحببت ذلك ولم أحبه ، وكنت أتلهّف لأن أكون بينهم ، ومع ذلك حين أصير بينهم أنظر إليهم فكأنهم يبعدون عني ملايين الأميال . لقد بقيت خارج عالمهم زمناً طويلاً جداً ، بحيث لن أتمكن قط أن أصير جزءاً حقيقياً منه .

ومع ذلك فقد كنت جائعاً إلى معاشرة الناس بحيث استسلمت لاغواء ذلك كله ، فعشت طوال عدة شهور حياة متفائل مستبشر . وبدأت رياضة روحية في الكنيسة ، فاستحثني رفاقي في المدرسة لأواظب عليها . وقبلت ، حباً بهم أكثر مني اهتماماً بالدين .. وبين الخدمات تتقدم ليلة بعد ليلة ، حاولت أمي إقناعي بالانضمام إلى الكنيسة ، لأخلّص نفسي أخيراً ، لأصير عضواً في كنيسة جماعية مسؤولة . وأخبرتهم أني لا أحسّ الحاجة إلى الدين ، ومع ذلك فقد ناشدني صبية عصابتي « المجيء إلى الله » .

سألوني :

ــ أنت تؤمن بالله ، أليس كذلك ؟

فتهرّبت من السؤال .

قالوا ، وهم يرخون جوانب أفواههم :

ــ لكن هذا يوم جديد . ونحن لا نزعق أو نئن في الكنيسة أبداً . تعال إلى الكنيسة وكن عضواً في أسرتها .

قلت :

ـ أوه ، لست أدري .

فأعلنوا بلباقة ، ينوهون بأني إذا شئت الاختلاط بهم فمن واجبي الانضمام إلى كنيستهم :

ـ نحن لا نريد أن ندفعك .

وفي الليلة الأخيرة من الرياضة الروحية ، طلب الواعظ من جميع الأعضاء في الكنيسة أن يقفوا ، فوقفت الأغلبية العظمى من الحضور . ثم سأل الواعظ أولئك الذين هم مسيحيـــون وليسوا أعضاء في أية كنيسة أن يقفوا . ولبّى الطلب جماعـة أخرى من الحضور . ولم يتبق الآن ســوى قلة من الشباب لا يتبعون كنيسة ولا يعترفون بدين ، مبعثرين برثاثة بين المقاعد. ولما انفصل الخطاة على حدة ، أخبر الواعظ الشمامسة أن ينادوا هؤلاء الذين يعيشون « في الظلمة إلى مناقشة حال نفوسهم معه » . وأسرع الشمامسة إلى وظائفهم وطلبوا إلينا أن ندخل حجرة معينة وتتحدث الى شخص « اختاره الله واصطفاه » . وأمسكوا بأيدينا وتبسموا وهم يحدثوننا . وإذ كنت محاطاً بأناس أعرفهم وأحبهم ، وعينا أمي تتطلعان في عينيَّ بتوسّل ، فقد صعب الرفض عليَّ . وتبعت الآخرين إلى الغرفة حيـث انتصب الواعظ ، وابتسم وصافحنا جميعاً .

بدأ يقول في نغمة رشيقة جذلى :

ـ والآن ، أيها الشباب . أريدكم جميعاً أن تعرفوا الله .

أنا لا أسألكم الانضمام الى الكنيسة ، لكنه من واجبي كرجل الله أن أخبركم أنكم في خطر . إن الخطر الذي تتعرضون له لعظيم . وأنتم في حاجة ماسة إلى الصلاة . ولسوف أسأل الآن كلاً منكم جميلاً شخصياً .أريدكم أن تسمحوا لأعضاء هذه الكنيسة أن يرفعوا صلاة إلى الله من أجلكم . والآن ، أثمة نفس هنا على درجة عظيمة من البرود ، والقسوة ، والفساد ، بحيث ترفض هذا الرجاء ؟ هل يمكن أن ترفضوا السماح لأفراد هذه الأسرة الفاضلة الصلاة من أجلكم ؟

وتوقف بشكل روائي ، فما أعطاه أحدنا من جواب . كانت خطط دفاعه جميعاً مألوفة لدي ، فجلست هناك يثقل علي الشعور بالحماقة ، أريد أن أثب من النافذة وأهرول إلى البيت وأنسى كل شيء عن ذلك . لكنني قعدت ثابتاً ، أطفح اشمئزازاً أكثر مني خطيئة .

واستوضح الواعظ :

ـ هل يجسر أحد الموجودين في هذه الغرفة أن يلقي الرفض في وجه الله ؟

وكان صمت .

قال ، وهو ينحو صوب غايات أوضح :

ـ والآن ، إني أسألكم جميعاً النهوض والدخول إلى الكنيسة ، والجلوس في المقاعد الأولى .

وعقّب ، وهو يرفع يديه ، وراحتاهما إلى الأعلى ، فكأنه يملك القوة على إنهاضنا بالسحر :

ـ قفوا فقط .

وشجّع أول صبي نهض واقفاً :

ـ هكذا ، أيها الفتى .

وتبعتهم ، وجلسنا كالأوز المبلول على مقعد يقوم حيال الجماعة كلها . وكان جزء مني يشتم ويلعن . وبدأ تسبيح ناعم مخفوض :

قد تكون هذه المرة الأخيرة ، لست أدري

أنشدوها ، ودندنوها ، ورتّموها ، وتأوهوها ، وأعلنوا في نغمات عذبة مخيفة أنّا إنْ لم ننضم إلى الكنيسة فقد نموت خلال نومنا في تلك الليلة عينها ، ونمضي قدماً الى الجحيم . وأحسّ أعضاء الكنيسة بالتحدي فارتفعت نغمة الأنشودة . أيمكن أن ينشدوا في مثل هذه النغمة العذبة كي يرغمونا على الانضمام إليهم ، والاستسلام الى العبرات ، والجثو على ركبنا ؟ ونهض بعض الصبية ومدوا أيديهم للواعظ . وصاح بعض النسوة ورقصن طرباً . وبدأ تسبيح جديد :

إنه نبس أخي ، بل أنا ، يا إلهي ،
الذي أقف في حاجة إلى الصلاة ...

وحاول الواعظ ، أثناء الانشاء ، حيلة أخرى . فقد رتّم

بتفجّع ، تاركاً صوته يذوب في الغناء ، وهو مع ذلك يرفـع كلماته فوق هذا الغناء :

ــ كم من أمهات هؤلاء الصبية ههنا هذه الليلة ؟

ونهضت أمي ؛ مع من نهضن ووقفن بكبرياء .

وقال الواعظ :

ــ الآن ، أيتها الأمهات الطيبات ، تعالين إلى هنا .

وتقدمت أمي ، راجية أن تكون هذه الليلة ليلة خلاصي الذي ما أكثر أن تأجل ، مترهلة ، باكية ، مبتسمة . واحتضنت الأمهات أولادهن ، هامسات ، متوسلات . وأنشد المبشر :

ــ والآن ، أيتها الأمهات الطيبات ، يارموز الأم مريم عند القبر ، اركعن وصلّين من أجل أولادكن ، أولادكن وحدهم .

وجثت الأمهات ، وقبضت أمي على يدي فأحسست عبرات ساخنة تحرق أصابعي . وحاولت كتمان اشمئزازي وكبته . لقد وقعنا ، نحن الفتيان ، في شرك الجماعية ، هذه العشيرة التي نعيش في أحضانها والتي نحن جزء منها . كانت العشيرة ، سعياً وراء أمنها الخاص ، تسألنا أن نكون جزءاً منها . كانت أمهاتنا راكعات جميعاً يصلّين من أجلنا كي نعطى شارة الخـلاص .

وانتهت التسبيحة واستغرق الواعظ في وعظة عاطفية ورمزية حتى درجة بعيدة ، محدثاً كيف ولدتنا أمهاتنا ، وكيف رعيننا منذ الطفولة ، وكيف حَنَوْنَ علينا حينما مرضنا ، وكيف أنشأننا

حتى كبرنا ، وكيف حرسننا ، وكيف عرفن دائماً أفضل مايفيدنا .
ثم دعا إلى تسبيحة أخرى ، فرنّموها . وبصوت كئيب يعلو على كلماتها قال الواعظ :

ـ والآن ، إني أسأل الأم الأولى التي تحب ولدها حقاً أن تأتي به إليّ للمعمودية !

وقلت في نفسي ، يا للعنة . لقد حدث ذلك أسرع مما كنت أتوقع . وكانت أمي ترنو إليّ بثبات . ترجّت :

ـ تعال ، يا ولدي ، ودع أمك العجوز تَقُدْكَ إلى الله . لقد حملتك إلى هذا الوجود ، فساعدني الآن على إنقاذك .

والتقطت يدي ، فتراجعت .

همست من خلال عبراتها :

ـ لقد كنت أماً طيبة قدر ما استطعت .

فقاطع الواعظ رجاءها :

ـ إن الله يسمع كل كلمة .

لم يكن في هذا العمل المستهدف إنقاذ النفوس أي أخلاق البتة ؛ فكل قرابة إنسانية تستثمر بشكل مخجل . وحقيقة الأمر أن العشيرة كانت تسألنا ما إذا كنا نقاسمها شعورها ؛ فإذا رفضنا الانضمام إلى الكنيسة ، فذلك معادل لرفضنا طلبها ، معادل لوضعنا أنفسنا في موضع أبالسة أخلاقيين . واقتادت إحدى الأمهات ولدها المرتقب المسحوق إلى الواعظ وسط

هتافات الآمين والهللوليا •

سألت أمي :

ـ أفلست تحب أمك العجوز المقعدة ، يا ريتشارد ؟

وعقبت ، خائفة من أن أحقرها أمام ذلك الحشد :

ـ لا تتركني واقفة ههنا بيدي الفارغتين •

لم يعد ذلك سؤالاً عن إيماني بالله ؛ لم يعد ذلك قضية ما إذا كنت سأسرق أو أكذب أو أقتل ؛ كان ذلك بكل بساطة قضية كبرياء عمومية تتطلب جواباً عاجلاً ، قضية مبلغ ما يربطني بالناس الآخرين من صلات مشتركة • فإذا رفضت ، فمعنى ذلك أني لا أحب أمي ، ولم يكن رجل واحد في تلك الجماعية السوداء الصغيرة المحكمة على ما يكفي من الجنون كي يضع نفسه في مثل هذا الموقف • وجرت أمي ذراعي ، فسرت معها إلى الواعظ وصافحته ، وهي حركة تعني أني مرشح للمعمودية • وكان ثمة مزيد من الأناشيد والصلوات ؛ ودام ذلك حتى ما بعد منتصف الليل • ورجعت إلى البيت أعرج مثل الخرقة البالية ، ولم أحس شيئاً سوى النصب المرهق والشعور الثقيل بالخجل والعار • ورغم ذلك ، فقد كنت مسروراً نوعاً ما لأنني انتهيت من تلك القضية ؛ ليس ثمة حواجز تقف الآن بيني وبين الجماعية •

قلت لأمي صادقاً :

ـ أماه ، لست أحس شيئاً •

فأكدت لي :

ـ لا تقلق ، لسوف تحسّ ذلك مع الزمن .

ولما اعترفت للصبية الآخرين أني لم أحسّ شيئاً ، أعلنوا لي بدورهم أنهم لم يحسوا شيئاً . قالوا :

ـ إلا أن الأمر الأساسي هو أن تكون عضواً في الكنيسة .

واقترب أحد المعمودية .. خلعتُ عليَّ أبهى حللي ، وكان العرق يتصبب مني . وكان المرشحون متجمهرون ليرهفوا آذانهم إلى موعظة يُرسم فيها طريق الخلاص من المهد حتى اللحد . ودعينا وقتذاك إلى مقدمة الكنيسة وأوقفونا في صف واحد . وغطس الواعظ ، المجلّل بالبياض ، غصن شجرة صغير في قدح كبير من الماء ورفعه فوق رأس أول المرشحين .

أعلن بصوت جهوري ، وهو يهز الغصن المندّى :

ـ أعمدك باسم الآب ، والابن ، والروح القدس .

وتساقطت قطرات على وجه الصبي .

وانتقل من صبي إلى آخر ، وهو يغطس الغصن كل مرة . وجاء دوري أخيراً ، فأحسست بالغباوة والتوتر ، وأردت أن أزعق فيه طالباً منه وقف هذه العملية ، وأردت أن أعلن له أن ذلك كله ليس سوى عبث وهراء . لكنني لم أقل شيئاً . كان الغصن المندى يهتز فوق رأسي وقطرات من الماء تبلل وجهي وفروة رأسي ، وانحدر بعضها إلى عنقي وبلّل ظهري ، فهي

أشبه بالحشرات الزاحفة • أردت أن أتلوّى ، بيد أني احتفظت بجمودي • ثم انتهى كل شيء ، فاسترحت • إن الواعظ الآونة يهز الغصن فوق رأس صبي آخر • وتنهدت • لقد تعمدت •

كانت مدرسة الأحد تضجرني حتى بعدما تقبّلت « حق العضوية الشريف » • كانت أقاصيص الكتاب المقدس تبدو بطيئة لا معنى لها حين أقابلها بالروايات المليئة برعود الدم • ولم أكُ الوحيد الذي يحسُّ ذلك ، فثمة كثرة من الفتيان يغدون للنوم في مدرسة الأحد • واعترف أشجعنا أخيراً أن الأمر كله عبارة عن احتيال وخداع ، فرجعنا القهقرى مبتعدين عن الكنيسة •

★ ★ ★

ولما شرع الصيف يقترب عانت أمي وطأة ضربة جديدة من الشلل ، فلم يكن لي بدّ من أن أراقبها تتألم من جديد ، وأن أصغي إلى أنينها ، عاجزاً عن مساعدتها • واعتدت أن أضطجع يقظان طوال الليالي أفكر في الأيام الأولى في أركنساس ، مستعيداً ذكرى حياة أمي ، متذكراً ما مرَّ بنا من أحداث ،متسائلاً لماذا خُصت وحدها لتقاسي هذه الآلام الكثيرة ، هذه الآلام التي لا معنى لها ، فأشعر برهبة ماشعرت بمثيلها في الكنيسة قط • وما كان فكري يجد جواباً لأسئلتي ، فيجتاحني شعور التمرُّد ضد الحياة كلها • لكنني لم أشعر بالتواضع والذل أبداً •

وطرأ تبدل جديد على البيت • كنا في عوز إلى المال ، فقررت جدتي والخالة أدي أننا لم نعد نستطيع بعد الآن اقتسام البيت بكامله ، فدعي الخال توم وعائلته ليعيشوا في الطابق العلـوي بأجرة اسمية • وتحولت غرفتا الطعام والجلوس إلى غرفتي نوم ، وللمرة الأولى في حياتنا تزاحمنا في مكان ضيق • وبدأنا نضرب على أعصاب بعضنا بعضاً • كان الخال توم قد درّس في قـرى الريف طوال ثلاثين عاماً ، فما كاد يصل إلى ما تحت سقفنا حتى راح يخبرني بما في حياتي من أخطاء • وتجاهلته ، فساءه ذلك كثـيراً •

وغدت قعقعة أواني المطبخ توقظني صباحاً ، فأعـرف أن الخال توم وأسرته يتناولون طعام الافطار • وأفقت ذات صباح على صوت الخال يصيح بلطف لكن بمثابرة وعناد • فتحـت عينيّ ، فرأيت البقعة المظلمة التي يرسمها وجهه تسترق النظر من تحت عارضة باب المطبخ •

ظننت أنه سألني ، لكن دون أن أتأكد تماماً :

ــ كم الساعة معك ؟

فهمهمت ناعساً :

ــ ماذا ؟

فكرر قوله :

ــ كم الساعة معك ؟

فرفعت نفسي على مرفقي ونظرت إلى ساعتي التي كلفتني دولاراً ، هذه الساعة الموضوعة على مقعد قرب السرير •
قلت :
ــ الخامسة وثماني عشرة دقيقة •
فسأل :
ــ الخامسة وثماني عشرة دقيقة ؟
ــ نعم ، يا سيدي •
فاستفسر من جديد :
ــ والآن ، أهي الساعة المضبوطة ؟
كنت متعباً ناعساً • لم أشأ التطلع في الساعة مرة ثانية ، لكنني كنت مقتنعاً ، بعد كل شيء ، أنني أعطيته الزمن المضبوط •
قلت ، وأنا أتهالك على وسادتي :
ــ تماماً • فإذا كانت مقصرة أو سبّاقة قليلاً فالفارق بسيط •
وعقب ذلك صمت قصير • وحسبت أنه ذهب •
سأل في غضب شديد :
ــ ماذا تعني ، وحق الشيطان ؟ يا صبي !
فجلست ، أحدّق إلى أخيلة الغرفة ، وأحاول رؤية تعابير وجهه •
استوضحت ، مسبوهاً :

ــ ماذا أعني ؟ أعني ما قلت !

هل أعطيته الوقت المغلوط ؟ ونظرت في ساعتي مرة أخرى •

ــ إنها الخامسة والعشرون الآن •

فرعد :

ــ كيف ، أيها النذل الغافل الأسود !

فدفعت عني غطاء السرير ، وقد استشعرت رائحة متاعب مقبلة ، وسألت :

ــ ماذا يدفعك إلى الغضب ؟

فزمجر :

ــ أنا لم أسمع عفريتاً أسود خسيساً مثلك طوال حياتي •

ووضعت قدمي على الأرض بحيث أستطيع مراقبته ، واستعلمت :

ــ عمَّ تبحث ؟ سألتني عن الوقت ، فأخبرتك •

فقال ، وهو يقلدني في صوت غضوب تهكمي :

ــ إذا كانت مقصرة أو سبَّاقة قليلاً فالفارق بسيط • لقد ضبطت المدارس طوال ثلاثين عاماً ، وحق الله لم ألتقِ صبياً يخاطبني بمثل هذا الكلام •

فاستقصيت ، مدهوشاً :

ــ ولكن ، ما الخطأ فيما قلت ؟

فصـــاح :

ـ إخرس ! وإلا رفعت قبضتي وهويت بها على حلقـك الخسيس ! كلمة أخرى تصدر عنك ، وسأتناول عصاً وألقنك درسـاً •

فاستعلمت :

ـ ماذا جرى لك ، أيها الخال توم ؟ ما الخطأ فيما قلت ؟

وكنت أسمع تنفسه يصفر في حلقه • فأدركت أنه غضبان • أقسم :

ـ سأجلدك هذا النهار جلدة كان ينبغي أن تنالها منـذ زمن بعيـد •

ونهضت على قدمي ، واختطفت ثيابي • وبدا لي الأمر كله غير حقيقي البتة • لقد جُبهت على حين بغتة بالنضال بحيث لم أستطع شدّ خيوط الحالة جميعاً في وقت واحد • ولم أحسّ أني أعطيته سبباً ليدعوني خسيساً • لقد خاطبته كما أخاطب الجميع ، والآخرون لا يغضبون من كلماتي ، فما الباعث إلى غضبه بصورة خاصة ؟ وسمعته يخرج من باب المطهى ، وعرفت أنه دلف إلى الساحة الخلفية • وارتديت ثيابي وركضت الى النافذة ، فرأيته ينتزع غصناً أخضر طويلاً عن شجرة دردار • وتوتر جسدي • لتحل عليّ اللعنة إن أنا سمحت له بضربي • إنه لم يعش فـي جواري حتى قبل أيام قليلة ، ولم يقل شيئاً قط عن تربيتي أو

عدم تربيتي • كنت أعمل ، وآكل طعامي خارجاً ، وأبتاع ثيابي الخاصة ، وأعطي جدتي بعض قروش لتساعد في شؤون البيت • وها إن خالاً جديداً غريباً الآن يرى أني قليل الأدب ، وسيعلمني أن أتصرّف مثلما رأيت الصبية السود المتخلفين يتصرفون في المزارع ، سيعلمني أن أكشر ، وأرفع رأسي ، وأهمهم معتذراً حينما يوجه الخطاب إليّ •

وترنحت إحساساتي في احتجاج • كلا ، ذلك لا يمكن أن يحدث • سوف لن يضربني • إنه يمزح فقط ، ولسوف يزول غضبه • سيتمعّن في الأمر ويتحقق أنه لا يستأهل هذا الازعاج كله • وجلست ، مرتدياً ثيابي ، على حافة السرير وانتظرت • وسمعت خطواته تقترب حتى العتبة الخلفية •• وأحسست بالخوَر يجتاحني • إلى متى سيدوم هذا ؟ إلى متى سأظل أُضرب من أجل أمور تافهة ؟ وأقلّ من تافهة ؟ إني نفور منذ الآن تجاه أقربائي بحيث أحسّ تقلصاً عصبياً في عضلاتي حينما أمرّ بهم ، وها أنا الآن سيضربني شخص لم يحب نغمة الصوت التي أتحدث بها • وركضت عبر الغرفة ، وفتحت جرار الخزانة وأخرجت حزمة شفرات الحلاقة • فتحتها ،وتناولت شفرة رقيقة من الفولاذ الأزرق في كل يدّ • وانتصبت مستعداً لاستقباله • وفتح الباب • كنت آمل بصورة يائسة ألا يكون ذلك صحيحاً ، وأن ينتهي هذا الحلم أخيراً •

ناداني في لهجة باردة :
ـ ريتشارد :
فأجبت ، محاولاً الاحتفاظ بهدوء صوتي :
ـ نعم ، يا سيدي .
ـ تعال إلى هنا .
وولجت المطهى ، وعيناي مثبتتان عليه ، ويداي تحملان الشفرتين خلف ظهري . سألته :
ـ والآن ، أيها الخال توم ، ماذا تبغي مني ؟
ـ أنت تحتاج إلى درس في كيف تعيش مع الناس .
ـ إذا كنت أحتاج إليه ، فأنت لن تلقني إياه .
فنـــذر :
ـ ستبتلع هذه الكلمات قبل أن أنتهي من أمري معك .
ـ والآن ، أصغِ ، أيها الخال توم . أنت لن تجلدني . أنت غريب بالنسبة إليَّ . وأنت لا تعيلني . وأنا لا أعيش معك .
فصاح بغضب :
ـ أغلق فمك الأحمق واخرج الى الساحة الخلفية .
لم يرَ الشفرتين في يديَّ . ومرقت من باب المطهى ، وقفزت بخفة عن العتبة فاستقبلتني الأرض . وهبط الدرجات راكضاً خلفي وتقدم وقد رفع القضيب في يده .
حذَّرته في صوت خفيض يحمل تصميمي :

ـ إني أحمل شفرة في كل يد ! فإذا لمستني ، فلسوف أطعنك ! ولعلي سأطعن نفسي أيضاً ، لكنني سأطعنك ، فساعدني يا الله !

فجمد ، يحدق الى يدي المرفوعتين في غبش الصباح المعتم . كنت أحمل شفرة حادة من الفولاذ الأزرق بقوة بين الابهام والسبابة في كل يد .

لهث :

ـ يا إلهي !

قلت له :

ـ أنا لم أقصد جرح شعورك هذا الصباح . وأصررتَ أنت على أني فعلتُ . والآن ، فلتنزل عليّ اللعنة إن تركتك تضربني من أجل شعورك المجروح .

فقال في صوت مخفوض :

ـ أنت أسوأ مجرم وقعت عيناي عليه .

فأخبرته :

ـ إذا شئت القتال فسأقاتل . وعلى هذا ستكون الحال بيننا .

فقال ، وهو يهز رأسه ويطرف بعينيه في دهشة :

ـ سوف لن تصل إلى شيء .

قلت :

ـ لست قلقاً من أجل ذلك . جلّ ما أبغيه منك أن تبقى بعيداً عني ، الآن ودائماً ...

فتكهّن :

ـ ستنتهي على المشنقة .

فأجبت :

ـ إذا حدث هذا ، فلا دخل لك في الأمر .

وحملق فيّ صامتاً . لم يصدقني على ما يظهر ، لأنه خطا خطوة في اتجاهي ليختبرني . أمرني :

ـ ضع هذه الشفرات جانباً .

فرددتُ ، والهستيريا تثب الى صوتي ، ويـداي تظهران أطراف الفولاذ وأنا أتراجع :

ـ سأطعنك ! سأطعنك !

فتوقف . إنه لم يواجه في حياته شخصاً أكثر حزماً مني في تلك اللحظة . وكان يطرف بعينيه بين حين وحين ويهزّ رأسه :

زعق فجأة :

ـ أنت ، يا أحمق !

فحذرته :

ـ سأغمسك بالدم إن ضربتني !

وثقل صدره ، وبدا جسده وكأنه ذوى وذبل . قال :

ـ سيقصف أحدهم رقبتك يوماً .

ـ ذلك لن يكون أنتِ !

ـ ستنال نصيبك يوماً !

ـ لن تكون من يُنيلني هذا النصيب !

فقال بثقل :

ـ ولقد تعمّدت منذ فترة قصيرة .

فرددتُ مجيباً :

ـ إلى الجحيم بذلك كله .

انتصبنا في ضوء الصباح الباكر ، وقد انفجر خيط من الشمس في الأفق . وراحت الديكة تتصايح . وغرّد عصفور في مكان قريب . لربما كان الجيران يسمعوننا . وبدأ وجه الخال توم ينتفض أخيراً . وتدحرجت الدموع على وجنتيه . وارتجفت شفتاه . ونبر أخيراً :

ـ يا صبي ، إني أرثي لك .

ـ يحسن أن ترثي لنفسك .

فقال ، وهو يرخي ذراعه ويترك الغصن يهوي في غبار الساحة :

ـ تظن نفسك رجلاً !

وتحركت شفتاه ، وهو يتلمّس الكلمات :

ـ لكنك ستتعلم ، وستتعلم بطريقة قاسية . أتمنى لو أكون أمثولة لك ...

عرفت أني قهرته ، وخلصت نفسي منه عقلياً وعاطفياً .
ولكنني أردت أن أتيقن . بصقت في وجهه :
ـ أنت لست أمثولة لي . ولن تستطيع أن تكون . أنت إنذار . وليست حياتك على درجة عظيمة من الحرارة بحيث تستطيع أن تخبرني ماذا أفعل .
كان يصلح الكراسي في ذلك الحين ليحصل على أود حياته ، بعد أن انسحب من مهنة التدريس . أردفت :
ـ هل تعتقد أني أريد أن أكبر فأخيط الكراسي ليجلس الناس عليها ؟
وانتفض بقسوة ، محاولاً السيطرة على نفسه . جمجم :
ـ ستأسف لأنك قلت هذه الأشياء .
وأدار جسده الطويل المحني النحيل وسار ببطء صاعداً الدرج . وجلست على العتبة زمناً طويلاً ، منتظراً أن تخمد عواطفي . ثم زحفت بحذر إلى البيت ، وتناولت قبعتي ، ومعطفي ، وكتبي ، ومضيت إلى العمل ، مضيت لأواجه نزوات القوم البيض .



٧

الصيف • أيام حادة براقة • والجوع ما يفتأ جزءاً حيوياً من وجودي • وإني لأمرّ بأقربائي في ممرات البيت الغاصّ ولا أحدثهم • وآكل في صمت إلى طاولة تتلى عليها الصلوات • وأمي تستعيد صحتها ببطء ، لكنها الآن عاجزة عن الحركة نهائياً • هل سأتمكن من دخول المدرسة في إيلول ؟ الوحدة المطالعة • تصيّد العمل • آمال غامضة عن التوجه شمالاً •

لكن ، ماذا يحلُّ بأمي إنْ أنا خلّفتها في ذلك البيت الشاذ ؟ وكيف تكون أحوالي في مدينة غريبة ؟ شك . خوف . وإن أصدقائي ليبتاعون سراويل طويلة تكلفهم سبعة عشر أو ثمانية عشر دولاراً ، مبلغ ضخم في عينيَّ ضخامة جبال الألب ! هذا كان واقعي عام ١٩٢٤ .

وجاءني أن معملاً قريباً للقرميد يبحث عن عمال ، فذهبت أستطلع الخبر اليقين . كنت ضعيفاً هشاً ، لا يبلغ وزني مائة رطل . وظهر ذلك اليوم تسللت إلى المصنع وسرت بين صفوف القرميد الندي النقي الرائحة ، وانتهيت إلى عربة ملأى بالقرميد الرطب الخارج لتوّه من الآلة التي تصنعه . وأمسكت بالعربة لأجد أنني لا أستطيع رفعها إلا بعد جهد جهيد ، إنها تزن أكثر مما أزن بأربع مرات تقريباً . آه لو كنت أقوى بنية وأكثر وزناً !

ووجهت أخيراً بضعة أسئلة فعلمت أن صبي الماء ينقص في تلك الورشة ، فهرولت إلى المكتب وتطوعت للعمل بالأجرة ، فقبلت . وكنت أسير تحت الشمس الحارقة أحمل دلواً كبيرة من التوتياء من عصابة عمّال من الرجال السود إلى أخرى بأجرٍ يساوي دولاراً يومياً . ويحمل رجل تلك الدلو إلى شفتيه ، ويجرع جرعة ، ويمسح فمه ، ويبصق ، ثم يشرب على مهلته فترة طويلة بينا عرقه يتحدَّر في الدلو . ومن ثم أسير من جديد ،

وأنا أصيح : ماء !

ويزعق أحدهم :

ـ إلى هنا ، يا صبي !

وعميقاً في مناجم الغضار الرطبة ، في الخنادق اللزجة ،وفوق المنحدرات المزحلقة ، أدبُّ مجاهداً والدلو بين يديَّ . وثابرت أترنح أحياناً من السَغَب ، وأقف لألتقط أنفاسي قبل أن أتسلق التلة . وتغرق الدراهم في نهاية الأسبوع في مصروفات البيت التي لا نهاية لها . وحصلت فيما بعد على عمل في المصنع أنال عليه دولاراً ونصف الدولار يومياً ، وهو عمل صبي الطوب . كنت أدلف بين جدران الطين وألتقط القرميد المكسَّر ، ولما تمتلىء عربتي أجرها على سقالة خشبية وأقذف بمحتوياتها في حفرة عميقة .

ولم يكن يراودني سوى خوف واحد ههنا ، ومبعثه كلب استوطن المعمل . كان ملكاً لصاحب العمل ، وكان يلازم صفوف القرميد ، عاوياً ، مزمجراً .. وقد جُرح هذا الكلب عدة مرات ، لأن العمال السود كانوا يقذفونه بالقرميد بصورة دائمة . وأيان ما وقع بصري على الحيوان ، فأنا أتناول قرميدة من عربتي وأقذفه بها . وكان يتسلل هارباً ، ليظهر من جديد ، مكشراً عن أنيابه . وقد عضّ الكلب عدداً من الزنوج وسقط بعضهم مريضاً ، فسئل المعلم أن يربط الكلب ، فرفض أن يفعل ذلك .

وكنت عصر أحد الأيام أدفع عربتي صوب الحفرة حينماغرق شيء حاد في فخذي • فاستدرت ، فإذا الكلب يتراكم غير بعيد عني ، وهو يزمجر • لقد عضني • طردت الكلب وأنزلت سروالي • كانت آثار الأسنان عميقة حمراء •

لم أُبالِ بألم العضة ، لكنني خشيت العدوى • ولما أسرعت إلى المكتب لأخبرهم أن كلب المعلم عضني ، التقيت بفتاة بيضاء شقراء طويلة •

سألتني :

ـ ماذا تريد ؟

ـ أريد رؤية المعلم ، يا سيدتي •

ـ لماذا ؟

ـ لقد عضني كلبه ، يا سيدتي ، وإني أخشى انتقال المرض إليَّ •

ـ أين عضك ؟

فكذبت ، خجلاً من أن أقول لها أين :

ـ في ساقي •

فقالت :

ـ أرنيها •

ـ كلا ، يا سيدتي • أفلا أستطيع رؤية المعلم ؟

فقالت ، وقد استدارت إلى آلتها الكاتبة :

ـ هو ليس هنا الآن •

ورجعت إلى العمل ، وأنا أتوقف بين لحظة وأخرى لأفحص آثار الأسنان • كانت تنتفخ • وتوجه صوبي أخيراً رجل أبيض يلبس بذلة بيضاء ، وقبعة من القش ، وحذاء أبيض •

استوضح صبياً أسود ، وهو يشير إليّ :

ـ أهذا هو الزنجي ؟

فردّ عليه الصبي مجيباً :

ـ نعم ، يا سيدي •

فناداني :

ـ تعال هنا ، يا زنجي •

فمضيت إليه •

ـ أخبروني أن الكلب عضك •

ـ نعم ، يا سيدي •

وأنزلت سروالي ، وتطلّع •

جمجم ، ثم ضحك :

ـ هم ـ م ـ م • إن عضة الكلب لا يمكن أن تؤذي الزنجي •

ـ لكنها تنتفخ ، وهي تؤلمني •

ـ أخبرني إذا ضايقتك • لكنني لم أرَ حتى اليوم كلباً يمكن أن يؤذي زنجياً حقاً •

واستدار وخطا مبتعداً ، فتجمع الصبيان السود ليراقبوا هيئته الطويلة تختفي بين صفوف القرميد الرطب •

ـ ابن كلبة !

ـ سينال نصيبه يوماً !

ـ إن قلوبهم متحجرة !

ـ الرجل الأبيض يستطيع فعل ما يشاء •

وصاح المعلم الأبيض :

ـ فرقوا اجتماع الصلاة هذا !

وراحت العربات تقعقع من جديد • واقترب مني صبي ، وهمس :

ـ يحسن أن ترى طبيباً •

ـ لست أملك مالاً •

ومرّ يومان ، وكان من حسن الحظ أن زال ذلك الانتفاخ والاحمرار •

وانتهى الصيف ، وأغلق معمل القرميد • وها أنا مرة أخرى عاطل عن العمل • وسمعت أنهم يطلبون صبيــة لخدمة لاعبي الجولف ، فمشيت خمسة أميال إلى حلبة لعب الجولف حيث استخدمني رجل أبيض متورد الوجه بأجرٍ قدره خمسون قرشاً لتسع حفر • لم أكن أعرف تلك اللعبة ، ففقدت ثلاث طابــات في ثلاث دقائق • كان يبدو أن عيني تعجزان عن اللحاق بالطابات

الطائرة . وطردني الرجل ، فرحت أراقب الصبية الآخرين يقومون بعملهم . ولم تمض نصف ساعة حتى كنت أحمل حقيبة جولف أخرى وأتبع الطابة . وجمعت دولاراً . وقفلت إلى الدار متضايقاً : منهكاً ، جائعاً ، كارهاً منظر حلبة الجولف .

وفتحت المدرسة ، فاتنسبت إليها دون تحضير . كانت المدرسة بعيدة عن البلدة ، فكان اجتياز تلك المسافة سيراً على القدمين يستنفذ وحده فطوري من الثريد وشحم الخنزير . وواظبت على الصفوف بدون كتب طوال شهر ، ثم حصلت على عمل في الصباح والمساء بأجر قدره ثلاثة دولارات في الأسبوع .

وكان صمتي وتحفظي يزدادان بقدر ما كانت طبيعة العالم الذي أعيش فيه تبين وتتضح . وفعلت ظلمة المستقبل فعلها في إرادتي في الدراسة . وكانت جدتي قد لمّحت مرات عديدة أن الوقت حان لأعتمد على نفسي . لكن ، ماذا تعلمت حتى الآن من أمور تساعدني في تحصيل ما يقيم حياتي ؟ لا شيء . أستطيع أن أصير بواباً مثلما كان والدي من قبلي ، لكن ماذا أيضاً ؟ وكانت معضلة الحياة كزنجي قاسية شاقة . ما الذي يجعل حقد البيض على السود بمثل هذا الرسوخ والثبات ، قد نسجت الأشياء به كما تدل سائر الظواهر ؟ وأي نوع من الحياة مستطاع تحت وطأة مثل هذا الحقد ؟ وكيف بُعث هذا الحقد إلى الوجود ؟ لم يكن شيء عن مشكلات الزنوج يدرّس في

قاعات المدارس ، وأيان أثير هذه الأسئلة مع الصبيان فهم يصمتون أو يحيلون المعضلة الى مزاح . كانوا مفوّهين فيما يتعلق بحوادث الظلم الزهيدة الفردية التي يعانون ، لكنهم لا يملكون أية رغبة في معرفة صورة شاملة للأمر كله . اذن ، فيمَ أنا قلق بشأنه على هذا الغرار ؟

أ أنا شرير حقاً مثلما يقول أخوالي وخالاتي وجدتي على الدوام ؟ ولمَ تُعتبر أسئلتي خطيئة ؟ وهل أنا محق" عندماأقاوم العقوبة ؟ كنت لا أتمكن من تصوّر الاستسلام لما يلوح ظلماً . وكانت غالبية الناس الذين صادفتهم يلوحون لي ظلماً . هل ينبغي على المرء أن يستسلم للسلطة حتى ولو كان هذا المرء يؤمن بأن السلطة على خطأٍ وضلال ؟ إذا كان الجواب نعم ، فأنا أعرف إذن أني سأكون على خطأ دائماً ، لأني ما كنت أستطيع أن أفعل ذلك . ثم كيف يستطيع المرء أن يحيا في عالم فكره وأحاسيسه لا تعني فيه شيئاً ، والسلطة والأعراف تعني كل شيء ؟ لم يك ثمة أجوبة على هذه الأسئلة مطلقاً .

★ ★ ★

وسبحت أيام الصف الثامن في دربها الجائعة ، ونما إدراكي لنفسي . كنت أجلس في الصفوف ، ضجراً ، متسائلاً ، حالماً . وتناولت عصر أحد الأيام الجافة الطويلة دفتر الانشاء وعالنت نفسي أني سأكتب قصة . كان الكسل الصِرفُ مَن قادني الى

ذلك . عمّ عسى أن تتحدث القصة ؟ واتهت الى مكيدة عن رجل وغد يطمع في بيت امرأة أرملة . وأطلقت عليها اسم « دار الجحيم الصغيرة » . كانت قصة فجة ، عاطفية ، وجدانية ، ونفسانية ، تنبع من الشعور النقي . وأنهيتها في ثلاثة أيام ثم تساءلت ماذا عساني أفعل بها .

صحيفة الزنوج المحلية ! هذا بيت القصيد ... واندفعت إلى المكتب ودفعت دفتر الانشاء الممزق تحت أنف الرجل الذي يسمي نفسه رئيس التحرير . سأل :

ـ ما هذا ؟

ـ قصة ،

ـ قصة أخبارية ؟

ـ كلا ، بل قصة خيالية .

ـ حسناً . سأقرؤها .

ودفع دفتر الانشاء في زاوية من مكتبه ونظر إليّ بفضول ، وهو يعبّ دخان غليونه . قلت :

ـ ولكني أريدك أن تقرأها الآن .

فطرف بعينه . ما كنت أملك أية فكرة عن كيف تطبع الصحف . ظننت أن المرء يحمل قصة إلى الناشر ، فيجلس في ذلك المكان وتلك اللحظة ويقرؤها ويقول نعم أو لا .

قال :

ـ سأقرؤها وأجيبك عنها غداً .

كنت خائب الرجاء . لقد استغرقت وقتاً في كتابتها ، وهذا هو يبدو لي بعيداً لا مبالياً .

أعلنت ، وأنا أمدُّ يدي :

ـ أعطني القصة .

فاستدار عني ، وتناول الدفتر وقرأ عشر صفحات أو يزيد . استوضح :

ـ أفلن تجيء غداً ؟ سأنهيها حتى ذلك الوقت .

وأذعنت صادقاً . قلت :

ـ حسناً ، سآمرّ غداً .

غادرته معتقداً أنه لن يقرأها . والآن ، إلى أين يمكنني الذهاب بها بعدما يرفضها ؟ وبعد ظهيرة اليوم التالي ، في طريقي الى عملي ، دخلت مكتب الصحيفة . سألت :

ـ أين قصتي ؟

ـ في المطبعة .

فاستعلمت :

ـ ما هذا ؟

لم أكـ أعرف معنى المطبعة . قال :

ـ إنها تُنضَّد . سوف نطبعها .

فسألت مهتاجاً :

ـ كم من المال سأتناول ؟
ـ نحن لا ندفع للمخطوطات ثمناً •
فقلت بمنطق مفحم :
ـ إلا أنكم تبيعون صحفكم بالمال •
فشرح لي :
ـ أجل ، لكننا حديثو عهد في هذه الصنعة •
ـ انتم تسألونني أن **اعطيكم** قصتي ، لكنكم لا **تعطون** صحفكم دون مقابل •
فضحك •
ـ أنظر • لقد بدأت لتوك • إن هذه القصة ستضع اسمك أمام قرائنا • والآن ، هذا شيء يحسب له حساب •
فأصررت :
ـ إذا كانت القصة جيدة بحيث تباع لقرائكم ، فيجب إذن أن تمنحوني شيئاً من المال الذي تجنونه منها •
فضحك من جديد ، فأحسست أني أسلّيه • قال :
ـ سأمنحك شيئاً أكثر قيمة من المال • سأمنحك فرصة تعلّم الكتابة •
سرني ذلك ، لكنني ظللت أعتقد أنه ينتفع مني •
ـ متى ستنشرون قصتي ؟
ـ سأجزؤها إلى ثلاث دفعات • وسيظهر الجزء الأول منها

هذا الأسبوع • إلا أن الأمر الأساسي هو التالي : هل ستحصّل لي أنباءً في أوقات فراغك ؟

ــ إني أعمل صباحاً ومساء بأجر ثلاثة دولارات أسبوعياً •

ــ أوه ، يحسن أن تحتفظ بهذا العمل إذن • لكن ، ماذا ستفعل في عطلة الصيف ؟

ــ لا شيء •

ــ إذن ، تعال لرؤيتي قبل أن تشتغل بعمل آخر • واكتب مزيداً من هذه القصص •

وبعيد عدة أيام ، جاءني رفاقي بعيــون محيّرة ، يحملون نسخاً من « السجل الجنوبي » في أيديهم • سألوني :

ــ أكتبت أنت هذه القصة حقاً ؟

ــ أجل •

ــ لماذا ؟

ــ لأني رغبت في ذلك •

ــ من أين حصلت عليها ؟

ــ لقد ابتدعتهــا •

ــ أنت لم تفعل ذلك • لقد نسختها من كتاب •

ــ لو فعلت ، لما قبل أحد أن ينشرها •

ــ لكن ، لماذا نشروها ؟

ــ حتى يتمكن الناس من قراءتها •

ـ من قال لك أن تفعل هذا ؟

ـ لا أحد •

ـ لماذا فعلتَ إذن ؟

فقلت ، مرة ثانية :

ـ لأني رغبت في ذلك •

وكانوا على يقين من أني أكذب عليهم • لم تلقَ علينا في المدرسة أية دروس في الأدب • كما أن الأدب القومي أو أدب الزنوج لم يذكرا قط في حضورنا • ولم يفهم زملائي في المدرسة ما الذي يمكن أن يدفع المرء إلى كتابة قصة • وفوق ذلك كله ، لم يفهموا لماذا أطلقت عليها « دار الجحيم الصغيرة » • كان المزاج الذي تكتب به القصة هو الأمر الأكثر غرابة بالنسبة إليهم • ونظروا إليّ بعيون جديدة ، وانتصب بيننا فراغ وظنون • وإذا كان قد راودني أي خاطر لدن كتابة القصة ، فهو اعتقادي أنها ستقربني إليهم أكثر من ذي قبل ، لكن ها هي الآن تفصلني عنهم بصورة أشد إطلاقاً من أي وقت مضى •

ولم يك تأثيرها في البيت بأقل إزعاجاً • جاءت جدتي إلى غرفتي باكراً ذات يوم واقتعدت حافة سريري • سألت :

ـ ريتشارد ، ماذا تكتب في تلك الصحف ؟

ـ قصة •

ـ عن ماذا ؟

ـ إنها قصة فقط ، يا جدتاه .

ـ لقد أخبروني أن ذلك تكرر ثلاث مرات .

ـ إنها القصة عينها ، في ثلاثة أجزاء .

فألحت :

ـ لكن ، عن ماذا ؟

فجمدت ، خائفاً من الدخول في مناقشة دينية . وقلت أخيراً :

ـ إنها قصة اخترعتها بكل بساطة .

فقالت :

ـ إذن ، إنها كذبة .

فصحت :

ـ آه ، يا للمسيح .

فقالت :

ـ يجب أن تخرج من هذا البيت إذا استخدمت اسم الله عبثاً وباطلاً .

فتوسلت :

ـ جدتاه ، أرجوك ... أنا آسف . لكن من الصعب أن أخبرك عن القصة . أنظري ، يا جدتي ، إن الجميع يعرفون أن القصة غير صحيحة ، ولكن ...

فاستفسرت :

ـ إذن ، لماذا كتبتها ؟
ـ لأن الناس قد يريدون قراءتها •
ـ هذا من عمل الشيطان •
وانطلقت خارجة •
وكانت أمي قلقة هي الأخرى • قالت :
ـ يا ولدي ، يجب أن تكون أكثر جداً • أنت تكبر الآن ، ولن تحصل على عمل إذا تركت الناس يعتقدون أنك ضعيف العقل • ولنفرض أن مفتش المدارس طلب إليك التدريس هنا في جاكسون ، ثم عرف أنك تكتب قصصاً ؟
فلم أستطع جواباً •
قلت :
ـ سأكون على ما يرام ، يا أمي •
وكان الخال توم ، رغم دهشته ، منددّاً متكبراً حتى درجة بعيدة • قال إن القصة لا موضوع لها • ومن سمع يوماً عن قصة عنوانها « دار الجحيم الصغيرة » ؟ وقالت الخالة أدي ان استعمال المرء لكلمة « جحيم » خطيئة لا تغتفر ، وإن الأمر كله يعود إلى انعدام من يقودني ويرشدني • وألقت اللوم كله على تربيتي •
وتفاقم غضبي أخيراً بحيث رفضت الحديث عن القصة مطلقاً • ولم أتلقّ كلمة تشجيع واحدة من أيٍ كان ، باستثناء رئيس

التحرير في الصحيفة الزنجية . وأشيع أن مدير المدرسة يطلب أن يعرف لماذا استعملت كلمة « جحيم » . وشعرت أني ارتكبت جريمة لا تغتفر . ولو أني أدركت إلى أي مدىً بعيد كنت أقاوم تيار البيئة التي أعيش فيها ، فقد كان الخوف يصعقني إذن بحيث أغض النظر عن محاولاتي للكتابة . بيد أن ارتكاسي كان محصوراً في موقف الناس الذين يحيطون بي ، فلم أتعمق في التفكير أو أعمّم النتائج .

ورحت أحلم بالذهاب إلى الشمال وكتابة الكتب والروايات. وقد كان الشمال يرمز عندي إلى كل ما لم أحسه أو أراه ، وهو مجرد عن أية علاقة تتصل بما هو موجود في الوقت الراهن . ومع ذلك ، فحين أتصوّر مكاناً يكون فيه كل شيء ممكناً ، فإن الرجاء كان يحيا فيّ إذن . ولكن من أين جئت بهذه الفكرة عن صنع شيء ما في المستقبل ، ومغادرة البيت ، وتحقيق عمل يعترف الآخرون به ؟ لقد قرأت ، طبعاً ، أقاصيص هوراسيو ألجير ، وأقاصيص الصحف ، وكنت أعرف سلسلة والنغفورد عن كيفية الصيرورة غنياً بسرعة من أولها إلى آخرها ، رغم أني كنت أملك ما يكفي من العقل كي لا أترجى الصيرورة ثرياً ، فهذه الامكانية بعيدة جداً حتى بالنسبة إلى خيالي الساذج . كنت أعرف أني أعيش في بلدٍ مطامح القوم السود محدودة فيه ، ومحرّمة أيضاً . ومع ذلك كنت أشعر أن من واجبي

الذهاب إلى مكان ما كي أعمل شيئاً ما يفتدي حقيقة وجودي على قيد الحياة •

كنت أبني في باطني حلماً أُعدّ نظام التعليم كله في الجنوب في سبيل كبته • وكنت أشعر بالشيء الذي أنفقت ولاية الميسيسيبي ملايين الدولارات لتضمن أني لا أشعر به قط • وكنت أعي شيئاً فشيئاً الأشياء التي وضعت قوانين جيم كراوو كي تبقيها خارج وعيي وإدراكي • وكنت أفعل تبعاً لدوافع كان الشيوخ الجنوبيون في عاصمة الأمة يسعون إلى إبقائها خارج حياة الزنوج • كنت قد شرعت أحلم الأحلام التي قالت الحكومة إنها خاطئة ، وقالت المدرسة إنها محرّمة •

ولو أني انطلقت في التعبير عن مطامحي البعيدة المدى ، فلا ريب أن امرءاً ما كان يخبرني إذن ما الذي كنت أساوم عليه • بيد أن أحداً ، فيما يبدو ، لم يكن يعلم ، وأنا أقلّ من أي شخص آخر • ولقد شعر زملائي في الصف أني أضع شيئاً خاطئاً بصورة ملتبسة ، بيد أنهم لم يعرفوا كيف يعبرون عن ذلك • وبقدر ما كانت البيئة الخارجية تزداد معنى بالنسبة إليّ ، كنت أزداد اهتماماً وتوتراً ، فكان زملائي وأساتذتي يقولون : « لمَ تسأل كل هذه الأسئلة ؟ » أو ينبرون بي : « إلزم الصمت » •

كنت في الخامسة عشرة من العمر • وكنت مقصراً ، بالنسبة

للصف الذي كنت فيه بالمدرسة ، والمعدل الوسطي للأمة بأسرها ، عن أقراني ، بيد أنني ما كنت أعلم ذلك . كان ينمو فيّ ، ويتخذ شكلاً محدداً ، شوق إلى نوع من الوعي ، إلى أسلوب في الوجود قالت طريقة الحياة من حولي إنه لا يمكن أن يكون ، ويجب ألا يكون ، وقد وضعت له عقوبة الموت . إن حياتي قد انزلقت ، في مكان ما من ظلمة الليل الجنوبي ، إلى العربة المغلوطة ، وهذه قاطرة قلبي ، دون علمٍ مني ، تنطلق فوق منحدر شديد خطر ، متجهة رأساً نحو تصادم عنيف ، غير مبالية بالأضواء الحمر المنذرة التي تطرف حوالي من كل جانب وصوب ، صادفة عن الصفارات ، والأجراس ، والصيحات التي تملأ الهواء كله .



٨

الصيف من جديد . والمشكلة القديمة في تصيُّد العمل . وأخبرت المرأة التي أشتغل عندها ، وتدعى السيدة بيبس ، أني أريد عملاً نهارياً كاملاً يدرّ عليَّ ما يكفي من المال لأبتاع ثياباً وكتباً للفصل الدراسي القادم . وتباحثت في الأمر مع زوجها ، وكان رئيس عمال في منشرة للخشب . سألني :

ــ إذن ، فأنت تريد عملاً في المنشرة ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، يا سيـــدي •

وتقدم مني ووضع يده تحت ذراعي ورفعني عن الأرض ، فكأني حزمة من الريش • قال :

ـ أنت ضعيف جداً بالنسبة إلى عملنا •

فقلت :

ـ لكن ، ربما أستطيع القيام بشيء ما هناك •

فأعلن برزانة :

ـ هذه هي المشكلة ، فالعمل ثقيل خطر •

ولجأ إلى الصمت ، فعرفت أنه يعتبر الأمر منتهياً • هكذا كانت الأمور تجري بين البيض والسود في الجنوب • فكثير من الأمور المهمة جداً لا يُصرَّح بها بطلاقة ، بل يغمز بها غمزاً ، ويُترك للمرء أن يفهمها بصورة غير مباشرة • ولم أقـل أنا ، بدوري ، شيئاً ؛ إلا أنني لم أبرح الغرفة ؛ كان وقوفي صامتاً يمثل رجائي إليه أن يعيد النظر ، وتأكيدي بأني أريد أن أجرّب بأي ثمن العملَ في المنشرة •

قال أخيراً :

ـ حسناً • تعال إلى المنشرة في الصباح • سأرى ما يمكنني أن أعمل • لكنني لا أحسب أنك ستحبّ العمل •

وكنت في المنشرة باكراً في اليوم التالي ، ورأيت رجالاً يحملون جذوع أشجار ضخمة بواسطة بكرات لرفع الأثقال •

وكان ثمة عشرون منشاراً من الفولاذ تئز وهي تقرض الخشب الأخضر في عويل مرتفع النبرة •

صاح أحدهم :

ــ انتبــه !

فرنوت حولي ، فرأيت رجلاً أسود يشير إلى ما فــوق رأسي • فرفعت عينيّ • كان ثمة جذع شجرة يتأرجح صوبي • فوثبت من طريقه • وجاء الرجل الأسود إليّ •

ــ ماذا تبغي هنا ، يا صبي ؟

ــ السيد بيبس ، رئيس العمال ، أخبرني أن أوافيه هنا • إني أفتش عن عمل •

فحملق الرجل فيّ باتنباه ، وقال :

ــ ما كنت أحاول الحصول على هذا العمل لو كنت مكانك • فإذا كنت تعرف هذه اللعبة ، فلا بأس • لكنها عمل خطر لفتىً لما يزل غضاً أخضر •

ورفع يده اليمنى التي تنقص ثلاث أصابع :

ــ أترى ؟

فأومأت برأسي ، وبرحت المكان •

أيام فارغة • أيام طويلة • أيام حارة براقة • والشمس تلفح الأرصفة حتى تصير كغطاء الفرن • وكنت أقضي الصباح أتصيّد عملاً ، وأقرأ بعد الظهر • وبينا كنت أسير ذات صباح صوب

مركز البلدة ، مررت ببيت أحد رفاق المدرسة ، واسمه ند جرينلي .
كان جالساً على العتبة ، يلوح عبوساً .
استوضحته :
ـ مرحباً ، يا ند . ما هي الأخبار ؟
فسـأل :
ـ لقد سمعت بذلك ، هه ؟
ـ سمعت عن مـاذا ؟
ـ شقيقي بوب .
ـ كلا ، ماذا حدث ؟
فانخرط ند يبكي في وداعة . وتدبر أمره حتى قال :
ـ لقد قتلوه .
فاستفسرت في همس ، مخمناً :
ـ القوم البيض ؟
فأجاب ، وهو ينشج . لقد مات بوب . كنت قد التقيت به عدة مرات ، لكنني شعرت أني أعرفه من شخصية أخيه .
ـ ماذا حدث ؟
فنشج ند :
ـ أخـ..ـذو..ه في سيا..رة .. خار..ج طريق البلـ..ـدة.. وقتلـ..ـوه ..
كنت قد سمعت أن بوب يشتغل في أحد فنادق البلدة .

ــ لماذا ؟

فردّ نـد :

ــ قالوا إنه كان يتعامل مع مومس بيضاء في الفندق هناك •

وأحسست أن عالمي ينسحق في حناياي ، وأن جسـدي يزداد ثقلاً • وقمت أنظر إلى الشارع الساكن المغمور بالشمس • لقد وقع بوب في براثن مصيدة الموت الأبيض ، هذا الوعيـد المعلق فوق كـل ذكرٍ أسود في الجنوب • وقـد تناهت إليّ أقاصيص مهموسة عن صبيان سود نشأت علاقات جنسية بينهم وبين العاهرات البيض في فنادق البلدة ، لكنني لم ألقِ أي انتباه جدّي لذلك • وهذي هي الأقاصيص تجيئني أخيراً على صورة موت رجل كنت أعرفه •

لم أبحث عن عمل ذلك النهار • رجعت إلى البيت واقتعدت عتبتي أيضاً ، ورحت أحملق أمامي • إن ما سمعت قـد بدّل منظر العالم ، وصبّ فيّ شللاً مؤقتاً أصاب الارادة والاندفاع • إن عقوبة الموت تترصدني إذا ما قمت بخطوة خاطئة ، فتساءلت ما إذا كان ثمة ما يستأهل أن يقوم المرء بأية حركة • لم تكـن هناك أية ضرورة لأن تحدث الأشياء التي تؤثر في تصرفي كزنجي مباشرة ، فأنا لا أحتاج سوى أن أسمع عنها كي أحسّ آثارها التامة في طبقات وعيي الأكثر عمقاً • والحق أن وحشية البيض التي لم أرها كانت أكثر توجيهاً لسلوكي من تلك الوحشيـة

التي أعرفها • وكانت التجربة الحالية ستظهر لي المخططات الواقعية لما كان يحدث حقاً ، لكن بقدر ما كان ذلك لا يبرح شيئاً واعياً لكنه بعيد مع ذلك ، شيئاً يمكن أن ينصب هوله ودمه عليَّ في أية لحظة ، فقد كنت أضطر أن أمنحه مخيلتي بأسرها ، الأمر الذي سدَّ ينابيع الفكر والاحساس فيَّ ، خالقاً شعوراً من البعد بيني وبين العالم الذي أعيش فيه •

وبعيد عدة أيام مررت برئيس تحرير صحيفة الزنوج المحلية ، وعرفت أنه لن يستطيع استخدامي • وعمَّرني الريب الآن في قدرتي على دخول المدرسة للفصل القادم • وراحت أيام الصيف الفارغة تجرّر أذيالها • وأيان ما التقيت برفاقي فهم يخبرونني عن الأعمال التي حصلوا عليها ، وكيف غادر بعضهم البلدة ليعمل في مصايف الشمال • لمَ لمْ يخبروني بهذه الأعمال ؟ سألتهم ذلك ، فردوا بكل بساطة أنهم لم يفكروا فيه ، وبينا أنا أسمع كلماتهم تنصب من بين شفاههم بدأ شعوري بالعزلة يخزني بقسوة • وعلى أية حال ، ما الذي يجعلهم يفكرون فيَّ بشأن الأعمال التي يجدونها فيما أنا لم ألتق بهم ، طوال سنوات ، إلا مصادفة في قاعة الدرس ؟ ولم يك لي أية صلة بهم • إن البيت الذي عشت فيه ، وفقري القائم على الثريد وشحم الخنزير ، قد فصلاني عن التفاعل الطبيعي لحيوات الصبيان السود الذين يماثلونني في العمر •

واكتشفت ، ذات عصر ، اكتشافاً في البيت صعقني . كنت أحدث ابنة خالي ماجي ، وكانت تصغرني بعدة شهور ، حينما دخل الخال توم الغرفة . وجمد ، ورمقني بعداوة صامتة ، ثم نادى ابنته . ولم ألقِ أية أهمية للأمر . ونهضت بعيد لحظات عن مقعدي ، حيث كنت أقرأ ، وكنت بسبيلي إلى هبوط الصالة لما سمعتُ الخال توم يعنف ابنته ويزجرها . والتقطت أذناي بعض جملٍ :

ــ أتريدينني أن أقصف رقبتك ؟ أفلم آمرك بالبقاء بعيدة عنه ؟ ذلك الصبي أحمق خطر ، أقول لك ! إذن ، لماذا لا تبتعدين عنه ؟ واجعلي الآخرين يتجنبونه أيضاً ! لا تسأليني شيئاً ، بل افعلي ما أقول لك ! ابتعدي عنه ، وإلا سلخت جلدك .

وكنت أسمع أجوبة ابنة خالي الناشجة . وغصّ حلقي غضباً . وأردت أن أندفع إلى الغرفة ، وأطلب تفسيراً لذلك ، لكنني ثبتُ في موقفي . إلى متى سيطول هذا الأمر ؟ ورحت أستعيد ذكرى الوقت الذي قضاه الخال توم وعائلته في بيتنا ، فملأني الاشمئزاز حين تذكرت أن أحداً من أولاده لم يختلِ بي مرة واحدة طوال ذلك الزمن . وعالنت نفسي : كن حذراً الآونة ، ولا ترَ ما ليس له وجود ... ولكنني بقدر ما وزنت ذكرياتي بعناية ، فأنا لا أستطيع أن أتذكر أية أُلفة بريئة : فلا ألعاب ، ولا تسليات ، ولا أي مودة تنشأ عادة بين صغار يعيشون في بيت واحد .

ثم تذكرت فجأة ذلك الصباح الباكر حينما جابهت الخال توم عند أشجار الغار بشفرتي • ورغم أني تراءيت في عينيه وحشاً متهوراً ، فما خطر لي لحظة أن أكون كذلك ، وها أنـا الآن تروعني نظرتهم إليَّ • إن وميضاً من البصيرة قد أماط لي اللثام عن الطبيعة الحقيقية لصلاتي بعائلتي ، وهي بصيرة بدلت مجرى حياتي الداخلي كله • وعزمت الآن عزماً صادقاً على براح البيت لكنني سأنتظر حتى أنتهي من الصف التاسع • وكانت تمر أيام كثيرة لا أكلم فيها أحداً في البيت غير أمي • كانت حياتي تتناثر إلى قطع مجزأة ، الأمر الذي كنت أعيه بحدة أليمة •• لقـــد صممت على الفرار ، إلا أنني أنتظر حادثة ، أو كلمة ، أو فعلاً ، أو مناسبة أزوّد بها دوافعي •

ورجعت إلى عملي عند السيدة بيبس واشتريت كتـب المدرسة • وبقيت ثيابي أفضل من الخرق البالية بقليل • ومـن حسن الحظ أن الدراسة في الصف التاسع ، وهي آخر سنة لي في المدرسة ، كانت بهيجة • وقد تحولت المعلمة خلال الفصـل الدراسي عن بقية التلاميذ إلى الاشراف عليَّ ، وهـو شرف ساعدني عاطفياً وجعلني آمل وأترجى نوعاً ما • وقد لـمّح لي ، أني إذا احتفظت بدرجتي ، فمن الممكن أن أدرّس في مدرســة البلــدة •

ورجع أخي في ذلك الشتاء من شيكاغو : كنت مسروراً

بلقياه ، رغم أننا كنا غريبين • ولم يمض طويل وقت حتى شعرت أن العاطفة التي غمرته العائلة بها أعظم من العاطفة التي حبتني بها في يوم من الأيام • وبدأ أخي يزداد انتقاداً لي بصراحة ، آخذاً عن أولئك الذين يحيطون به ، وكان ذلك مؤلماً • وغدت وحدتي أساسية ، فأنا أحسّ أني سجين ، الأمر الذي صيَّرني نزقاً حاد الطباع • وابتعدت عن رفاقي قليلاً قليلاً ، لأن أحاديثهم تعج الآن بالمدارس التي ينوون الانتساب إليها بعد انتهاء الفصل الدراسي • وشرعت الأيام الباردة تتجرجر بصورة آلية ، فأنا أهب من النوم باكراً إلى العمل ، أقتطع الحطب ، وأحمل الفحم ، وأمسح الأرض ، ثم إلى المدرسة والضجر •

وانتهى الفصل الدراسي • وانتخبت لألقي كلمة الوداع في ختام السنة • وأوصيت بكتابة مقال يتلى في إحدى القاعات العمومية • وذات صباح ، ناداني المدير إليه في مكتبه •

قال في بلادة لطيفة ، وهو يدفع رقعاً من الورق على مكتبه :

ــ حسناً ، يا ريتشارد رايت ، إليك خطبتك •

فسألت ، وأنا ألتقط الأوراق :

ــ أية خطبة ؟

ــ الخطبة التي ستلقيها ليلة التخرّج •

ــ لكن ، يا أستاذ ، لقد كتبتُ خطبتي •

فضحك بألفة ، متسامحاً ، وقال :

ـ أصغ ، يا صبي ، لسوف تتحدث إلى قوم بيض وملونين تلك الليلة . وماذا تستطيع أن تقول لهم وحدك ؟ ليست لك خبرة ...

فتأججت :

ـ أعرف أني غير مثقف كفاية ، يا أستاذ . لكن الناس سيجيئون ليستمعوا إلى التلاميذ ، ولن ألقي خطبة كتبتها أنت .

فمال إلى الوراء في كرسيه ، ونظر إليّ في دهشة وقال :

ـ أنت تعرف ، نحن لم نرَ صبياً مثلك في هذه المدرسة من قبل . لقد اتبعت طريقك الخاصة هنا . ولست أعرف كيف تدبرت ذلك . لكن ، اسمع ، خذ هذه الخطبة واتلها . فأنا أعرف الشيء الأفضل بالنسبة إليك . أنت لا تستطيع أن تقول أي شيء أمام أولئك القوم البيض تلك الليلة .

وتوقف ، ثم أضاف بلهجة ذات معنى :

ـ إن المفتش العام للمدارس سيكون حاضراً . وأنت تستطيع أن تؤثر فيه تأثيراً حسناً . لقد كنت مديراً طيلة سنوات أكثر من سنوات عمرك ، يا صبي . ورأيت كثرة من الفتيان والفتيات يتخرجون من هذه المدرسة ، ولم يك أحدهم متعجرفاً بحيث لا يلقي خطبة كتبتها له .

كان عليّ أن أقرر بسرعة . لقد جوبهت بقضية مبدئية .

كنت أريد أن أتخرَّج ، لكني ما كنت أريد أن ألقي خطبة لم أكتبها . قلت :

ـ يا أستاذ ، سألقي خطبتي الخاصة تلك الليلة .

فاشتد غضبه :

ـ أنت أحمق صغير لا عقل في رأسك .

ونقر على مكتبه بالقلم ، وتطلع إليَّ :

ـ ولنفرض أنك لم تتخرَّج ؟

فرددت :

ـ لكنني أنهيت امتحاناتي .

فزعق في وجهي :

ـ أنظر ، يا سيد . أنا من يقرّر الذين اجتازوا امتحاناتهم في هذه المدرسة .

وطغت عليَّ الدهشة بحيث ارتعش جسدي . لقد ظللت أداوم على هذه المدرسة طيلة سنتين ، ولم أفكر قط في طينة هذا الدير . لم يسنح لي ، بكل بساطة ، أن أتساءل عن شخصه .

قلت بصراحة :

ـ إذن ، لن أتخرَّج .

واستدرت لأخرج .

صاح فيَّ :

ـ هيْ ، أنت ، تعال إلى هنا .
فاستدرت لأواجهه . كان يبتسم لي بطريقة بعيدة متعالية .
قال :
ـ أتدري ، إني مسرور لحديثي معك . كنت أفكر جاداً بأن أجعلك تدرّس في المدرسة . أما الآن ، فلست أظنك صالحاً لذلك .
كان يجربني ، ويغويني . وتلك كانت الخطة التي يدفعون بها عقول الشبان السود إلى تأييد طريقة الحياة في الجنوب .
قلت :
ـ أنظر ، يا أستاذ . قد لا تتاح لي فرصة الذهاب إلى المدرسة مرة ثانية ، إلا أنني أحب أن أعمل الأشياء كما يجب .
ـ ماذا تعني ؟
ـ لست أملك مالاً ، ولسوف أشتغل . والآن ، إن شهادة الصف التاسع لن تساعدني كثيراً في الحياة . ولست مهتماً بها البتة . وليست هذي غلطتك . بيد أنني لن أقوم بما تطلب إليّ .
سألني :
ـ هل تحدثت إلى أحد في هذا الموضوع ؟
ـ كلا ، لماذا ؟
ـ أواثق أنت ؟

فقلت ، مدهوشاً من جديد :

ـ إنها المرة الأولى التي سمعت به ، يا أستاذ .

ـ أنت لم تحدث أي رجل أبيض في هذا الأمر ؟

ـ كلا ، يا سيدي .

ـ شئتُ أن أعرف فقط .

وعظمت دهشتي . إن الرجل خائف الآن على وظيفته !

تبسمت :

ـ يا أستاذ ، أنت لم تفهمني .

فردّ ، واثقاً :

ـ أنت أحمق صغير حاد المزاج فقط . استيقظ ، يا فتى ، وادرس العالم الذي تعيش فيه . أنت ذكي وأنا أعرف مطامحك . لقد تتبعتك أكثر مما يجب ، وأنا أعرف أهلك . والآن ...

وتبسّم ، وغمزني بعينه :

ـ والآن ، إذا سرت في الطريق القويمة ، فسأساعدك في الذهاب إلى المدرسة ، الى الجامعة .

فأخبرته :

ـ أريد أن أتعلم ، يا أستاذ . لكن ثمة أموراً لا أريد أن أعرفها .

فقال :

ـ وداعاً •

رجعت إلى البيت ، جريحاً لكن حازماً • لقد تحدثت إلى رجل « مشترى » وقد حاول أن « يشتريني » • وأحسست أني كنت أتعامل مع شيء غير نظيف • وفي تلك الليلة قدم جريكس إلى منزلنا ، وهو صبي زاملني في عدة صفوف • قال :

ـ أنظر ، يا ريتشارد ، أنت تطوّح بمستقبلك هنا في جاكسون • إذهب الى المدير ، وحدثه ، وخذ خطبته واتلها • وأنا سأقول خطبة كتبها لي • فلمَ لا تفعل أنت ؟ وما أهمية ذلك ؟ وماذا تخسر ؟

قلت :

ـ كلا !

ـ لماذا ؟

ـ لست أعرف إلا القليل ، لكن خطبتي ستعكس ما أعرف •

فقال :

ـ إذن ، ستغدو على القائمة السوداء بالنسبة لوظائف التعليم •

فسألت :

ـ ومن قال لك ، بحق الجحيم ، أني سأدرِّس ؟

ـ يا الله ، لكنك تملك إرادة •

ـ تلك ليست إرادة • أنا بكل بساطة لا أريد أن أنجز

الأمور على ذلك الغرار .

وغادرني . وجاءني الخال توم بعد يومين ، فأدركت أن المدير خاطبه بالأمر . قال :

ـ سمعت أن المدير يريدك أن تتلو خطبة رفضتها .

ـ أجل ، يا سيدي ، هذا صحيح .

ـ هل أستطيع قراءة الخطبة التي كتبتَ ؟

فقلت ، وأنا أناوله مسودة خطبتي :

ـ طبعاً .

ـ وهل أستطيع رؤية تلك التي كتبها المدير ؟

فأعطيته خطبة المدير أيضاً . ومضى إلى غرفته وقرأهما . جلست صامتاً ، منتظراً . ورجع أخيراً إليّ ، وقال :

ـ إن خطبة المدير أفضل من خطبتك .

فرددتُ :

ـ لست أشكّ في هذا . لكن ، فيم يسألونني كتابة خطبة إذا كنت لا أستطيع إلقاءها ؟

فاستوضح :

ـ هل تسمح لي بتهذيب خطبتك ؟

ـ كلا ، يا سيدي .

ـ والآن ، أنظر يا ريتشارد ، إنه مستقبلك الذي ...

فقلت :

ــ أيهــا الخال توم • لست أبالي بمناقشتك في هــذا الموضــوع !

فحملق فيَّ ، ثم خرج • كانت خطبة المدير أبسط من خطبتي وأوضح ، لكنها فارغة من كل شيء • وكانت خطبتي مضبّبة ، لكنها تقول ما أريد أن أقول • ماذا يمكنني أن أفعل ؟ إن نصف عقلي يأمرني ألا أرسب في امتحانات التخرُّج • وكنت أحقــد على بيئتي كل يوم • لسوف أحصل على عمل توَّ انتهائــي من المدرسة ، وأوفر مالاً ، وأرحل •

وظلَّ جريكس ، الذي رضي بتلاوة خطبة كتبها المدير ، يجيء إلى بيتي كل يوم ، وكنا ننطلق إلى الغابــات نمارس إلقاءها • وكنا نحدث الأشجار ، يوماً بعــد يوم ، ونحــدث الجداول ، ونبث الرعب في قلوب العصافير ، ونرغم البقر في المراعي على التطلع إلينا في خشية • وحفظت خطبتي بعمق حتى صرت أستطيع تلاوتها في نومي •

وانتشرت أنباء معارضتي للمدير في الصف ، وراح التلاميذ ينتقدونني بصراحة •

ــ ريتشارد ، أنت أحمق • أنت تطوّح بكل فرصة تتاح لك • ولو عرفوا أي نوع من الصبيان الحمقى أنت ، إذن ما جعلوك تلقي خطبة الوداع قط •

وطحنت أسناني واحتفظت بفمي مغلقاً ، لكن غضبي ظلّ

ينمو ساعة بعد ساعة • وضايقني رفاقي ، رغبةمنهم في «إنقاذي» ، حتى شارفت أخيراً على الانهيار ، فاضطر المدير إلى تحذيرهم أخيراً ليتركوني وشأني ، خوفاً من أن أذعن في النهاية وأولي الأدبــار •

كان أمامي مشكلة أخرى يجب أن أحلّها قبل إلقاء خطبتي • ذلك أني كنت الصبي الوحيد في الصف الذي يلبس سروالاً قصيراً ، وقد عزمت على مغادرة المدرسة بسروال طويل • أفلــن أشتغل ؟ أفلن أتّكل على نفسي ؟ ولما انتشرت رغبتي في الحصول على سروال طويل في البيت ، هبت عاصفة جديد فرجّته •

قالت أمي :

ـ أنت تحاول الانطلاق سريعاً •

وتلفظ الخال توم :

ـ أنت لست سوى طفل بعد •

وقالت الجدة :

ـ لقد جنّ تماماً •

فقلت لهم إني أتخذ قراراتي بنفسي من الآن وصاعداً • واستقرضت مالاً من السيدة بيبس ، مستخدمتي ، ودفعــت القسط الأول من ثمن بزة رمادية ، بشرط أن أردّ هذا الشيء الملعون بعد التخرج إذا لم أستطع دفع بقية الثمن •

كنت ، ليلة التخرّج ، عصبياً متوتراً • نهضت وواجهــت

المحتشدين ، ورحت ألقي خطابي . وحينما توقف صـوتي كان ثمة شيء من تصفيق . ولم أبالِ أحبّوها أم لم يحبوها . لقد انتهيت منها . وفي الحال ، حتى قبل أن أغادر المنصة ، حاولت أن أتخلص من ذكرى الحادثة تمامـاً . وحاول بعض رفاقي مصافحتي وأنا أشقّ دربي إلى الباب ، باحثاً عن الشارع . ودعاني أحدهم إلى حفلة ، فلم أقبل . ما كنت أريد أن أرى أياً منهم بعد الآن . وسرت إلى البيت ، قائلاً في نفسي : إلـى الجحيم بذلك كله ! وهذا أنا أواجه العالم ، عام ١٩٢٥ ، مخلّفاً ورائي سبع عشرة سنة من الحياة المحيّرة .



٩

إن حياتي الآن تتوقف على إيجاد عمل ، وكان قلقي عظيماً بحيث قبلت أول عرض قُدّم إليّ ، ألا وهو وظيفة بواب في مخزن لبيع الثياب الرخيصة للزنوج بالدين . كان هذا المخزن محتشداً دائماً بالرجال والنساء السود الذين ينتقون ثياباً وفساطين رخيصة . ويدفعون السعر الذي يطلبه الرجل الأبيض . وكان المعلم ، وابنه ، والكاتب ، يغشون الزنوج

بازدراء بيّن ، ويضربونهم ، ويدفعونهم ، ويرفسونهم • ورغم مشاهدتي لذلك مرات عديدة ، فما استطعت أن أعتاد عليه • وكنت أتساءل : كيف يمكن أن يقبلوا به ؟ وبقيت على الحياد ، محاولاً كبت إحساسي دون أن أنجح تماماً في محاولاتي ، فريسة للاثم والخوف لأني كنت أشعر أن المعلم يرتاب في استيائي مما يقع تحت نظري •

وذات صباح ، وكنت أنظف نحاس الباب الأمامي ، قدم المعلم وابنه بسيارتهما • وكان ثمة امرأة سوداء مذعورة تجلس بينهما • ونزلا من السيارة وجرّا المرأة ورفساها حتى دخلا بها المخزن • ومرّ جماعة من الناس البيض دون أن يلوح عليهم أية مبالاة بما يرون • وكان ثمة شرطي أبيض يراقبهما من زاوية الشارع ، يلوّح بعصاه الليلية ، لكنه لم يتحرك من مكانه البتة • وراقبت أنا من زاوية عينيّ ، لكنني لم أبطىء من ضربات جلد الغزال على النحاس • وبعد دقيقة أو دقيقتين سمعت زعيقاً مصرصراً يدفق من غرفة المخزن الخلفية • وتعثرت المرأة أخيراً خارجة ، نازفة دماً ، صائحة ، ويداها على بطنها ، ممزقة الثياب • وما أن بلغت الرصيف حتى صادفها الشرطي ، وقبض عليها ، معتبراً إياها سكرى ، ونادى عربة عسس ونقلها بعيداً •

ولما دخلت إلى غرفة المخزن الخلفية وجدت المعلم وابنه يغسلان أيديهما على المغسلة • وتطلعا إليّ وضحكا مرتبكين •

كانت الأرض مليئة بالدم ، مبقّعة بخصل من الشعر وقطع من الثياب • ولا ريب أن وجهي قد عكس الصدمة التي تلقّيت ، لأن المعلم صفعني على ظهري مطمئناً • قال :

ـ يا صبي ، هذا ما نفعل بالزنوج حينما لا يدفعون حساباتهم •

ونظر ولده إليّ وكشّر ، ثم قال :

ـ خذ ، إليك لفافة •

فتناولتها ، جاهلاً ما ينبغي أن أفعل • وأشعل لفافته وقدّم الكبريت لي • تلك كانت إشارة لطف ، تعني أنهما ، رغم كونهما ضربا تلك المرأة السوداء ، لن يضرباني إذا عرفتُ كيف أحتفظ بفمي مغلقاً • قلت :

ـ نعم ، يا سيدي •

واقتعدت ، بعد رحيلهما ، حافة صندوق محزوم ، ورحت أحملق في الأرض الملطخة بالدم حتى احترقت اللفافة •

كان المخزن يملك دراجة أسلّم بواسطتها المشتريات • وذات يوم ، في طريق عودتي من الضواحي ، ثُقب دولاب دراجتي • فرحت أسير على طول الطريق الحارة المُتربة ، أنضح عرقاً وأجرّ الدراجة من مقودها •

وتمهلت سيارة إلى جانبي •

صاح رجل أبيض :

ـ ماذا حلّ بك ، يا صبي ؟

فأخبرته بقصة دراجتي ، وأني في طريقي إلى البلدة . قال :

ـ ما أسوأ ذلك ! إقفز على دواسة السيارة .

وأوقف السيارة . فأمسكت دراجتي بيد وتعلقت بالأخرى بجانب السيارة .

ـ هل أنت جاهز ؟

ـ نعم ، يا سيـــدي .

وسارت السيارة . كانت تعجّ بالشبان البيض . كانـــوا يسكرون . ورأيت القنينة تنتقل من فم إلى فم .

سأل أحدهم :

ـ أتريد جرعة ، يا صبي ؟

وغمرت ذهني ذكرى سكري في السادسة من العمـــر ، وملأتني حذراً . لكنني ضحكت ، والريح تصفـــع وجهي . قلت :

ـ أوه ، كلا !

ولم تكد هاتان الكلمتان تنصبان من فمي حتى أحسســـت شيئاً قاسياً بارداً يتحطّم بين عينيّ . تلك كانت زجاجة ويسكي فارغة . ورأيت نجوماً ، وهويت عن السيارة المسرعة في تراب الطريق ، واشتبكت قدمي بأسياخ دولاب الدراجة الفولاذي .

وتوقفت السيارة ، وهبط الرجال البيض وتجمعوا فوقي .
سأل الرجل الذي ضربني :
ـ يا زنجي ، أفلم تتعلَّم أفضل من هذا ؟ أفلم تتعلَّم أن تقول سيدي للرجل الأبيض بعد ؟
وجررت نفسي على قدمي ، مدهوشاً . كانت ركبتاي وكتفاي تنزف دماً . وتقدم الرجل الأبيض مني ، وقبضتاه مضمومتان ، ورفس الدراجة بعيداً عن سبيله :
صاح أحدهم :
ـ آه ، دع ابن الزانية هذا . لقد نال نصيبه .
ووقفوا ينظرون إليَّ ، فحككت ظنبوبيَّ ، محاولاً وقف نزيف الدم . ولا ريبة أنهم أحسوا نوعاً من شفقة مزدرية ، إذ استوضح أحدهم :
ـ أتريد أن تركب إلى البلدة الآن ، أيها الزنجي ؟ أتظن أنك تعرف ما يكفي الآن كي تركب ؟
فقلت ببساطة :
ـ سأسير على قدميَّ .
لربما كان في صوتي ما يبعث على السخرية . فقد ضحكوا .
ـ حسناً ، إمشِ ، يا ابن الكلبة الأسود !
وعزوني قائلين ، قبل أن يتسلقوا سيارتهم :
ـ يا زنجي ، يجب أن تكون مسروراً حقاً لأنك قد تحدثت

هكذا إلينا نحن • أنت ابن عاهرة محظوظ • لأنك لو قلت هذا الكلام لرجل أبيض آخر ، فلربما كنت زنجياً ميتاً هـــذه اللحظة •

كنت أتعلم بسرعة كيف أُراقب البيض ، وكيف أرصد كل حركة ، وكل تعبير سريع ، وكيف أُترجم ما قيل وما لم يقل •

وقمت في ساعة متأخرة من إحدى ليالي السبت بتسليم بعض المشتريات في حيّ أبيض • كنت أقود دراجتي عائداً إلـــى المخزن بأقصى ما أستطيع من سرعة حينما انطلقت سيارة شرطة ، منحدرة صوبي ، وحجزتني على حافة الرصيف • أمروني :

ــ إنزل ، أيها الزنجي ، وارفع يديك !

ففعلت • وخرجوا من السيارة ، يحملون مســدساتهم ، ووجوههم جامدة ، وتقدموا مني ببطء •

أمروني :

ــ قف جامداً !

فرفعت يديّ إلى الأعلى قدر ما أستطيع • وفتشوا جيوبي وما أحمل • وبدا أنهم تضايقوا حينما لم يعثروا معي على شيء يجرّمني • وقال أحدهم أخيراً :

ــ يا صبي ، قل لمعلمك ألا يرسلك إلى أحياء البيض في مثل هذه الساعــة من الليل •

فقلت :

ـ أمرك ، يا سيدي •

وتابعت طريقي يراودني الاحساس أنهم سيطلقون النار عليَّ ، شاعراً أن الرصيف قد يختفي • كان ذلك أشبه بمن يعيش في حلم ، يمكن أن تتبدل حقيقته في أية لحظة •

كنت أراقب ، كل يوم ، تلك الوحشية بحقد متفاقم ، ومع ذلك أحاول ضبط إحساساتي بحيث لا يسجلها وجهي • وحينما يرنو المعلم إليَّ ، فأنا أتجنب عينيه • وذات عشية حصرني ابن المعلم في زاوية من المخزن ، وانطلق يقول :

ـ قل ، يا زنجي ، أنظر هنا •

ـ أمرك ، يا سيدي •

ـ ماذا يجول في خاطرك ؟

قلت ، محاولاً أن أبدو مدهوشاً ، ساعياً إلى خداعه :

ـ لا شيء ، يا سيدي •

سأل :

ـ لمَ لا تضحك وتتحدث كالزنوج الآخرين ؟

فقلت ، مبتسماً :

ـ حسناً ، يا سيدي ، ليس ثمة ما يدعو إلى الحديث والابتسام •

كان وجهه قاسياً محيراً • وعرفت أني لن أستطيع إقناعه • وابتعد عني وخطا إلى مقدمة المخزن • ورجع بعد لحظة ، محمرّ

الوجه • ودفع إليّ بعض أوراق النقد الخضر ، وفرقع :
ــ أنا لا أحب نظراتك ، يا زنجي • والآن ، انطلق !
التقطت المال ولم أعدّه • واختطفت قبعتي وانطلقت •

★ ★ ★

واشتغلت بعدة أعمال حقيرة في فترات قصيرة ، فأنا أترك عملاً لأشتغل في مكان آخر ، وأطرد من بعضها بسببٍ من موقفي وحديثي ، والنظرة في عينيّ • وكنت بعيداً مثلي أبداً عن غايتي المستهدفة توفير ما يكفي من المال للرحيل • وكنت أشك في بعض الأحيان في قدرتي على تحقيق ذلك في يوم من الأيام •

عدوت ذات صباح لا عمل فيه إلى صديقي القديم جريكس الذي كان يعمل لدى جواهري في شارع الكابيتول • كان ينظف نوافذ المخزن حينما اقتربت منه • سألت :

ــ أتعرف أين أستطيع الحصول على عمل ؟

فنظر إليّ موبخاً • قال ، ضاحكاً :

ــ نعم ، أعرف أين تستطيع الحصول على عمل •

ــ أيــن ؟

ــ لكنني أتساءل إذا كنت تستطيع القيام به •

ــ ماذا تعني ؟ أين هو العمل ؟

ــ مهلاً • أنت تعرف ، يا ديك ، أني أعرفك • لقد كنت

تحاول العثور على عمل طوال الصيف ، فلم تستطع • لماذا ؟ لأنك نافد الصبر • وهذه خطيئتك الكبرى •

فلم أقل شيئاً ، لأنه كان يعيد عليّ ما قاله لي مراراً • وأشعل لفافة ونفخ دخانها على مهل •

قلت ، أستحثه على الكلام :

ــ حسنــاً •

ــ أتمنى لو أستطيع الحديث معك •

ــ أعتقد أني أعرف ماذا تريد قوله لي •

وضربني على كتفي ، وكان وجهه عامراً بالخوف ، والحقد ، والاهتمــام بي •

ســألني :

ــ أتريد أن تُقتــل ؟

ــ يا للجحيم ، كلا !

ــ إذن ، بحق الله ، تعلّم كيف تعيش في الجنوب !

استفسرت :

ــ ماذا تعني ؟ دع الناس البيض يقولوا لي هذا • ما الذي يدفعك إلى ذلك ؟

فنبر منتصراً ، وهو يشير بإصبعه إليّ :

ــ أرأيت هذا هو ، **الآن** ؟ إنه في وجهك • أنت لا تسمح للآخرين أن ينصحوك • فأنت جموح كثــيراً • إني أحاول

مساعدتك ، وأنت لا تسمح لي .

وتوقف ، ونظر حواليه . كانت الشوارع غاصة بالبيض . وخاطبني بصوت مخفوض :

ــ ديك ، أنظر ، أنت أسود ، أسود ، **اسود** ، أترى ؟أفلا نفهـم هذا ؟

ــ طبعاً ، إني أفهمه .

فبصق :

ــ وأنت لا تتصرف كأسود قط .

وراح وقتذاك يقدم لي تقريراً عن تصرفاتي في كل عمل قمت به ذلك الصيف .

سألت :

ــ كيف عرفت ذلـك ؟

فشرح لي :

ــ إن البيض يجعلون مراقبة السود من أعمالهم . وهـم يتناقلون الحديث . والآن ، إن معلمي من الشمال ، وهو يروي لي أشياء كثيرة . أنت الآن خطر في نظرهم .

هل يمكن أن أصدقه ؟ أصحيح ذلك ؟ وكيف يمكنني يوماً أن أتعلّم هذا العالم الغريب من الناس البيض ؟

سألته بتواضع :

ــ إذن خبّرني كيف يجب أن أتصرّف . في نيتي أن أجمع

ما يكفي من المال للرحيل فقط •
فقال :
ــ انتظر ، وسأخبرك •
وفي تلك اللحظة خرجت امرأة ورجلان من مخزن الجواهري •
وانتقلت جانباً لأفسح لهما الطريق ، وذهني مشغـول بكلمات جريكس • وعلى غير انتظار قبض جريكس على ذراعي وجرني بوحشية ، وتركني أتعثر ثلاث أو أربع أقدام على الرصيف • ودوّمت •• سألت :
ــ ماذا حلّ بــك ؟
فحملق جريكس ، وضحك ، وقال :
ــ إني أعلمك كيف تنزاح من طريق القوم البيض •
ونظرت إلى القوم الذين خرجوا من المخزن • أجل ، كانوا بيضاً ، لكنني لم ألاحظ ذلك •
سـأل :
ــ أترى ماذا أعني ؟ القوم البيض يريدونك أن تنزاح مـن طريقهـم •
تلفّظ بكلماته ببطء بحيث تغرق في ذهني •
تنفست :
ــ إني أعرف ماذا تعني •
قال :

ـ ديك ، إني أعاملك مثل أخي • أنت تتصرف أمام القوم البيض فكأنك تجهل أنهم بيض • وهم يرون ذلك •

قلت يائساً :

ـ أوه ، أيها المسيح ، لا أستطيع أن أكون عبداً •

فأجاب :

ـ لكن ، ينبغي أن تأكل •

ـ أجل ، يجب أن آكل •

فدق سمعي ، وهو يضرب قبضته براحة يده :

ـ إذن ، فهيا وافعل بموجب ذلك • حينما تكون أمام قوم بيض ، فكّر قبل أن تعمل ، وفكر قبل أن تتكلم • إن أسلوبك في العمل حسن جداً بين شعبنا ، لكن ليس من أجل القوم البيض • إنهم لا يتحملون ذلك •

وحملقت ببرودة في شمس الصباح • كنت أقارب السابعة عشرة من العمر ، وكنت أتساءل ما إذا كنت سأقوى يوماً على التحرر من هذا الطاعون • إن ما يقول جريكس لصحيح ، إلا أنه يستحيل عليّ بكل بساطة أن أحصي ، وأترسم ، وأفعل ، طوال الوقت • سوف أتذكر أن أتظاهر بذلك لفترات قصار ، ثم سأنسى ، وأعود مستقيماً إنسانياً مرة ثانية ، ليس بالرغبة في إيذاء أي إنسان ، لكن بمجرد نسيان التفريق المصطنع بين العروق والطبقات • والأمر سواء مع البيض والسود ، فهو

طريقتي مع الجميع • وتنهدت وأنا أرنو إلى الجواهر المتلألئة في نافذة المخزن ، الخواتم وصفوف الساعات الذهبية الأنيقة •

قلت أخيراً :

ــ أخمّن أنك على صواب • ينبغي أن أراقب نفسي ، أن أحطم نفسي •••

فقال بسرعة ، وهو يحسّ بذنبه الآن :

ــ كلا •

ودخل أحدهم ــ رجل أبيض ــ إلى المخزن ، فتوقفنا عن الحديث •

ــ أنت تعرف ، يا ديك ، قد تحسبني العم توم[1] ، لكن أنت مخطىء • إني أكره هؤلاء البيض ، أكرههم من أعماق قلبي • إلا أنني لا أستطيع إظهار ذلك ، فإذا فعلت مرة قتلوني •

وتوقف عن الحديث ، وتطلع حواليه ليرى إذا كان ثمة أحد من البيض يسمع عن قرب ، وتابع :

ــ لقد سمعت مرة أحد الزنوج السكيرين يقول :

« جميع هؤلاء السادة البيض المتأنقون في ثيابهم لا تختلف رائحتهم عن رائحتي أبداً ••• » •

وضحكت مضطرباً ، وأنا أرنو إلى الوجوه البيض التي تعبربي •

---

(١) بطل قصة « كوخ العم توم » لهربيت بيتشر ستاو • (المترجم)

إلا أن جريكس ، حينما ضحك ، غطى فمه بيده وانحنى حتى ركبتيه ، وهي حركة تهدف دون وعي إلى إخفاء فرحه المفرط في حضرة البيض .

قال بفخر بعدما انتهى من طربه التشنجي :

ــ هذا ما أشعر به نحوهم .

وازداد رزانــة :

ــ ثمة شركة مختصة بالعدسات في الأعلى ، والمعلم مــن ولاية إيلينوي . هو يطلب صبياً يعمل طوال النهار في الصيف ، والصباح والمساء في الشتاء . إنه يريد إدخال صبي ملوّن في تجارة البصريات . وأنت تعرف الجبر والعمل يناسبك تماماً . سأخبر السيد كرين عنك ، وسأرد الجواب إليك .

ســألت :

ــ أتعتقد أن في مقدوري رؤيته الآن ؟

فرعد في وجهي :

ــ بحق الله ، **تمهّل** قليلاً !

ــ لعلّ هذا هو خطأ الزنوج . إنهم يتمهلون كثيراً .

ضحكت ، لكنه تضايق واضطرب . وشكرته ، وسرت . ولم أسمع منه خبراً طوال أسبوع ، فقطعت كل رجاء . ثم قدم جريكس عصر أحد الأيام إلى بيتي .

ــ يبدو أنك حصلت على العمل . وستتاح لك فرصــة

تعلّم تجارة محترمة • لكن تذكر أن تكون عاقلاً • تذكر أنك أسود • وستبدأ غداً •

ـ وماذا سأقبض ؟

ـ خمسة دولارات في الأسبوع في البدء ، وسيزيدون لك إذا رقت في أعينهم •

وحلّقت آمالي • إن الأمور لا تسير بصورة رديئة • ستتاح لي فرصة تعلّم تجارة • ولست مضطراً إلى ترك المدرسة • وأخبرته أني أقبل العمل ، وأني سأكون متواضعاً •

ـ ستعمل في خدمة شخص من الشمال ، ويجب أن تسير الأمور سيراً حسناً معك •

وفي الصباح التالي كنت أنتظر خارج مكتب شركة البصريات قبل أن تفتح بفترة طويلة • وكنت أذكر نفسي بأنه يجب عليَّ أن أكون مؤدباً ، يجب أن أفكر قبل أن أتكلم ، ويجب أن أفكر قبل أن أقول : « نعم سيدي ، كلا سيدي » ، ويجب أن أضبط نفسي حتى لا يظن القوم البيض أني أفكر أني مثلهم • وفجاءة ، تقدم مني رجل أبيض ، واستوضح :

ـ ماذا تريد ؟

ـ إني أنتظر عملاً ، يا سيدي •

ـ حسناً • تعال •

وتبعته على درج ، ثم أقفل باب المكتب •• كنت متوتراً

قليلاً ، لكن تصرف الشاب الأبيض أراحني ، فجلستُ ، وحملت قبعتي في يدي . وقدمت فتاة بيضاء ، وراحت تعالج آلة كاتبة . وسرعان ما دخل رجل آخر ، نحيف أشيب ، وأسرع إلى الغرفة الخلفية . وأخيراً ، وصل رجل طويل أبيض أحمر الوجه ، ورماني بنظرة سريعة وجلس إلى مكتبه . كان نشاطه يسمِهُ شمالياً .

ـ أنت الصبي الجديد ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، ياسيدي .

فقال بسرور :

ـ فلأتخلص من بريدي أولاً ، ومن ثم سأحدثك .

ـ شكراً ، يا سيدي .

لقد خفضت من صوتي حتى غدا أشبه بالهمس ، محاولاً أن أخلصه من أي إيحاء أو نغمة عدائية .

وبعد نصف ساعة تقريباً ناداني السيد كرين إلى مكتبه ، وسألني عن مدرستي ، وعن المدة التي درست الحساب فيها . وبدا مسروراً حينما أخبرته أني درست الجبر سنتين .

سأل :

ـ ما رأيك في تعلّم هذه التجارة ؟

فقلت :

ـ أود ذلك كثيراً ، يا سيدي . ولا أود أي شيء

أكثر منهـا .

وأخبرني أنه يريد تدريب صبي أسود على تجارة البصريات ، يريد أن يساعده ، ويرشده . وحاولت أن أجيب بطريقة تجعله يدرك أني سأحاول أن أكون أهلاً لما كان يفعل . وقادني إلى ضاربة الآلة الكاتبة ، وقال :

ـ هذا ريتشارد ، إنه سيعمل معنا .

ثم قادني إلى الغرفة الخلفية من المكتب ، التي بدت معمـلاً صغيراً مليئاً بعدة آلات غريبة ملوثة بغبار أحمر .

وخاطب الشاب الأبيض :

ـ يا رينولد ، هذا ريتشارد .

فكشّر الشاب وهدر في وجهي :

ـ ما وقوفك هنالك ، يا صبي !

وصحبني السيد كرين إلى الرجل الأكبر سناً :

ـ بيز ، هذا ريتشارد ، وسيعمل معنا .

ونظر بيز إليّ وهزّ رأسه . ثم شرح السيد كرين للرجلين الأبيضين واجباتي . أخبرهما أن يروضاني شيئـاً فشيئاً على أعمال المخزن ، وأن يرشداني إلى طريقة شحذ العدسات وصقلها . فأومآ بالقبول .

قال السيـد كرين :

ـ والآن ، أيهـا الصبي ، فلنرَ كيف يمكن أن تنظف هذا

المكـــان .

ـ أمرك ، يا سيـــدي .

وكنست ، ومسحت ، ونفضت الغبار ، وسرعان ما نظفت المكتب والمخزن . وكنت ، بعد الظهر ، حينما أنتهي من عملي ، أنطلق في مهمات ومأموريات مختلفة . وفي ساعات الفـــراغ أقف وأحدّق إلى الرجلين الأبيضين وهما يقطعان العـدسات بواسطة الآلات . لم يحدثاني قط ، ولم أحدثهما بدوري . ومرّ اليوم الأول ، والثاني ، والثالث ، ومرّ أسبوع وقبضت دولاراتي الخمسة . ومرّ شهر . لكنني لم أتعلم شيئاً ولم يتطوع أحد لمساعدتي . وخطوت ذات عشية صوب رينولد وطلبت إليه أن يخبرني عن عمله . سألني :

ـ ماذا تحاول أن تفعل ، أن تصير ذكياً ، أيها الزنجي ؟

ـ كلا ، يا سيـــدي .

كنت محتاراً ، لعله لا يريد مساعدتي فقط . ومضيت إلى بيز ، وذكرته أن المعلم قـال بوجوب منحي فرصة تعلـم التجـارة .

ـ يا زنجي ، أتظن نفسك أبيض ، أليس كذلك ؟

ـ كلا ، يا سيـــدي .

ـ أنت تتصرّف كما لو كنت أبيض تقريباً .

ـ إني أفعل ما أخبرنيه المعلم .

فهزّ بيز قبضته في وجهي ، وقال :

ـ هذا عمل الرجل **الأبيض**.

ومنذ ذلك الحين تبدل موقفهما مني ، وما عادا يلقيان إليّ بتحية الصباح . وحين كنت أتباطأ نوعاً ما في انجاز أحد الأعمال فلقبي هو الأسود الكسول ابن الكلبة . ظللت صامتاً ، أجاهد كيلا أقدّم أية مسوغات يتذرعان بها لإساءة الصلات بيننا أكثر وأكثر . إلا أن رينولد ناداني ذات يوم إلى آلته .

استفسر في صوت خفيض مكتئب :

ـ يا زنجي ، أتحسب أنك ستصبح أبداً ذا شأن ؟

فأجبت ، وأنا أدير رأسي عنه :

ـ لست أدري ، يا سيدي .

فاستقصى :

ـ ما رأي الزنوج في هذا الموضوع ؟

فقلت ، ورأسي ما يزال بعيداً :

ـ لست أدري ، يا سيدي .

فأعلن :

ـ لو كنت زنجياً لقتلت نفسي .

لم أقل شيئاً ، وكنت غاضباً .

استعلم :

ـ أتدري لماذا ؟

فلم أقل شيئاً •
صرَّح فجأة ، وقد أهنفَ :
ــ لكنني لا أحسب أن الزنوج يتأثرون بكونهم زنوجاً •
فتجاهلته • كان السيد بيز يراقبني عن كثب • ثم رأيتهما يتبادلان النظرات •
لم يك عملي يؤدي إلى ما قال السيد كرين إنه يجب أن يؤدي • لقد كنت متواضعاً ، وها أنا الآن أحصد ثمن تواضعي •
قال بيز :
ــ تعال هنا ، يا صبي •
فسرتُ حتى طاولته • قال :
ــ لم يرق لك ما قال رينولد الآن ، أليس كذلك ؟
فرددتُ مبتسماً :
ــ أوه ، إنه حسن •
ــ أنت لم يعجبك ذلك • أستطيع رؤية ذلك في وجهك •
فرنوت إليه ، وبدأت أتراجع •
سأل :
ــ هل سبقَ ووقعت في بعض المتاعب ؟
ــ كلا ، يا سيدي •

ـ ماذا تفعل إذا وقعت فيها ؟

ـ لست أدري ، يا سيدي •

فحذرني :

ـ إتنبه لنفسك ولا تقع في المتاعب •

أردت أن أسرد هذه المشاحنات على السيد كرين ، لكن فكرة ما قد يفعله بيز ورينولد حين يعلمان أني « فَسَدْتُ » منعني عن ذلك • ورحت أمضي الأيام في العمل وأحاول إخفاء امتعاضي تحت ابتسامة عصبية خفية المعنى •

وكانت الذروة ظهر أحد أيام الصيف • ناداني بيز إلى طاولة عمله ، وكان يتوجب عليَّ للوصول إليه أن أمرَّ بين صفين من الطاولات الضيقة ، وأقف وظهري الى الجدار •

بدأ بيز يقول بابتهاج ، دون أن يرفع بصره عن عمله :

ـ ريتشارد ، أريد أن أسألك أمراً •

ـ تفضل ، يا سيدي •

وجاء رينولد ، ووقف ساداً الممر الضيق بين الطاولات • وطوى ذراعيه وحملق فيَّ بمهابة • ورحت أنقل أنظاري من أحدهما إلى الآخر ، مستشعراً رائحة المتاعب ••• وتطلّع بيز إليَّ وتكلّم في بطء ، بحيث لا يترك لي فرصة عدم الفهم :

ـ ريتشارد ، يقول رينولد إنك ناديتني ببيز •

فتيبّست ، وانهدم فراغ واسع في باطني ، وعرفت أن ذلك يعني البداية .

قصد أني أخطأت إذ لم أدعهُ السيد بيز ، ورنوت إلى رينولد ، كان يضغط قضيباً من الفولاذ في يده ، وفتحت فمي لأتكلم ، لأحتج ، لأؤكد لبيز أني لم أدعه **بيز** بكل بساطة ، وأني لم يخطر لي ذلك قط ، حينما قبض عليّ رينولد من ياقتي ، وضرب رأسي بالجدار .

هدر رينولد ، وهو يعرّي أسنانه :

ــ والآن ، كن حذراً ، يا زنجي ، سمعتك تناديه **بيز** وإذا قلت إنك لم تفعل فهذا يعني أني كاذب ، أترى ؟

ولوّح بقضيب الفولاذ مهدداً .

إذا قلت : « كلا ياسيدي ، يا سيد بيز ، أنا لم أنادك **بيز** » ، فهذا يتضمن أني أنعت رينولد بالكذب ، وإذا قلت : « أجل ، يا سيدي ، يا سيد بيز ، لقد ناديتك **بيز** » فهذا يعني الاعتراف بأفدح جرم يمكن لزنجي أن يرتكبه بحق رجل أبيض من الجنوب ، وقفت أحاول التفكير في خطة معتدلة تصرفُ عني هذا الكابوس الوائب سراعاً أمامي ، لكن لساني لم يتحرك .

قال بيز ، والغضب يحبو في صوته :

ــ ريتشارد ، سألتك سؤالاً .

قلت محاذراً :

ـ لست أتذكر أني ناديتك بيز ، يا سيد بيز . وإذا كنت فعلت ، فأنا لم أقصد بكل تأكيد ...

فبصق ، وهو يهب ويصفعني حتى انحنيت جانباً على دكة خشبية :

ـ أيها الأسود ابن الكلبة ! أنت ناديتني بيز إذن !

وانتصب رينولد فوقي ، وسأل :

ـ أفلم تناده بيز ؟ إذا قلت إنك لم تفعل ، فسوف أبقر بطنك بهذا القضيب الحديدي . يا أيها المراوغ الأسود العجوز ! إنك لا تستطيع أن تدعو رجلاً أبيض كاذباً وتنجو من ذلك .

فذبلت . ورجوتهما ألا يضرباني إذ أدركت ماذا يبغيان . إنهما يريدان أن أترك العمل . وعدت :

ـ سأرحل ، سأرحل الآن .

ومنحاني دقيقة لأغادر المعمل فيها ، وحذراني ألا أظهر مرة ثانية أو أخبر المعلم بذلك . وأرخى رينولد قبضته عن ياقتي ، فخرجت من الغرفة . لم أرَ كرين أو ضاربة الآلة الكاتبة في المكتب . لقد رتب بيز ورينولد الأمر بحيث يكون السيد كرين وسكرتيرته خارج المخزن حينما يسلطان رعبهما عليّ . خرجت إلى الشارع أنتظر المعلم أن يعود ، فشاهدت جريكس يمسح الرفوف الزجاجية في مخزن الجواهري ، فأومأت له . خرج ، فرويت له ما حدث .

استعلم :

ـ إذن ، ماذا وقوفك هناك مثل الأحمق ؟ أفلن تتعلم أبداً ؟ إمض الى البيت ! قد يخرجان إليك .

ورحت أهبط شارع الكابيتول ، شاعراً أن الرصيف غير حقيقي ، وأني غير حقيقي ، وأن الناس غير حقيقيين ، وأنتظر مع ذلك أن يسألني أحدهم عن الحق الذي أملك للسير في الشوارع . وراح جرحي يحفر عميقاً ، فأحسست أني طردتُ من الجنس البشري . ولما وصلت البيت ، لم أخبر العائلة بما حدث . قلت إني تركت العمل ، وإني ما كنت أربح ما يكفي من المال ، واني أبحث عن عمل جديد .

وقدم جريكس في الليل إلى بيتي . وخرجنا في نزهة . قال :

ـ لقد كانت ضربة شديدة صعبة .

فسألت :

ـ أيمكن أن تقول إنها غلطتي ؟

فهز رأسه .

سألته بحدة :

ـ حسناً ، ماذا عن فلسفتك اللعينة عن الاستخذاء ؟

فقال ، وهو يهز كتفيه :

ـ هذه الأمور تحدث .

فقلـت :

ــ إنهم مدينون لي •

فردّ :

ــ هذا ما جئت بشأنه • يريدك السيد كرين أن تأتي إليه غداً الساعة العاشرة • الساعة العاشرة تماماً • والآن ، انتبه ، لأنه سيكون هناك فلا يطالك ذانك اللعينان مرة ثانية •

زحفت في الصباح التالي الساعة العاشرة صاعداً الـدرج ، وأنفذت بصري إلى مكتب مخزن البصريات • وتأكـدت أن السيد كرين موجود • كان جالساً إلى مكتبـه • وكان بيز ورينولد جالسين إلى طاولتيهما في المؤخرة •

قال السيـد كرين :

ــ أدخل ، يا ريتشـارد •

فنزعت قبعتي ، ودخلت المكتب ، ووقفت أمامه •

ــ إجلس •

فجلست • وحملق فيّ وهزّ رأسه :

ــ خبرني ، ماذا حدث ؟

وهبّ فيّ دافع للكلام ومات عندما استوعبت أني أواجه جداراً لن أتمكن من ثقبه • وحاولت الكلام عدة مرات فلـم أقوَ على إخراج أي صوت • وعظم توتري ، وأحرقت الدموع وجنتي •

قال السيـد كرين :

ـ والآن ، اضبط نفسك .

فضممت قبضتي ، وحاولت الكلام . قلت :

ـ حاولت أن أعمل جهدي هنا .

ـ إني أصدقك . لكني أريد أن أعرف ماذا جرى . مَنْ ذا الذي ضايقـك ؟

ـ كلاهمـا .

وجاء رينولد راكضاً إلى الباب . فنهضت . ووثب السيـد كرين على قدميه . أمر رينولد :

ـ إرجع الى مكانك .

فقـال رينولد :

ـ هذا الزنجي يكذب ! سأقتله إن كذب عليّ !

فأمر السيد كرين :

ـ إرجع الى مكانك أو اخرج من هنا .

وتراجع رينولد ، وعيناه لا تفارقانني .

قال السيد كريـن :

ـ تابع . خبرني ماذا حدث .

ولم أستطع الكلام من جديد . على مَ أستطيع الحصول إن أنا أخبرته ؟ وإني أسود ، أعيش في الجنوب . وأنا لـن أتعلم كيف أدير هذه الآلات طالما أن ذينك الرجلين الأبيضين

ينتصبان أمامها . وتفجر الغضب والخوف فيّ وأنا أدرك ما خسرتُ . واستندت إلى الخلف ورفعت يدي إلى عيني .

قال السيد كرين :

ـ كلا ، كلا ، كفى . أضبط نفسك . لا تبالِ مهما حدث ، تمالك نفسك ..

قلت في صوت لم يكُ صوتي :

ـ أنا أعرف . لا فائدة من قولي أي شيء .

سألني :

ـ أتريد العمل هنا ؟

ورنوت إلى وجهي بيز ورينولد الأبيضين . وتصوّرت ترصدهما لي ، وقتلهما إياي . كنت أتذكر ماذا حدث لشقيق نـد . تنفست :

ـ كلا ، يا سيدي .

ـ لماذا ؟

ـ إني خائف . لسوف يقتلانني .

واستدار السيد كرين ونادى بيز ورينولد إلى مكتبه ، وقال :

ـ والآن ، قل لي من أزعجك . لا تخف . لن يؤذيك أحد .

وحدّقت إلى الأمام مني ولم أجب ، فأدخل الرجلين إلى

المكتب ، فنظرت إليّ ضاربة الآلة الكاتبة البيضاء بعينين مفتوحتين فأحسست أني أتصبب خجلاً ، وأني عارٍ حتى نفسي • وأحسّ كياني كلّه بانتهاك الحرمة ، وعرفت أن خوفي ساعد في ذلك • كنت أتنفس بصعوبة وأجاهد للسيطرة على إحساسي •

سألت أخيراً :

ـ أيمكنني الحصول على أجري ، يا سيدي ؟

فقال :

ـ إجلس لحظة وتمالك نفسك •

وانتظرت ، وشعوري يجنح إلى الهدوء • قال :

ـ إني آسف كثيراً لحدوث هذا •

ـ لقد ترجيت كثيراً من هذا العمل • كنت أريد الذهاب إلى المدرسة ، إلى الجامعة •

ـ أعرف هذا • لكن ، ماذا ستفعل الآن ؟

وتنقلت عيناي على المكتب ، لكن ما كنتُ أرى شيئاً •

قلت :

ـ إني راحل •

ـ ماذا تقصد ؟

فتنفست :

ـ إني سأرحل عن الجنوب •

فقـــال :

ــ لعلّ هذا أفضل • إني من إيلينوي • ان البقـــاء ههنـــا صعب حتى بالنسبة إليّ • وأنا أستطيع أن أفعل مثلك •

وناولني أجري ، أكثر مما أستحق عن أسبوع • وشكرته ، ونهضت لأخرج • ونهض • ومضيت عبر الممرّ فتبعني • ومدّ يده ، وقال :

ــ إن الحياة قاسية بالنسبة إليك ههنا •

ولمست يده عن بعد • وسرت بخفة أجتاز الصالة ، أجاهد ضد البكاء من جديد • وهبطت الدرج ، ثم توقفت ونظرت الى الخلف • كان واقفاً في قمة الدرج ، يهز رأسه • وخرجت إلى أشعة الشمس ، ورجعت أدراجي الى البيت مثل رجل أعمى •





١٠

ظللت طوال أسابيع بعد ذلك الحادث لا أصدق أحاسيسي •
كانت شخصيتي مخدرة ، فريسة للانهيار والتفكك والانحلال •
كنت لا إنساناً ، شيئاً يعرف بصورة غامضة أنه إنسان ، لكن
يحسُّ أنه ليس كذلك • وبقدر ما كان الزمن يفصلني عن تلك
التجربة ، لم أكُ أشعر بأي حقد على الناس الذين طردوني من
العمل • ما كانوا يتراءون لي أشخاصاً فرديين ، بل جزءاً من

تخطيط أساسي ، ضخم ، حقود ، الحقد عقيم الجدوى حياله •
وكان ما أحسست به هو الشوق إلى الهجوم • لكن كيف ؟ ولما
كنت لا أعرف سبيلاً إلى مصارعة مثل هذه الأمور ، فقد تضاعف
شعوري بأني مطرود منبوذ •

كنت أسعى إلى الفراش متعباً وأنهض متعباً ، رغم أنني
لم أك أبذل أي جهد حكمي • وكان ارتكاسي فائق الشدة حيال
كل حدث ، وعواطفي المكومة تتراقص حوله • ورفضت
التحدث إلى أي إنسان عن أموري ، لأني كنت أعرف أني لن
أسمع سوى تبرير السادة البيض وتصرفاتهم ، وهو الشيء الذي
لم أك أود أن أسمعه • وعشت أحمل جرحاً ضخماً ، حساساً ،
متقرحاً • وكنت أتقلص حينما أقترب من أي شيء يتراءى لي أنه
يمكن أن يلمسه •

ولم يكن لي بد من العمل لأنه لم يكن لي بد من الطعام •
وكان عملي التالي مساعداً في صيدلية ، وخضت صراعاً مع
نفسي في الليلة السابقة لاستلام عملي ، أحاول إقناعها بأنه
لا مناص لي من السيطرة على هذا الأمر ، وأن حياتي مرتبطة به •

كان الناس السود الآخرون يشتغلون ، ويتدبرون أمورهم
بطريقة ما ، وبالتالي فإنه يجب ، **يجب** ، **يجب** أن أتدبر أموري
حتى أملك ما يكفي من المال للرحيل • يجب أن أتكيف مع عالمي •

لقد حقق الآخرون هذا الأمر . وسأحققه بدوري . ينبغي أن أحققــه .

ومضيت إلى العمل متوقعاً نذير شرٍّ ، عازماً على مراقبــة كل حركة تصدر عني . وزحفت على طول الرصيف ، أتوقف كلما استبان لي رجل أبيض على بعد عشرين خطوةمني . ومسحت المخزن ، منتظراً بحذر أن يبتعد الناس البيض من دربي مــن تلقاء أنفسهم . ونظفت مساحات من الرفوف الزجاجية ، مشتغلاً بسرعة لم أعتدها ؛ مركزاً كل بارقة من الواقع المحيط بي في بؤرة وجداني . وجاء الظهر ، وكان المخزن غاصّاً بالنــاس ، وكان الناس يتزاحمون طلباً للطعام . وركض نحوي رجــل أبيض ، وصاح :

ــ زجاجة من الكوكا كولا ، أسرع ، يا صبي !

فتوتر جسدي ، ورحت أحملق فيه . وحدّق فيَّ :

ــ ماذا أصابك ؟

قلــت :

ــ لا شيء .

ــ حسناً ، تحرّك ! لا تقف هنا فاغر الشدقين !

ولو أني حاولت ، لما استطعت أن أخبره ماذا أصابني . كان توقعي المتصل للعنف قد أنهكني ، كما أن انشغالي في إخضاع دوافعي ، وحديثي ، وحركاتي ، وسلوكي ، وتعابيري ، قد زاد

من قلقي حتى درجة بعيدة • وغدوت كثير النسيان ، أركز معظم انتباهي على قضايا تافهة • وجعل الرجال يصيحون بي ويزعقون، وهذا ما زاد الأمر سوءاً • وذات يوم دلقتُ قنينة من عصير البرتقال في وسط الغرفة ، فاستشاط المعلم غيظاً ، وأطبق عليّ من ذراعي وطوّح بي في مؤخرة المخزن • وتوقعت أن يضربني ، فتهيأت للدفاع عن نفسي •

صاح :

ــ سأخصم هذا من أجرك ، أيها الكلب الأسود !

لقد اكتفى بالكلام من دون الضرب ، فتراخت أعصابي •

قلت معتذراً :

ــ أمرك ، يا سيدي • تلك كانت غلطتي •

فزادت نغمة صوتي من حدة غضبه •

زعق بصوت أعلى نبرة :

ــ لقد كانت خطيئتك بالفعل !

فهمهمتُ ، مدركاً أني أخطأت القول حيث كنت أحسب أني أصبت :

ــ إني جديد في هذا العمل •

فحذرني :

ــ نحن نجرّبك •

ــ أجل ، يا سيدي • إني أفهم ذلك •

فحملق فيّ ، مختنقاً بنقمته • ما بالي لا أتعلّم الاحتفاظ بفمي مغلقاً في الوقت المناسب ؟ لقد تفوهت بجملة قصيرة واحدة زيادة عما كان يجب • وكانت كلماتي بريئة تماماً ، لكنها تدلّ ، فيما يبدو ، على وعيٍ من جانبي يثير الغضب في الناس البيض •

وجاءت ليلة السبت ، فأعطاني معلمي أجري وكشّر :

ــ لا ترجع : فأنت لا تصلح للعمل •

كنت أعرف أخطائي ، لكن لا أستطيع إلى إصلاحها سبيلاً • وكانت كلمات الناس البيض وأفعالهم إشارات محيّرة بالنسبة إليّ • كنت أعيش في ثقافة وليس في حضارة ، وكنت أستطيع أن أفهم كيف أن تلك الثقافة لا تصلح إلاّ إذا عاش المرء معها • وكان سوء فهمي لارتكاسات البيض المحيطين بي يجعلني أقول وأفعل الأشياء المغلوطة أبداً • وكنت في تعاملي مع البيض أعي كلية علاقاتي معهم ، أما هم فلا يدركون إلا ما يحدث في لحظة معينة • وكان يتوجب عليّ أن أظل ذاكراً ما يعتبره الآخرون أمراً مسلماً به ، وكان يتوجب عليّ أن أكتشف دائماً مشاعر الآخرين •

لقد بدأت علاقاتي مع العالم الأبيض في وقت متأخر جداً • ولم أكن أستطيع أن أجعل من الخنوع جزءاً آلياً من سلوكي • كان عليّ أن أحسّ وأقلب وجوه الفكر في كل فقرة صغيرة من التجربة العنصرية على ضوء مشكلة العنصر كلها ،

وكنت أصبّ حياتي كلها على كل من هذه الفقرات . وكان عليّ ، إذ أقف أمام رجل أبيض ، أن أتصوّر كيف أقوم بكل من أفعالي وكيف أتفوّه بكل من كلماتي . ولم أكن أستطيع امتناعاً عن ذلك . لم أكن أستطع أن أكثر . كنت في الماضي أقول أشياء أكثر من اللازم ، أما الآن فأجد من الصعب أن أقول شيئاً على الاطلاق . وما كان في طوقي أن أرتكس مثلما يتوقع مني العالم الذي أعيش فيه ؛ هذا العالم كان محيراً جداً ، مضطرباً حتى درجة بعيدة .

وبقيت عاطلاً طوال أسابيع . وتصرّم الصيف ، وطار الآن الأمل في الدراسة بصورة نهائية . وأطلّ الخريف ورجع معظم الصبيان الذين وجدوا عملاً في الصيف إلى مدارسهم . وكثرت الأعمال الآن ، فبلغني أن ثمة فندقاً في حاجة إلى مستخدمين ، وهو نفس الفندق الذي فقد فيه شقيق ند حياته . هل أذهب إليه ؟ وهل أفعل ، أنا ، زلة قاضية ؟ لكن ، يتوجب عليّ أن أكسب مالاً . وتقدمت بطلبي ، فقبلت لأمسح ممرات طويلة مبلطة بيضاء تمتدّ على مدى محيط أرض مكتب البناية . وكنت ألتحق بعملي في العاشرة مساء ، فأتناول دلواً ضخمة من الماء ، وعلبة من الصابون ، وعدداً من الماسح ، وأبدأ العمل . كان الصبيان جميعاً سود البشرة ، فكنت سعيداً . إني أستطيع ، على الأقل ، أن أتحدث ، وأضحك ، وأمزح ، وأغني ، وأقول ما

يحلو لي .

وبدأت أدهش إذ أرى بأية نعومة ينفذ الصبيان السود الأدوارَ التي رسمها لهم العرق الأبيض . وكان معظمهم لا يدركون أنهم يعيشون أسلوباً خاصاً ، منفصلاً ، مضغوطاً من الحياة . لكنني كنت أعرف مع ذلك أنه نشأ عندهم في مرحلة ما من نموّهم ـ مرحلة لا شك أنهم نسوها تماماً ـ آلية رقيقة حساسة موجهة أغلقت عقولهم وعواطفهم عن كلّ ما قال العرق الأبيض إنه حرَم" محرَّم" . ورغم أنهم يعيشون في أميركا حيث يوجد ، نظرياً ، مساواة في الفرص ، فإنهم يعرفون بصورة لا تخطىء ما يمكن وما لا يمكن أن يطمحوا إليه . ولو أن صبياً أسود أعلن أنه يطمح إلى أن يصير كاتباً ، فلقد كان رفاقه يسمونه مجنوناً دونما تردد . أو لو أن صبياً أسود تحدث عن حنينه للحصول على مقعد في بورصة نيويورك ، فقد كان رفاقه ـ في مصلحة الصبي نفسه ـ ينقلون طموحه الغريب إلى المعلم الأبيض .

وكان ثمة صبي أصفر اللون شاحبه مصاباً بالسيلان ، وكان فخوراً به .

سألني ذات يوم :

ـ قل ، هل أصبت قط بالسيلان ؟

فقلت :

ـ كلا وربّي ، فيمَ سؤالك ؟

فردَّ في لهجة جدية :

ـ إني مصاب به • حسبتُ أن في استطاعتك إخباري عن دواء أستعمله •

سألت :

ـ ألم تذهب إلى طبيب ؟

ـ أوه ، يا للجحيم ! الأطباء لا يصلحون •

قلت :

ـ لا تكُ أحمق •

فاستوضحني :

ـ ما بالك ؟ إنك تتحدث فكأنك تخجل من السيلان •

فأبنت :

ـ وإني لكذلك •

ـ يا للجحيم ! أنت لا تصير رجلاً ما لم تصب به ثلاث مرات •

ـ لا تتفاخر به •

فقال :

ـ ليس هو أسوأ من الرشح •

ولكنني لاحظت أنه يمسك حين يبول بأنبوب للبخار ، أو قبضة باب ، أو حافة نافذة ، ويكبس بعينين دامعتين ووجه معذب فكأنه يحاول أن يرفع الفندق من أسسه • وضحكت لأخفي

اشمئزازي •

وإذا انتهيت من المسح كنت أتفرج على ألعاب القمار اللامنتهية ، الجارية في الخفاء ، لكنها لم تثر قط اهتمامي حتى درجة ممارستها • فالقمار لم يجتذبني قط ، إذ ما كنت أتصور لعبة يمكن أن تحمل لي أخطاراً تزيد عن الحياة التي أعيش • وكان ثمة شتائم وقصص جنسية تتردد طوال الوقت ، ودخان أزرق يملأ الهواء • وكنت أجلس ساعات مصغياً ، متسائلاً كيف يستطيعون الضحك بهذه الحرية ، محاولاً إدراك المعجزة التي منحت حياتهم الذليلة هذا الشبه من الوجود الانساني •

وكانت بعض الفتيات الزنجيات يعملن كخادمات في الفندق ، وكنت أعرف بعضهن • وذات ليلة ، وأنا على وشك مغادرة الفندق إلى البيت ، رأيت فتاة تعيش في حيّنا ، فحاذيتها لنسير مسافة الطريق معاً • وبينا نحن نمرّ بالحارس الليلي الأبيض إذا هو يضربها مازحاً على عجزها • فاستدرت إليه ، مدهوشاً ، بينا تملصت الفتاة من دربه ، مطوّحة رأسها بوقاحة ، وهبطت الممرّ • أما أنا فلم أتحرك من مكاني •

قال :

ــ يا زنجي ، يبدو أنك لم تحبّ ما فعلتُ •

فلم آت حركة أو أنطق كلمة •

ولا ريب أن جمودي تراءى في عينيه تحدياً له ، إذ تناول

مسدسه وقال :

ـ أفلم تحب ذلك ، يا زنجي ؟

همست من حلق جاف :

ـ بلى ، يا سيدي •

ـ حسناً ، برهن على ذلك بكلامك ، أيها الملعون !

فقلت بقدر ما استطعت من رقة :

ـ أوه ، أمرك ، يا سيدي •

وسرت أهبط الممر ، عارفاً أن المسدس مصوب إلى ظهري ، خائفاً من الالتفات • ولما صرت خارج الباب ، أحسست كأن حلقي ينتفخ ويتأجج ناراً • كانت الفتاة تنتظرني ، فتجاوزتها ، لكنها لحقت بي •

انفجرت صائحاً :

ـ يا الله ، كيف تسمحين له أن يفعل ذلك ؟

فعقّبت :

ـ لا أهمية لذلك • فهم يفعلون هذا طوال الوقت •

قلت :

ـ كنت أريد أن أفعل شيئاً •

فـردت :

ـ كنت تثبت حماقتك لو فعلت •

ـ لكن ، كيف تشعرين ؟

فقالت بجفاء :

ـ إنهم لا يذهبون أبعد من هذا معنا ، إذا لم نرغب نحن فيه .

فقلت :

ـ أجل ، لقد كنت أثبت حماقتي .

لكنها لم تفهم قصدي .

واجتاحني الخوف من العودة الى العمل في الليلة التالية . ما عسى أن يفكر الحارس الليلي ؟ هل سيقرر أن يلقنني درساً ؟

عبرت الباب بخطوات متماهلة ، متسائلاً عما إذا كان سيتابع وعيده . ونظرت عيناه إليّ واخترقتاني . مما لا ريبة فيه أنه اعتبر المسألة منتهية ، أو أنه مرّ بتجارب عديدة من هذا القبيل بحيث نسيها تماماً .

وبدأت أدخر من أجري دولارات قليلة ، لأن تصميمي على الرحيل لم يضمحل . إلا أني وجدت هذا التوفير بطيئاً بصورة تبعث على اليأس . وكنت أفكر دون انقطاع في طرق جديدة لجمع المال ، وكانت الطرق الوحيدة التي أستطيع أن أفكر فيها تتضمن خرقاً للقانون . وقلت في نفسي : كلا ، يجب ألا أفعل هذا . إن الذهاب إلى السجن في الجنوب معناه النهاية . وثمة إمكانية عدم وصولي الى السجن قط إذا ما قبض عليّ .

تلك كانت أول مرة في حياتي يخطر لي فيها بصورة دائمة

فكرة الاعتداء على قوانين البلاد • لقد أحسست أن ذكائي وجدّي لا يمكن أن يكافحا ضد جميع الاوضاع ، فلم أسرق حتى ذلك الحين قرشاً واحداً من أي شخص كان • وإن الجوع نفسه لم يجرني قط إلى استملاك ما لا يخصني • إن مجرد فكرة السرقة كانت تبعث القرف في نفسي ، وأنا لم أكن شريفاً بفضل دوافع واعية ، بل إن فكرة الغدر لم تخطر لي في بال •

ومع ذلك فقد كان الزنوج ، فيما حولي ، يسرقون باستمرار • وما أكثر ما سميت بـ « الزنجي البليد » من قبل صبية سود اكتشفوا أني لم أستفد قط من فرصة اختطاف قطعة تافهة من الملكية البيضاء ، قد تركت دون عناية في متناول يدي •

وحين أعلنت أن من واجب المرء ألا يسرق وُجّه إليّ هذا السؤال :

ـ كيف ستدبر أمورك إذن ، بحقّ الجحيم ؟

كنت أعرف أن الصبية في الفندق يختلسون كل ما يستطيعون سبيلاً إلى اختلاسه • وكنت أعرف أن جريكس ، صديقي الذي يعمل في مخزن الجواهر في شارع الكابيتول ، يسرق بانتظام ونجاح • وكنت أعرف أن زنجياً من جيراني يسرق أكياساً من الحبوب من مخزن يشتغل فيه ، وذلك بالرغم من كونه شماساً وفياً في كنيسته ، يصلي ويرتل في أيام الآحاد • وكنت أعرف

أن الفتيات الزنجيات اللائي يشتغلن في منازل البيض يسرقن الطعام يومياً كي يكملن أجورهن الهزيلة . وكنت أعرف أن نفس طبيعة العلاقات بين السود والبيض تحضن هذه السرقة المتصلة .

ولم يفكر معارفي قط من الزنوج في تنظيم أنفسهم ، بأية طريقة كانت ، ومطالبة مخدوميهم البيض بزيادة الأجور . كانت مجرد تلك الفكرة تبعث على الرعب بالنسبة إليهم ، وكانوا يعرفون أن البيض سيردون إذن بقسوة شديدة . ولذا فقد كانت أيديهم تمتدُّ إلى ما تستطيع الوصول إليه ، وهم يتظاهرون بالرضوخ لقوانين البيض ، فيبتسمون ، وينحنون ، ويسرقون . وكان يبدو أن البيض يحبون ذلك .

أما أنا ، الذي لم أكن أسرق شيئاً ، الذي كنت أريد أن أتطلع بجرأة في وجوههم ، الذي كنت أريد أن أتحدث وأتصرف كإنسان ، كنت أوحي بالخوف لهم . ولقد كان البيض الجنوبيون يؤثرون للعمل عندهم زنوجاً يسرقون على زنوج يعرفون ، مهما تكن معرفتهم هذه مضطربة مشوشة ، قيمة إنسانيتهم الخاصة . وهكذا كان بعضهم يشجعون مكر الزنوج ويمهدون له ؛ إنهم يشجعون عدم المسؤولية ، ويكافئوننا ، نحن الزنوج ، بقدر ما نستطيع أن نبعث فيهم شعور الأمان والتفوق .

لم تكن اعتراضاتي على السرقة من المرتبة الأخلاقية . إني

لم أؤيد هذه السرقة لأني كنت أعرف عدم جدواها على مرّ الزمن ، ولأني كنت أدرك أنها ليست طريقة فعّالة لتبديل علاقات الشخص بمحيطه . إذن ، كيف أستطيع أن أبدل علاقتي بمحيطي؟ إن كل أجري تقريباً يذوب في تأمين الطعام للمعد الجائعة أبداً في البيت . وإذا اقتصدت دولاراً واحداً كل أسبوع ، فلا بدّ لي من سنتين لأجمع مئة دولار ، وهو الذي قررت ، لسببٍ ما ، أنه ضروري للقذف بي في مدينة غريبة . ويعلم الله ما يمكن أن يقع لي في سياق هاتين السنتين ...

لم أكن أعرف متى يمكن أن أجد نفسي في وضع أضطر معه أن أقول كلمة خاطئة لرجل أبيض دنيء ، وبالتالي أقع في المتاعب . لقد كنت أريد ، قبل كل شيء ، أن أتجنب المتاعب ، لأني كنت أخشى إذا ما اصطدمت مع البيض أن أفقد السيطرة على أعصابي ، فأقذف كلاماً قد يكون حكم الإعدام عليّ . لم يكن الزمن في جانبي إذن ، ولا بدّ لي أن أقوم بحركة ما . وكثيراً ما كنت أتوق ، حين يثقل القلق عليّ ، إلى أن أكون مثل أولئك الصبيان السود في غرف الفندق ، الضاحكين ، الكسولين، السادرين في النسيان ، الأحرار من تلك النزاعات الجارفة التي لابدّ من حلها . وما أكثر ما تعبت من ذلك العبء الخفي الذي أحمله ، فأحنُّ إلى إلقائه عن كاهلي ، سواء بالفعل أم بالاستسلام. لكني لم أخلق لأكون إنساناً خنوعاً ، كما أن الأفعال التي

أستطيعها كانت محدودة ، وكنت أخافها جميعاً •

ونشأ فيَّ قلق جديد من جراء رغبتي في الرحيل سريعاً • لقد شاهدت الآونة عن قرب الناس البيض المتكبرين الذين يصنعون القوانين ، ورأيت كيف يتصرفون ، وكيف ينظرون إلى الزنوج ، وكيف يتطلعون إليَّ ، فلم أعد بعد اليوم مرتبطاً بالقوانين التي يفترض أن البيض والسود يجب أن يخضعوا لها بصورة مشتركة • إني خارج عن هذه القوانين ، وهذا ما أخبرني به الناس البيض • ولم أعد أحسّ الآن ، حين أفكر في طرق الفرار من محيطي ، ذلك الكبح العاطفي الذي كان يجعل السرقة أمراً مستحيلاً ، وكانت هذه الحرية الجديدة تبعث فيَّ شعور الوحدة والخوف •

وانقسمت مشاعري • إني لأحلم بالرغم مني بخزانة مقفلة في دار جار أبيض حيث ثمة بندقية محفوظة • كم تدرّ عليَّ إذا ما سرقتها ؟ وحين كان الحنين إلى الرحيل يقوى في نفسي ، لم أكن أستطيع امتناعاً عن التفكير في مخزن في مدرسة قريبة للزنوج حيث توجد أوعية ضخمة من الفواكه المحفوظة ، ومع ذلك كان الخوف يمنعني من الاتيان بأدنى حركة • إن فكرة السرقة لتراودني باغراء الآن • ذلك أن عجزي عن التكيف مع العالم الأبيض قد دمّر قسماً من شخصيتي وحطم تلك العوائق الباطنة في سبيل الجريمة ، وإن الشي الوحيد الذي يعترض

الآونة سبيلي هو عدم توفر الفرصة المباشرة ، وانعدام الدافع النهائي المسبب عن الظروف . ولقد سنحت تلك الفرصة .

لقد رفعوني إلى وظيفة خادم في الفندق ، الأمر الذي يعني زيادة صغيرة في الدخل . لكني سرعان ما عرفت أن النقود الأساسية تأتي من تهريب المشروبات إلى العاهرات البيض في الفندق . ولقد كان الخدم الآخرون في الفندق يتحملون هذه الأخطار ، وهكذا فعلت بدوري .

وتعلمت كيف أمرُّ بشرطي أبيض في الطريق ، وعلى عطفي بضائع محظورة ، أتهادى وأصفر كما يجب أن يصفر الزنجي حين يكون بريئاً . وكانت الدولارات الزائدة تتدفق عليَّ ، لكن ببطء . كيف ، كيف ، كيف أستطيع الحصول على المزيد من المال قبل أن أُعتقل ويُرسل بي إلى السجن بسبب جنحة تافهة ؟ إذا كنت سأعتدي على القانون ، فيجب إذن أن أنال شيئاً من عدواني هذا . وكانت أهدافي اللصوصية متواضعة : إن مئة دولار ستمنحني ، مؤقتاً ، حريةً في الحركة أعظم مما عرفت طوال حياتي . ورحت أراقب وأنتظر ، تدور حياتي مع تلك الفكرة .

وفي أثناء انتظاري لفرصتي في السلب والفرار ، اعتدت رؤية العاهرات البيض عاريات في أسرتهن ، أو متجولات في غرفهن بثياب حواء . وتعلمت أساليب جديدة في السلوك ،

وقواعد جديدة في كيف أعيشُ حياة جيم كراوو • وكان من المفروض أننا نعتبر ، نحن الصبية السود ، عريهن كأمر مسلم به ، وأنه لا يمكن أن يدهشنا أكثر من آنية زرقاء أو سجادة حمراء • ولم يكن وجودنا يثير فيهن أدنى إحساس بالخجل ، لأننا لم نكن نعتبر ، نحن الزنوج ، بشراً في حال من الأحوال • وكنت أسترقُ إليهن النظر حين يكنّ وحيدات ، أما إذا كنّ يستقبلن رجالاً ، فما كانت تطرف لي عين مطلقاً •

واستأجرت شقراء كبيرة ، ناصعة الجلد كالثلج ، غرفة في الطابق الذي أخدم فيه ، وقرعت الجرس ذات ليلة ، فذهبت لتلبية طلباتها • كانت في فراشها مع رجل سمين ، كلاهما عريان دون غطاء • وأخبرتني أنها تبغي مشروباً ، وانزلقت عن فراشها واجتازت الغرفة لتتناول النقود من جرار خزانتها ، فرحت أراقبها دون وعي مني •

سألني الرجل الأبيض ، وقد رفع نفسه على مرفقيه :

ـ أيها الزنجي ، إلى مَ تنظر ؟

فأجبت ، متطلعاً بصورة مباغتة عميقاً جداً في جدار الغرفة الأصم :

ـ لا شيء ، يا سيدي •

ـ إحفظ نظرك حيث يجب أن يكون إذا كنت تريد أن تظل موفور الصحة •

ـ أجل ، يا سيـــدي •

ولقد كنت أبقى في الفندق حتى يأزف ميعــاد الرحيل لولا فرصة سنحت لي • فقد همس أحد الصبية الزنوج العاملين في الفندق في أذني ذات ليلة أن السينما الوحيدة الخاصة بالزنوج في حاجة إلى صبي يتناول بطاقات الدخول عند الباب •

سألني :

ـ إنك لم تسجن حتى الآن ، أليس كذلك ؟

فأجبت :

ـ كلا ، لم أسجن بعد •

فأجاب :

ـ إذن يمكنك الحصول على العمل • كنت أحصل عليــه شخصياً ، لكنني قضيت ستة شهــور في السجن ، وهــم يعرفونني •

ـ وكم هو الأجر ؟

فأوضح لي قائلاً :

ـ إن الفتاة التي تقطع التذاكر تستخدم نظاماً خاصاً • فإذا حصلت على العمل ، أمكنك أن تكسب مالاً وفيراً •

إذا سرقت ، فسوف أتمكن من الرحيل سريعاً إلى الشمال ؛ وإذا بقيت شريفاً مكتفياً بعرق جبيني ، معنياً بزجاجات الشراب المهرّبة ، فإني لا أفعل إذن سوى إطالة اقامتي ، وتعريــض

نفسي لخطر الاعتقال إذ أقول كلمة خاطئة أو أرتكب عملاً خاطئاً ، فيحكم عليّ بعقوبة لا أجسر على مجرد التفكير فيها •
كان إغراء الجريمة قوياً جداً ، فقررت أن أعمل بسرعة ، آخذاً كل ما يقع تحت بصري ، مكدساً كتلة من المال ، ثم مولياً الأدبار هارباً • وكنت أعرف أن آخرين جربوا ذلك مثلي وباءوا بالفشل ، لكني كنت آمل أن يسعفني الحظ حيث لم يسعف غيري •

وكان حظي بالحصول على العمل وفيراً ، إذ ليس لي سجل ماضٍ في السرقة أو خرق القوانين • وحين تقدمت إلى صاحب السينما اليهودي قبلني على الفور • والتحقت بعملي في الغداة ، وبدأت أتناول بطاقات الدخول •

حذرني المعلم قائلاً :

ـ أنظر ، يا صاح • سوف أكون شريفاً إذا كنت شريفاً معي • ولست أدري من هو شريف فيما حولي ومن ليس كذلك • لكن إذا كنت **أنت** شريفاً ، فالآخرون مضطرون إذن أن يكونوا كذلك • إن سائر البطاقات ستمرّ بين يديك ، ولن يكون هناك سرقة إذا لم تسرق أنت •

فأقسمت له على الإخلاص ، غير شاعر البتة بأي تأنيب من ضميري على ما أزمعت فعله • لقد كان أبيض اللون ، وأنا لن أستطيع قط أن أفعل به ما فعله هو وجنسه بي • ورحت

أفكر بالتالي في أن السرقة لن تكون خرقاً لقانوني الأخلاقي ، بل لقانونه وحده . لقد شعرت أن الأمور مرتبة في مصلحته ، وأن أي عمل أرتكبه في سبيل إتلاف خطته في الحياة عادل لا غبار عليه . ومع ذلك لم أكن قد أقنعت نفسي بعد .

وراحت الفتاة الزنجية في شباك البطاقات تراقبني بإمعان خلال اليوم الأول ، فأدركت أنها تدرسني ، ساعية إلى تحديد البرهة التي تستطيع فيها أن تجرني دونما خطر إلى لعبتها . ورحت أنتظر ، تاركاً لها القيام بالخطوة الأولى .

كان المفروض فيّ أن ألقي كل بطاقة أتناولها من الزبائن في صندوق معدني أمامي . ومن حين لآخر كان المعلم يقصد شباك البطاقات وينظر الى الرقم المتسلسل على دفتر البطاقات غير المبيعة، ثم يقارن هذا الرقم بالرقم الذي تحمله آخر بطاقة أسقطها في الصندوق المعدني . وثابر المعلم على مراقبته عدة أيام ، ثم طفق يلاحظني عبر الشارع ، وأخيراً صار يتغيب لفترات طويلة .

وعاد يعيش فيّ من جديد توتر لا يقل ارتفاعاً عن التوتر الذي قاسيته حين طردني الرجال البيض من عملي عند تاجر النظارات . لكنني تعلمت الآن كيف أسيطر على قدرٍ كبير من التوتر ! لقد طورت ، بصورة بطيئة وأليمة ، قدرة على ضبطه في باطني دون أن أفضحه بأية طريقة كانت . ولو لم يكن ذلك صحيحاً ، فقد كانت مجرد فكرة السرقة ، والأخطار المترتبة

عنها ، واليأس الباطن ، تقلقني جميعاً بحيث لن أستطيع الاحتفاظ برباطة جأشي كي أحسب ببرود • وكنت أصير فريسة ذعر عظيم يمنعني من الاقدام على السرقة البتة • بيد أن مقاومتي الباطنة قد تأججت ، فكنت أحسّ أني طردت عاطفياً من هذا العالم ، وأني مضطر إلى العيش خارج مجرى الحياة الطبيعي ، وإني تكيفت في الشعور لأعيش ضدّ شيء ما بصورة يومية ، واني اعتدت على العيش في جانب أولئك الذين يراقبون وينتظرون •

وبينا كنت أتناول العشاء ذات مساء في مقهى قريب ، إذا زنجي غريب يقترب مني ويجلس الى جانبي • قال :

ـ مرحباً ، يا ريتشارد •

فقلت :

ـ مرحباً • لا أظنني أعرفك •

فقال ، مبتسماً :

ـ لكني أعرفك •

أتراه أحد جواسيس المعلم ؟

استفسرت :

ـ كيف تعرفني ؟

فقال ، مسمياً الفتاة التي تقطع التذاكر في السينما :

ـ إني صديق تيل •

فنظرت إليه بعينين فاحصتين . أتراه يخبرني بالحقيقة ؟ أتراه يحاول الايقاع بي في مصلحة المعلم ؟ ورحت منذ تلك اللحظة أفكر وأحسّ مثل مجرم ، يراودني الشك في سائر الناس .

قال :

ـ سنبدأ الليلة .

فسألت ، وأنا لا أعترف ، بعدُ ، بمعرفة ما يحدثني عنه .

ـ ماذا ؟

فأعلـن :

ـ لا تخف . إن المعلم يثق فيك . لقد ذهب لزيارة بعض أصدقائه . وهناك من يراقبه ، بحيث يتصل بنا هاتفياً إذا رجع .

لم أكن أستطيع أن أتناول طعامي ، فتركته يبرد في الصحن أمامي ، والعرق يتصبب مني .

وراح يوضح لي بصوت خافت لين :

ـ إن طريقتنا في العمل كما يلي : سوف يأتيك فتى ويطلب منك عود كبريت ، فتعطيه خمس بطاقات تأخذها من الصندوق. هل فهمت ؟ وسوف نشير إليك متى يجب أن تتوقف عن إسقاط البطاقات في الصندوق . وسوف يعطي الفتى البطاقات الى تيل ، وهي تبيعها من جديد دفعة واحدة ، حين يكون هناك ازدحام على شباك التذاكر . هل فهمت جيداً ؟

لم أجب . كنت أعرف أني سأذهب إلى السجن إذا مـا

ضُبطت . لكن ، أليست حياتي منذ الآن نوعاً من السجن ؟ حقاً ، ما عساي أخسر ؟

واستفسر الفتى :

ـ هل أنت معنـا ؟

وبقيت معتصماً بالصمت . نهض ، ولطمني على كتفي وذهب. ورحت أرتجف في طريق عودتي إلى السينما . كل شيء ممكن الحدوث ، بيد أني اعتدت ذلك . ألم أشعر بذلك الاحساس نفسه حين رقدت على الأرض وراح الرجال البيض يتراكمون فوقي ، يخبرونني أنني زنجي محظوظ ؟ أوَ لم أشعر به حين عدت إلى البيت ذلك الصباح من شركة بيع النظارات وقد فقدت عملي ؟ أو لم أشعر به حين اجتزت ممر الفندق والحارس الليلي يصوب مسدسه إلى ظهري ؟ أو لم أشعر به مليون مرة قبل الآن ؟ ورحت أتناول البطاقات بأصابع تتصبب عرقاً ، وأتنظر . لقد كنت أقامر : إما الحرية وإما السجن ! وكنت أحسُّ في الأحايين أني لا أستطيع أن أتنفس . وتطلعت في أنحاء الشارع : إن المعلم غائب عن الأنظار . أيكون فخاً ؟ إذا كان فخاً بالفعل ، فإني سأشين عائلتي . أفلن يقولوا جميعاً إن تصرفي كان يقودني طوال الوقت إلى هذه الخاتمة ؟ أفلن ينبشوا الماضي ويجدوا دلائل أدت الى هذا المصير ؟

واقترب مني الرجل الذي التقيت به في المقهى ، ووضع تذكرة

في يــدي وهمس :

ــ هناك ازدحام عند الشباك • ضع جانباً عشر بطاقات لا خمساً • إبدأ بهذه البطاقة •

وفكرت : هذه العملية تسير • أعطاني البطاقة وجلس يتطلع إلى أشباح السينما المتحركة على الشاشة • وأطبقت على البطاقة وقــد توتر جسدي ، حاراً كالنار ، لكنني كنت اعتدت هــذا الشعور أيضاً • وزحف الزمن عبر حجيرات دماغي ، وآلمتني عضلاتي ، واكتشفت أن الجريمــة تعني العذاب والألــم • واقترب الجمهور وناولني مزيداً من البطاقات ، فاحتفظت بعشر منها مضغوطة في راحتي الرطبة • ولم يكد الزحام يخف حتى اقترب مني صبي أسود تتراقص بــين شفتيه لفافة مطفــأة ، واستفسر :

ــ ألديك عود كبريت ؟

أعطيته البطاقات بحركة بطيئة ، فخرج وأنا أراقبه من فرجة الباب الذي تركته مفتوحاً • واقترب من شباك التذاكر ووضع قطعة نقدية ، ورأيته يعطي الفتاة تلك البطاقات خفية • أجــل ، لقد كان الصبي شريفاً • وأرسلت الفتاة إليّ ابتسامة سريعــة ، فعدت إلى مكاني في الداخل • ولم تمض برهة حتى كان زبائن جدد يناولونني البطاقات نفسها •

طبقنا هذه العملية طوال أسبوع ، وبعدما قسم المال إلى

أربع حصص كان نصيبي خمسين دولاراً • إن الحريـة أصبحت في متناول يدي تقريباً • أيجب أن أخاطر من جديد ؟ وألمحت لصديق تيل أني ربما سأرحل ، ولم أفعل ذلـك إلا بصـورة عابرة ، وبغيتي من ذلك اختباره ، فإذا هو يستشيط غضباً ، مما جعلني أقبل على الفور بالبقاء ، خوفاً أن يشي بي أحدهم انتقاماً وتشفياً ، أو يبعدوني من الطريق بحيث يستطيـع أن يأخذ مكاني صبي آخر أنين عريكة مني • كنت أتعامل مـع أناس نهمين ، ولا بدّ لي أن أكون نهماً •

وثابرت أسبوعاً ثانياً ، لكنني قررت ذات ليلة أن أجعـل من هذا الأسبوع الثاني الأسبوع الأخير • وتذكرت البندقيـة في خزانة الجار ، وأوعية الثمار المحفوظة في مخزن المدرسة • إذا سرقت هذه الأشياء وبعتها ، فسوف أحصل على ما يكفي من المال لإيصالي إلى ممفيس ، وسدّ رمقي ريثما أجد عملاً ، وأشتغل ، وأقتصد ، وأذهب شمالاً • وزحفت من سريـري ووجدت دار الجار مقفرة • وتطلعت حوالي ، فإذا كل شيء هادىء ، وراح قلبي يطرق بسرعة عظيمة حتى آلمني • وفتحت إحدى النوافذ بمفكٍ ، ودخلت وتناولت البندقية ، وأزلقتهـا داخل بنطالي وعدت أدراجي • وحين أخرجتها لألقي عليهـا نظرة ، كانت رطبة بالعرق المنسكب عليها • ولقد رهنتها تحت اسم مستعار •

وفي الليلة التالية أقنعت صبيين من معارفي بأن يكونا على استعداد للمغامرة . ودخلنا عنوة إلى مخزن المدرسة ، وشحنا عدداً كبيراً من أوعية الثمار المحفوظة ، وبعناها لأصحاب المطاعم .

وفي أثناء ذلك ابتعت ثياباً ، وأحذية ، وحقيبة ، وأخفيتها جميعاً في البيت . وفي مساء السبت بعثت أخبر المعلم أني مريض . وكان الخال توم في الطابق العلوي ، وجدتي والعمة أدي في الكنيسة . وكان أخي نائماً . وكانت أمي جالسة في مقعدها الهزاز ، تحدث نفسها .

هيأت حقيبتي واتجهت صوبها ، وهمست :

ـ ماما ، إني راحل .

فقالت محتجة :

ـ أوه ، كلا .

ـ يجب أن أذهب ، يا ماما . لا أستطيع أن أعيش هذه الحياة .

ـ أنت لا تفرّ من أمرٍ ارتكبته ؟

ـ سوف أرسل في طلبك ، ياماما . سيكون كل شيء على ما يرام .

فقالت :

ـ اعتن بنفسك ، وأرسل في طلبي سريعاً ، فأنا لست سعيدة

ههنـــا .

ـ إني آسف من أجل كل هذه السنوات الطويلة ، ياماما . لكني ما كنت أستطيع شيئاً .

قبّلتها ، فانثالت تبكي .

قلت :

ـ اهدئي ، يا ماما . إني في خير .

خرجت من الباب الخلفي ومشيت ربع ميل تقريباً حتى المحطة ،فأمطرت السماء غزيراً ، بحيث ما وصلت المحطة إلا وقد اخترقتني المياه حتى الجلد . وابتعت تذكرتي ، ثم مضيت سريعاً إلى زاوية البناء حيث تقوم السينما . أجل ، لقــد كان المعلم هناك ، يتناول البطاقات بنفسه . ورجعت أدراجي الى المحطة ، وقبعت أنتظر قطاري ، وعيناي تراقبان الزحام .

بعد ساعة كنت أجلس في مقعدي ، متوجهاً بسرعــة نحو الشمال ، قائماً بأول قفزة في رحلتي إلى أرض حيث أستطيع أن أعيش في شيء أقل من الخوف . وراح العبء الذي حملتــه شهوراً طويلة يخفّ نوعاً ما بصورة بطيئة . وحكني خداي ، وحين رفعت يدي أحكهما وجدت دموعاً تترقرقعليهما . وأدركت في تلك اللحظة مقدار الألم الذي يرافق الجريمة ، فترجيت ألا أضطر في المستقبل إلى الإحساس به مرة أخرى . ولم أحسّــه مرة أخرى قط ، لأني لم أسرق بعد ذلك مطلقاً ، وكان ما منعني

عن ذلك هو معرفتي بأن الجريمة تحمل معها ، بالنسبة إلـيّ ، عقوبتها الخاصة .

وقلـت في نفسي ، حسناً ، هـذه حياتي ، وسوف أرى ما عساني أفعل بهـا ...





١١

وصلت ممفيس في صباح أحد بارد من تشرين الثاني ، عام ١٩٢٥ ، وجررتُ حقيبتي على طول أرصفة هادئة فارغة تحت شمس الشتاء . ووجدت شارع بيل ، الشارع الذي أخبروني أنه يعجّ بالأخطار : نشالون ، عاهرات ، قتلة ، ورجال سود رعاع . ووقع بصري ، بعدما اجتزت عدة بنايات ، على بيت كبير يحمل لوحة على نافذة منه كتب عليها : « غرف » .وتباطأت،

متسائلاً : هل هو بيت للسكن ، أو بيت للعاهرات ؟

كنت قد سمعت عن الأخطار الحمقاء التي يرتكبها صبية المدن الصغيرة حينما يهبطون المدن الكبرى ، فأردت أن أكون حذراً . واجتزت البيت حتى آخر البناية ، ثم استدرتُ ورجعت أسير على مهل . حسناً ، مهما يكُ الأمر ، فسأبقى فيه يوماً أو يومين ، حتى أعثر على مكان أكون على يقين منه . ولم يكن في حقيبتي شيء ثمين . كانت نقودي مربوطة إلى جسدي ، ولا بدَّ لمن يفكر في الحصول عليها أن يقتلني .

رقيت الدرج ، وكنت بسبيل أن أقرع الجرس حينما شاهدت امرأة كبيرة الحجم خلاسية تحملق فيَّ عبر النافذة . وقلت في نفسي :

ــ آه ، يا للجحيم ! « هذا » بيت عاهرات ..

وتوقفت . وتبسمت المرأة ، فاستدرت وعدت أدراجي حتى الرصيف ، وما أن حاذيت الشارع حتى رجّعت بصري في الوقت المناسب لأرى وجه المرأة يغادر النافذة . وظهرت بعد لحظة على الباب ، ونادتني :

ــ تعال هنا ، يا صبيّ !

فترددتُ . ياللعنة ، لقد دخلت بيتاً للزنا ..

أمرتني بصوت عال :

ــ تعال هنا ، يا صبي . لن أؤذيك .

فاستدرت وسرت رويداً إليها •

قالت :

ــ أدخــل •

فحملقت فيها لحظة ، ثم مرقت إلى ممشى دافىء • وتبسمت المرأة ، وأشعلت النور ، ونظرت إليَّ من رأسي إلى قدمي •

سألت :

ــ لماذا مررت بهذا البيت عــدة مرات ؟

ــ كنت أبحث عن غرفة •

ــ أفلم ترَ اللوحــة ؟

ــ أجــل ، يا سيــدتي •

ــ لماذا لم تدخل إذن ؟

ــ حسناً ، لست أدري • أنت ترين ، أنا غريب ههنا •

فتهالكت بثقل على أحد المقاعد ، وغرقت في ثورة مــن الضحك جعلت صدرها الضخم يرتجُّ فكأنها ستطير :

ــ يا الله ، أفلا أعرف هذا !

ونهشت ، وضحكت ، ولجأت إلى الصمت • قالت :

ــ يستطيع أي كان أن يرى ذلك • إني السيدة موس •

فأخبرتها باسمي •

قالت بعد لحظة من التفكير الجدي :

ــ إنه اسم حلو حقاً •

فطرفت بعينيّ . ترى ، ما عسى أن يكون هذا المكان ؟
ومن تكون هذه المرأة ؟ وانتصبت وحقيبتي في يدي ، عازماً
على الرحيل .

قالت أخيراً :

ــ يا صبي ، يا الله ، هذا ليس بيتاً للزنا . إن الناس يتوهمون
أبداً أموراً عن شارع بيل . إني أملك هذا المكان . إنه بيتي .
وأنا عضوة في الكنيسة . ولي ابنة في السابعة عشرة من العمر ،
وحق الله إني علمتها أن تسير في الصراط المستقيم . أجلس ،
يا بنيّ . فأنت في أمان هنا .

فضحكت وجلست :

سألت :

ــ من أين أنت ؟

ــ من جاكسون ، ولاية الميسيسيبي .

وعقبت :

ــ إنك لأنبه سلوكاً من أن تكون من هنالك حقاً .

ــ إن في جاكسون نبهاء .

ــ إذا كان هذا حقاً ، فينبغي أن أرى بعضاً منهم . إن
معظمهم لا يستطيعون الكلام ، بل يقفون برؤوس محنية ،
وقدم فوق أخرى ، وتعال خمّن ماذا يريدون أن يقولوا .

لقد هدأ الآن روعي ، ولقد أحببتها .

ومضت تقول بلطف وصراحة ، فكأنها تعرفني منذ عديد السنوات :

ــ زوجي يعمل في فرن . ونحن نؤجر غرفنا ليمدّنا ذلك بالمساعدة . نحن ناس بسطاء هنا . ويمكنك أن تسمي هذا بيتاً ، إذا شئت . إن الأجرة ثلاثة دولارات .

ــ هذا أجر مرتفع قليلاً .

ــ إذن أعطني دولارين ونصف دولار ريثما تجد عملاً .

فقبلتُ . وأرتني غرفتي ، فوضعت حقيبتي أرضاً .

سألت :

ــ إنك هارب ، أليس كذلك ؟

فصحت في دهشة :

ــ كيف عرفت ؟

ــ يا صبي ، إن قلبك أشبه بكتاب مفتوح . وأنا أعرف الأمور . إن كثرة من الصبيان يهربون إلى ممفيس من بلدانهم الصغيرة ، يحسبون أن الحياة سهلة هنا ، لكن يجدونها غير ذلك .

ونظرت إليّ مستقصية :

ــ أتسكر ؟

ــ أوه ، كلا ، يا سيدتي .

ــ لم أقصد سوءاً ، يا بنيّ . أردت أن أعرف فقط . تستطيع

أن تشرب هنا ، إذا شئت . لكن لا تجعل من نفسك أحمق . وتستطيع أن تأتي بفتاتك إلى هنا أيضاً . إفعل ما يحلو لك ، لكن كن محتشماً .

جلست على حافة السرير وحدقت فيها مشدوهاً . كان ذلك في شارع بيل المشهور بسوء السمعة في ممفيس حيث لقيت ألطف وأحنَّ شخص عرفته حتى الآن ، وحيث اكتشفت أن الكائنات البشرية ليست جميعاً وضيعة مسوقة ، ليست جميعاً متعصبة مثل أفراد عائلتي .

قالت :

ــ تستطيع تناول الطعام معنا حينما نرجع من الكنيسة .

ــ شكراً . لأحبّ ذلك .

ــ لعلك تريد الذهاب معنا إلى الكنيسة ؟

فقلت :

ــ حسناً ...

قالت ، وهي تغلق الباب :

ــ والآن ، أنت منهك القوى .

تمددت على السرير وطربت في إحساسي البهيج بأني أعيش حلماً ما أكثر ما حننت إليه . كنت أبداً أجفل باطنياً من ذلك الرعب المرهق الذي حسبت أني سأشعر به في بلدة غريبة ، وهذا أنا وقد وجدت بيتاً يضم قوماً صدوقين . وترهّلت بكليتي ،

ورحت آهوّم لأنام ، إذ لم أكن قد أغمضت عيني طوال ليال عديدة . واستفقت بعد ذلك باتنفاضة فجائية ، متذكراً الرعب والتوتر اللذين رافقا وقوعي في الجريمة . حسناً ، لقد ذهب ذلك كله الآن . وأستطيع البداية من جديد . ولم أكن أحب أن أشعر بالتوتر والخوف . كنت أريد شيئاً آخر ، أن أكون إنسانياً ، أن يضمني شيء ذو معنى . إنما ينبغي أولاً أن أحصل على عمل .

نادتني السيدة موس في ساعة متأخرة من عصر ذلك اليوم للعشاء ، وقدمتني إلى ابنتها بِس التي أحببتها فوراً . كانت صغيرة ، بسيطة ، حلوة ، سمراء اللون . واعتذرت السيدة موس عن زوجها ، الذي لما يبرح في العمل . لماذا تعاملني بمثل هذا اللطف ؟ لقد جعلني ذلك أشعر بقيمتي . وكنا نأكل الفاكهة حينما تكلمت بس .

قالت :

ـ لقد روت لي أمي كل شيء عنك .

فأجبت :

ـ أخشى ألا يكون هناك شيء كثير يروى .

وقالت بس ضاحكة :

ـ قالت إنك كنت تصعد الشارع وتهبطه أمام البيت ، فلا تعرف هل ينبغي أن تدخل . ما عساك حسبت أن يكون هذا

المكـــان ؟

فأحنيت رأسي وتبسمت . وغرقت السيدة موس في عاصفة من الضحك ، وغادرت الغرفة .

قالت بس :

ــ وقالت أمي إنها عالنت نفسها حالما رأتك تطل في الشارع حاملاً حقيبتك : « هذا الصبي يفتش عن بيت نظيف ينزل فيه » . إن أمي خبيرة في معرفة شعور الناس .

فأعلنت ، وأنا أساعد بس في غسل الصحون :

ــ يبـــدو أنها كذلك .

قالت بس :

ــ تستطيع مشاركتنا في الطعام في أي وقت تشاء .

فرددت :

ــ شكراً . لكنني لا أستطيع .

فاستفهمت بس :

ــ لماذا ؟ لدينا وفرة منه .

ــ أعرف . لكن على الرجل أن يدفع ما يتوجب عليه .

فقالت بس راضية :

ــ قالت أمي إنك ستكون من هذا الطراز .

ورجعت السيدة موس إلى المطهى . أعلنت :

ــ إن بس ستتزوج قريباً .

قلت :

ــ تهانيَّ ! من الرجل السعيد ؟

فأعلنت بس :

ــ أوه ، لم أحصل على واحد بعد ٠

فدهشت ٠ وضحكت السيدة موس ولكزتني بمرفقها ٠ قالت :

ــ يجب على الفتيات أن يتزوجن وهنّ صغيرات ٠ والآن ، إذا صادفت بس شاباً مثلك « أنتَ » ، يا ريتشارد ٠٠٠

فزعقت بس ، وهي تخفي وجهها بمنشفة الصحون :

ــ ماما ؟

قالت السيدة موس :

ــ أنا أعني ذلك ٠ إن ريتشارد ليفضل كثيراً أولئك الزنوج الجهلة الذين تتراكضين خلفهم في المدرسة ٠

فنظرت الى إحداهما ثم الى الأخرى ٠ ماذا يجري هنا ؟ إنهما تكادان ألا تعرفاني ! فالبيت لم يضمني إلا منذ ساعات معدودة ٠

قالت السيدة موس :

ــ حين وقعت عيناي على هذا الصبي في الشارع هذا الصباح ، خاطبتُ نفسي قائلة : « هذا الصبي يصلح لِبِسْ » ٠

وتقدمت بس مني وأسندت رأسها على كتفي ٠ لقد صُعقتُ ٠

كيف يمكن أن تتصرف هكذا ، بحق الاله ؟!

وتوسلت بس مازحة :

ــ ماما ، كفى!

فنبرت السيدة موس :

ــ إني أعني ذلك . ريتشارد ، إني قلقة بشأن اليدين اللتين سيؤول هذا البيت إليهما . فأنا لم يعد لي طويل زمن في هذا العالم العجوز .

قلت ، مضطرباً :

ــ ستجد بس فتىً يحبها .

فردت السيدة موس ، وهي تهزُّ رأسها :

ــ لست واثقة .

قالت بس ، مبتسمة ، دافنة وجهها بين يديها :

ــ سأسبقكما .

وركضت ...

وخطت السيدة موس صوبي وتكلمت كمن يفشي سراً :

ــ الفتيات شيء مضحك . يجب أن يُروَّضن ، مثل الحيوانات المتوحشة تماماً .

فقلت ، وأنا أمسح المائدة ، وفكري يعمل باحتدام ، وأنا لا أريد أن أنغمس مع العائلة عميقاً :

ــ إنها على خير ما يرام .

وسالتني السيدة موس على حين بغتة :

ــ أتعجبك بس ، يا ريتشـــارد ؟

تحملقت فيها ، غير مصدق أذني •

قلت متردداً :

ــ لم يمضِ عليّ في هذا البيت غير ساعات معدودة • إنها فتاة رائعـــة •

فاستوضحت مصرّةً :

ــ أنظر ، كنت أقصد هل « أعجبتك » ؟ هل يمكـــن أن « تحبها » ؟

فحدقت إلى السيدة موس ، متسائلاً عما إذا كان ثمة أمر غير طبيعي قـــد تعرضت بس له • أي نوع مـــن الناس هـــؤلاء ؟

قلت جاداً :

ــ أتتم ، أيها الناس ، لا تعرفونني • وقبل خمس ساعات لم أكن موجوداً بالنسبة إليـكم •

ثم قذفتها بهـــذه الكلمـــات :

ــ قد أكون لصاً أو شيئاً من هذا القبيل •

فقالت مؤكدة :

ــ يابنيّ ، إني أعرفك •

وقلت في نفسي ، أوه ، أيها المسيح ! يجب أن أبرح هـــذا

المكـان •

قالت السيـدة موس :

ـ اسبقني مع بس •

قلـت :

ـ أنظري ، أيتها السيدة موس • إني شخص فقير مغمور •

فردّت :

ـ إن فيك شيئاً أحبه • فالمال ليس كل شيء • أنت تحمل قلباً مسيحياً طيباً ، وهذا ما لا يحمله الجميع •

فانتفضت ، وأدرت رأسي جانباً • كانت بساطتها الساذجة طاغية • وأحسست كأني متهم بذنب ما •

وتابعـت :

ـ لقد عملت عشريـن عاماً واشتريت هذا المنزل بنفسي • وأكون سعيدة لما أموت إذا فكرت أن لبِس زوجاً مثلك •

وانفجرت بس بضحكة احتجاج من الغرفة الأمامية :

ـ أوه ، أماه !

ودلفت إلى غرفة دافئة أنيقة وجلست على المتكأ • كـانت بس مقتعدة دكة صغيرة ، ترسل بصرها من النافذة • كيف يجب أن أتصرف حيال هذه الفتاة ؟ لم أكن أريد الانجرار إلى شيء لا أريـده ، وكذلك لم أكن أرغـب في جرح شعـور أي شخص كـان •

قالت بس :

ـ أفلا تحب أن تجلس ههنا معي ؟

فنهضت ، وجلست معها . ولم يتكلم أيٌ منا لفترة طويلة .

قالت بس :

ـ إني في مثل عمرك . فأنا في السابعة عشرة .

فسألت ، وفي نيتي أن أفتتح الحديث :

ـ أتذهبين إلى المدرسة ؟

ـ نعم . أتريد رؤية كتبي ؟

ونهضت ، وحملت لي حقيبتها المدرسية . ورأيت أنها في الصف الخامس .

قالت ، وهي تهز رأسها :

ـ لست جيدة في المدرسة . لكنني لا أُبالي .

قلت محاذراً :

ـ حسناً ، إن للمدرسة أهمية كبيرة ، كما تعلمين ؟

فنبرت بقوة :

ـ الحب هو الأمر الهام .

فتساءلت عما إذا كانت مجنونة . إن سلوك الأم والابنة ليناقض كلّ ما شاهدت وعرفت حتى الآن . ودخلت السيدة موس الغرفة .

قلت ، محاولاً الخلاص منهما :

ـ أظنني سأخرج للبحث عن عمـل •

فأوضحت السيدة موس :

ـ في يوم أحد ؟ انتظر حتى صباح الغد •

ـ لكن في استطاعتي ، على أية حال ، التعرف إلى الطرقات هـذه الليلة •

فأعلنت السيـدة موس بعد لحظـة تردد :

ـ هذه فكرة حسنة حقاً • أترين ، يا بس ؟ هذا الصبي يُعمـل فكره •

فأحسست حرجاً ، وارتباكاً ، وأنه لا بدَّ لي أن أقـول شيئـاً :

ـ سأكون مسرورا بمسـاعدتك في دروسك ، يا بس •

فسألت ، متشككة :

ـ أتظن أنك قادر ؟

ـ حسناً ، لقد اشتغلت بالتدريس السنة الماضية •

فنبرت السيدة موس في نغمة تقطر عسلاً :

ـ والآن ، أفليس هذا رائعاً ؟

سعيت إلى غرفتي واستلقيت على سريري ، وحاولت سبر غور هذا البيت الذي نزلتُ فيه • لم أكُ أشك في أنهما جادتان في أحاديثهما • أتراهما تغضبان مني حينما تعلمان أن حيـاتي

تنأى بملايين الأميال عن حياتيهما ؟ كيف يمكنني تجنب ذلك ؟ وهل من الحكمة أن أبقى مع فتاة في السابعة عشرة تحنُّ إلى الزواج ، ومع أمٍّ قلقة تسعى إلى تزويجها مني ؟ وماذا شاهدتا فيَّ حتى جعلهما تتصرفان معي على هذا الغرار ؟ ليست ثيابي حسنة . صحيح ، إن لي أخلاقاً ، وهي أخلاق حفرت فيَّ في البيت ، وفي المدرسة ، أخلاق دُفعت فيَّ دفعاً أثناء الأعمال المختلفة التي اشتغلت فيها . لكن أي إنسان يمكن أن يكون له مثل هذه الأخلاق . ولقد تعلمت أن أعرف هؤلاء الناس في خمس ساعات أفضل مما تعلمت أن أعرف عائلتي في خمس سنوات .

وفيما بعد ، حين أصبحت أفهم عقلية بس وأمها الفلاحية ، أدركت حتى أية درجة فصلتني حياتي في البيت ، ليس عن الناس البيض فحسب ، بل عن الزنوج أيضاً . كان المال ، بالنسبة إلى بس وأمها ، ذا أهمية كبرى ، بيد أنهما لا تُحمِّلان نفسيهما فوق طاقتهما للحصول عليه . إنهما لا تعرفان التوتر ، ولواعج الحنين اللاهبة ، والرغبة في القيام بأي شيء لإعتاق نفسيهما . وكانت القيمة الرئيسية في حياتهما هي العيش البسيط ، النظيف، الحسن . ولما حسبتا أنهما عثرتا على تلك الصفات عينها مصوغة في أحد أفراد عرقهما ، فقد احتضنتاه بصورة غريزية ، وأحبتاه ، ولم تطرحا أية أسئلة على الاطلاق . لكن تلك الثقة البسيطة

غير المتصنعة قد بغتتني • لقد كانت مستحيلة •

سرت هابطاً شارع بيل ودلفت إلى قلب ممفيس • كـان جسدي نحيلاً ، ومعطفي ممزقاً ، وكل هبة من ريح تجمّد دمي • ورأيت في شارع مين لوحة في نافذة مقهى :

نريد غسال صحون

فدخلت ، واتصلت بالمدير ، فاستأجرني للعمل على أن أباشر فيه الليلة التالية • كان الأجر عشرة دولارات للأسبوع الأول ، ثم اثني عشر دولاراً بعد ذلك •

قلت له :

ـ لا تتفق مع سواي • سأكون هنا •

وكان يحقُّ لي تناول وقعتين في المقهى • لكن، كيف يمكن أن آكل في النهار ؟ ودخلت مخزناً واشتريت علبة لحم خنزير وفاصولياء ، ومفتاحاً للعلب • حسناً ، لقد حُلَّت المعضلة • سأدفع دولارين ونصف في الأسبوع أجراً لغرفتي ، وسأحتفظ بالباقي لرحلتي إلى شيكاغو • كانت جميع أفكاري وحركـاتي تمليها عليّ آمال بعيـدة •

ودهشت السيدة موس حينما أخبرتهـا أني عثرت على عمـل •

قالـت :

ـ أترين ، يابس ؟ لقد وجد هذا الفتى عملاً في يومه الأول

هنا • هذا تقدم حقاً • إنه سيؤول إلى شيء ما • فهو لا يجلس ويتثاءب ، بل يتحرك •

وتبسمت بس لي • وتراءى أن كل حركة آتيها تستبيها • وصعدت السيدة موس إلى سريرها في الطابق الثاني ، فتملكني الاضطراب •

قالت بس :

ـ دعني أعلّق معطفـك •

وأخذت معطفي فأحست العلبة في جيبي ، فسألت :

ـ ماذا تحمل هنا ؟

فهمهمتُ ، محاولاً استرداد المعطف منها :

ـ أوه ، لا شـيء •

وأخرجت الفاصولياء وفتّاحة العلب ، فاتسعت عيناها شفقـةً •

استوضحتني :

ـ ريتشـارد ، أنت جائع ، أليس كذلك ؟

فجمجمت :

ـ كـلا •

ـ فلنأكل إذن بعض الفراخ •

ـ أوه ، حسناً •

وركضت بس إلى الممر • نادت :

ـ آمـاه !

فسعلتُ ، عارفاً أنها ستخبر السيدة موس كيف كنت أريد أن آكل من طعام العلب ، شاعراً بالخجل يجتاح قلبي :

ـ لا تزعجيهـا .

وتثنت عضلاتي استعـداداً لضربها .

ونزلت السيدة موس في ثوبهـا البيتي .

قالت بس ، وهي تريها العلبـة :

ـ أماه ، أنظري ماذا كان ريتشارد سيفعل . كان سيـأكل هذه في غرفتـه .

فأعلنت السيدة موس :

ـ يا الله ، يا صبي . يجب ألا تفعل هذا .

قلـت :

ـ لقـد اعتدتـه . يجب أن أدّخر مالاً .

فقالت :

ـ إني لن أتركك تأكل من العلب في بيتي . ولست مضطراً أن تدفع لي ثمن الطعام . أدخل المطبخ وكُلْ . وهذا كل شيء .

فقلت :

ـ لكنني لن أوسخ غرفتك بالعلبة .

فقالت السيـدة موس :

ـ لست أقصد هذا ، يا بنيَّ . لماذا تريد أن تأكل من العلب،

في حين تستطيع الجلوس معنا إلى المائدة ؟

فأعلنت :

ـ لست أنوي أن أكون عبئاً على أي إنسان .

فأثارت السيدة موس نظرها إليَّ ، ثم رفعت رأسها وبكت . لقد صُعقت . ما كنت أصدق أن أفعالي وأسلوب حياتي يمكن أن تبكي أي امرىء كان . وأثار الخجل الغضب في قلبي .

قالت :

ـ أنت لم تعرف الحياة البيتية . وإني لأرثي لك .

فتوترت أعضائي . لم أحب ذلك ؛ فهي تتدخل في حياتي الداخلية ، حيث هذه الحياة متقرحة موجعة . ولم أكن أريد أن يكون هناك أي امرىء كان .

غمغمتُ :

ـ إني على خير حال .

فهزّت السيدة موس رأسها وصعدت السلّم من جديد . وتنهدت ، وأنا أخاف أن تكون هذه العائلة قد شدّدت قبضتها عليَّ . وتناولت الفراخ مع بس ، لكن دون شهية كبيرة . كانت بس ترنو إليَّ بعينين ذائبتين . وقفلنا إلى الغرفة الأمامية .

همست في أذني :

ـ أريد أن أتزوج .

فرددت ، متوتراً مضطرباً :

ـ لا يبرح أمامك وقت طويل لـذلك .

فصرّحت :

ـ أريـد أن أتزوج الآن . أريد الحب .

لم أكن صادفت حتى الآن إنساناً مثلها ، صريحاً ، طلقـاً حتى هذه الدرجة في التعبير عن شعـوره .

سألتني ، وهي تنهض وتتجه إلى طاولة وتلتقط مشطاً وتعود فتقف أمامي :

ـ أتعرف ما معنى هذا ؟

فحدقت في المشط ، ثم فيها هي .

سـألت :

ـ عمّ تتكلمـين ؟

فلم تجب . تبسمت ، ثم اقتربت مني ومدت المشط ولمست به رأسـي . فتراجعت .

ـ مـاذا تفعلـين ؟

فضحكت . وأدخلت المشط في شعري . ورجّعت فيهـا بصري ، محتاراً مرتبكاً .

قلت :

ـ لكن شعري لا يحتاج إلى تسريح .

فردت ، وما زالت تسرحني :

ـ أعرف ذلـك .

ـ لكـن ، فيمَ تفعلينه ؟

ـ لأني أريـد ذلك .

ـ وما معنى هـذا ؟

فضحكت من جديد . حاولت أن أنهض ، فأمسكـت بي من ذراعي . وأعادتني إلى المقعـد .

قالـت :

ـ إن لك شعراً رائعاً .

ـ إنه شعر زنجي عادي .

فأعادت القـول :

ـ إنه شعر رائـع .

واستفسرت من جـديد :

ـ لكـن ، فيمَ تسرحينني ؟

قـالت :

ـ أنت تـدري .

ـ لست أدري شيئاً .

فهزّت :

ـ لأني أحبـك .

ـ أهذه هي طريقتك في إخبـاري بهذا ؟

فـردت :

ـ إنها عادة • أنت تخدعني • أنت تعرف ، وكل إنسان يعرف • حينما تهوى فتاة رجلاً ، فهي تسرّح شعره •

قلت :

ـ أنت صغيرة بعد • فامنحي نفسك فرصة •

فسألت :

ـ أفلا تحبني ؟

ـ بلى ، ونحن صديقان •

فتنهدت :

ـ لكنني أريد أكثر من الصداقة •

أرعبتني بساطتها • إن الفتيات اللواتي عرفتُ كنّ قاسيات يحصين ويحسبن ، أولئك اللائي عملن في الفندق ، وأولئك اللائي صادفتُ في المدرسة • ولجأنا إلى الصمت برهة •

سألت :

ـ قل ، ماهي تلك الكتب التي في غرفتك ؟

فاستعلمتُ في صراحة لطيفة :

ـ هل دخلت غرفتي ؟

ماذا يمكنني أن أفعل بمثل هذه الفتاة ! أأنا أخرس أم هي بكماء ؟ وأحسست أن من السهل الدخول في صلات جنسية معها ، الأمر الذي أغراني • لكن ، ما عسى أن يحدث ؟ إن الحب لم يأتني ببساطة وسرعة وسهولة • وهي تتحدث عن

الزواج . هل يمكن أن أحدثها عن إحساسي ، عن آمالي ؟ وهل يمكن أن تفهم حياتي ؟ وماذا عندي سوى الجنس لأقاسمها إياه ، وماذا عندها ؟ لكنني أدركت أن تلك الأسئلة لم تزعجها . لم أكن أحبها ، ولم أكن أرغب في الزواج منها . والبيت الذي هو ثمن هذا الزواج لم يُغوني . ومع ذلك جلستُ إلى جانبها ، أحسّ أن جاذبية جسدها تعظم وتزداد فيّ عمقاً . ماذا لو تركتها حبْلى ؟ كنت واثقا أن الخوف من الحمل لا يضايقها . ولعلها تودّ أن تصبح كذلك . لقد جئتُ من بيتٍ المشاعرُ مكبوتة فيه ، اللهم إلا في حالات الغضب أو الخوف الديني ، حيث كل عضو من أفراد البيت يعيش سجيناً في عالمه الخاص الأسود ، فإذا النور الذي يشعُ من قلب هذه الطفلة ـ لأنها كانت طفلة بعد ـ يعميني .

ومالت عليّ وقبلتني . وخاطبتُ نفسي : يا للجحيم ! افعلها معها ، وإذا حدث شيء فارحل .. وقبلتها وداعبتها . كانت دافئة ، مشتاقة ، صبيانية ، مرنة . وطوّحت بذراعيها وساقيها حولي واحتضنتني بوحشية . وبدأت أتساءل كم لها من العمر .

سألتها هامساً :

ـ ماذا ستقول أمك ؟

ـ إنها نائمة .

ـ لكن ، ماذا لو رأتنا ؟

ـ لستُ أُبالي .

كانت مجنونة . من الواضح أنها كانت تتزوجني في تلك اللحظة ، دون أن تعرف عني أكثر مما تعرف .

قلت :

ـ فلنذهب إلى غرفتي .

ـ كلا . فأمي لن تحب ذلك .

كانت تسمح لي بأن أفعل بها ما أشاء في غرفتها الخاصة ، لكنها لا تريد أن أفعل ذلك بها في غرفتي . كانت مجنونة ، مجنونة تماماً .

لاحظت :

ـ أمي نائمة .

وبدأت أعتقد أنها رقدت مع كل صبي في البناية .

سألتني في همس :

ـ أتحبني ؟

فنظرتُ إليها ، وأنا أزداد يقيناً في كل لحظة من بساطة حياتها الكبيرة . هكذا كانت الحياة بالنسبة إليها ، بسيطة ، صريحة ... إنها بالضبط لا تعطي للكلمات ذات المعنى الذي أعطيها . وقبضت على يدي في خطفة قوية ، فنظرتُ إليها ولم أصدق وجودها .

قــالت :

ـ أحبــك .

فقلــت :

ـ لا تقولي هــذا .

ثم ندمت على هذه الكلمات .

وعادت تقــول :

ـ ولكنني أحبك فعلاً .

وأضحى صوتها صافياً واضحاً بحيث لم أعد أستطيع أن أشك فيها . وخاطبت نفسي : من أجل المسيح ! كانت الفتاة بسيطة بصورة تبعث على الذعر ، لكنها حيوية إلى درجة لم أعرفها بعد . أية حياة قد عشت تجعلُ واقع هذه الفتاة غريباً حتى هــذه الدرجة ؟ وجلست أفكر في الخالة أدي ، وفي وجهها الصــارم ، وفي طبيعتها المنفرة ، وفي تحفظها ، وفي جهادها العنيف كيمــا تكون صالحة قديسة .

قــالت :

ـ ســأكون زوجة جيــدة .

وأفلت يدي من يديها . ونظرت إليها وأردت أن أضحك أو أصفعها . وكنت على وشك إيلامها ، لكنني لم أرد ذلك . نهضت ، أوه ، يا للجحيم ! هذه الفتاة مجنونة .، سمعت نواحها فانحنيــت عليهــا .

همست :

ـ أنظري • أنت لا تعرفينني • فلنتعارف بصورة أفضل •

كانت عيناها متعبتين حائرتين • كان الحب على هذه البساطة بالنسبة إليها • وكان من الممكن أن يشتد أو يخمد في لحظة واحدة •

نشجت :

ـ أنت تفكر أني لا شيء •

فمددتُ يدي لألمسها ، لأحدثها ، لأحاول أن أخبرها عن حياتي ، عن مشاعري ، عن شكوكي ، فإذا هي تثب على قدميها •

انفجرت في همس لاهب :

ـ إني أكرهك •

وغادرت الغرفة راكضة •

أشعلت لفافة وجلست زمناً طويلاً • لم أحلم أن أحداً يمكن أن يقبلني كلياً بمثل هذه البساطة ، ودون سؤال ، أو على الأقل دون أدنى تنويه إلى شخصيتي • والحقيقة أني اعتدت ـ بالرغم من نضالي ضد ذلك ـ على قبول قيمة نفسي التي خلقتها في بيئتي القديمة ، وكنت أعتقد أن تلك هي البيئة الوحيدة • لقد تغيرت حياتي فجاءة • ولو أني التقيت ببس في إحدى مزارع الميسيسيبي لتوقعت منها أن تتصرف على ذلك الغرار • أما في

ممفيس ، وفي شارع بيل ، كيف يمكن أن يكون هناك مثل هذا الأمل ، هذا الاعتقاد ، هذا الإيمان بالآخرين ؟ وأردت أن أذهب إلى بس وأن أتحدث معها ، لكنني لم أكن أعرف ماذا يمكنني أن أقول لها .

ولما استفقت في الصباح التالي واستعدتُ ذكرى آمال بس الساذجة ، سررتُ لأن علبة لحم الخنزير والفاصولياء لا تزال عندي . إني لا أريد مواجهتها على مائدة الفطور . وارتديت ثيابي ، ثم جلست على حافة السرير بمعطفي وقبعتي وألقيت قدمي على مقعد . ورحت أخرج الفاصولياء بأصابعي وآكلها . وتسللت خارج البيت وأنا أسحب أنفاساً عميقة من لفافة ، وذهبت حتى حنفية الماء وجلست على أكمة من الأرض في الريح الباردة والشمس ، أرنو إلى القوارب في نهر الميسيسيبي . لسوف أستلم هذه الليلة عملي الجديد . وأنا أعرف كيف أدخر مالاً بفضل جوعي الطويل في ولاية الميسيسيبي . وكان قلبي مرتاحاً . فأنا الآن حرٌ أكثر من أي وقت آخر .

وجاءني صبي أسود . قال :

ــ مرحباً .

قلت :

ــ مرحباً .

سأل :

ـ ماذا تفعل في هذه الأيام .

فرددت :

ـ لا شيء . إني أنتظر الليل . لقد وجدتُ عملاً في مقهى .

فقال :

ـ هراء . إني أبحث عن رفيق !

كان يحاول التصرّف بقسوة ، فحسبت أنه معذب أيضاً .

ـ سأقفز إلى سفينة شحن وأمضي شمالاً .

سألته :

ـ لِمَ لا تقفز وحدك ؟

فكشر بعصبية .

استقصيتُ :

ـ هل هربتَ من بيتك ؟

قال :

ـ أجل . من أربع سنوات ...

ـ وماذا كنت تفعل ؟

ـ لا شيء .

كان ينبغي أن يثير الحذر فيّ ، لكنني لم أكُ حكيماً بأمور العالم والطريق .

وتحدث فترة طويلة ، ثم اتخذ سمته هابطاً ممراً يؤدي

إلى حافة النهر ، وهو يحاذي العشب الطويل . وتوقف الصبي فجـأة وأشار بيده .

ــ ما هــذا ؟

قلــت :

ــ يبــدو أنه علبــة شيء مــا .

رأيت علبــة يحجبها العشب الطويل نوعاً ما . واتجهنــا صوبها فألفيناها مــلأى بشيء ثقيل . ونزعت سدادتهــا وشممتهــا .

قلــت :

ــ هــذه البضاعة شــراب .

وشمّها الصبي فاتسعت عينــاه .

ــ ســأل :

ــ أتعتقــد أنّا نستطيــع بيعها ؟

فقلــت :

ــ لكــن ، لمــن هي ؟

قــال :

ــ أتمنى لو أستطيع بيعهــا .

فاقترحت :

ــ لربمــا كان يراقبنــا أحد .

وتطلعنــا حولنــا ، فلم نرَ أحداً .

قلت :

ــ هذه تخصُّ أحد المهربين .

فرد :

ــ فلنرَ إذا كان يمكننا بيعها .

قلت :

ــ إني لن آخذ هذه العلبة من هنا . قد يرانا رجال الشرطة .

فقال الصبي :

ــ إني في حاجة إلى المال . وستساعدني هذه على الطريق .

واتفقنا أن نبحث عن مشتر أبيض . ودلفنا الى الشوارع ورحنا نرقب السابلة البيض . وعثرنا أخيراً على شخص يجلس وحيداً في سيارته . فمضينا إليه .

قال الصبي :

ــ يا سيد ، لقد عثرنا على علبة كبيرة من الكحول هنالك بين العشب . أتريد شراءها ؟

فضيّق الرجل عينيه ودرسنا . سأل قائلاً :

ــ أهي شراب جيد ؟

قلت :

ــ لست أدري . تعال وانظر .

فسأل مرتاباً :

ــ أتنما ، أيها الزنجيان ، لستما تكذبان عليّ ، أليــس كــذلك ؟

قلت :

ــ تعــال . سأريك إياها .

واقتدنا الرجل الأبيض إلى الشراب . وفتح سدادةالزجاجة ، وشمها ، ثم تذوق رطوبة الفلينة .

قــال :

ــ يا للشيطــان !

ورنــا إلينــا :

ــ أوجدتما هذه هنا حقاً ؟

قلنا :

ــ أوه ، أجــل ، يا سيــدي .

فتنفس :

ــ إذا كنتما تكذبان ، فسأقتلكما ، أيها الزنجيان .

قلت :

ــ نحن نقــول الحقيقــة .

وانتصب ذلك الصبي بخراقــة يرنو إلينا . وتساءلت لــمَ لا يقول شيئاً . وحاولت بعض الأفكار الغامضة أن تشق دربها إلى عقلي الصبياني ، الكثيف الساذج . لكنها لم تتضح لي ، فطردتهــا .

قال الرجل الأبيض :

ـ أيها الصبيان ، احملا هذه العلبة إلى سيارتي •

كنت خائفاً ، لكن الصبي الآخر كان متلهفاً راغباً • وحملنا العلبة ، والرجل الأبيض يشجعنا ، حتى سيارته ووضعناها في مؤخرتها •

قال الرجل الأبيض ، وهو يناول الصبي ورقة من فئة الخمسة دولارات :

ـ إليك •

وانطلقت السيارة ، واستطعت أن أرى الرجل الأبيض يرنو حواليه قلقاً ، خائفاً من فخ • أو هكذا خيّل إليّ •

قال الصبي :

ـ فلنصرفها •

ـ حسناً ، سنقتسمها •

وأشار الصبي عبر الشارع • قال :

ـ ثمة مخزن هنالك • سأركض إليه وأصرفها •

فقلت عن طيبة قلب :

ـ حسناً •

وقعدت على الرصيف أنتظر ، بينا أسرع صاحبي في اتجاه المخزن ، لكنني كنت كثير الاطمئنان بحيث لم أراقبه • وشعرت بالانشراح • سأحصل على دولارين ونصف الدولار لعثوري

على علبة من المشروب • إني لسعيد الحظ حقاً • ففي الليلة الماضية طوّحت فتاة بنفسها بين ذراعيّ • وهذا كله حدث خلال ثمانٍ وأربعين ساعة من مغادرتي البيت • وأردت أن أضحك بصوت عالٍ • إن أشياء كثيرة يمكن أن تحدث للمرء حينما لا يكون في بيته • ورفعت رأسي أتنظر عودة الصبي • لكنني لم أعثر له على أثر • وقلت في نفسي ، وأنا أدفع أفكاراً أخرى كانت تحاول الانزلاق إلى فكري : من المؤكد أنه يتماهل • وانتظرت طويلاً ، ثم نهضت وأسرعت صوب المخزن واختلست النظر من النافذة • لم يك الصبي في الداخل • ودخلت وسألت صاحب المخزن عما إذا شاهد صبياً في مخزنه • قال :

ــ أجل • دخل صبي أسود إلى هنا ، وتطلع حواليه ،وخرج من الباب الخلفي • لقد ركض كالبرق • هل أخذ منك شيئاً ؟

ــ أجل •

فقال الرجل :

ــ حسناً ، سوف لن ترى ذلك الزنجي مرة ثانية •

وسرت على طول الشوارع تحت شمس الشتاء ، مفكراً : حسنٌ ، لقد كنت تستحق ذلك ، أيها الأحمق ! فلم يكن ثمة سبب يحملك على التدخل في أمر الكحول ذاك • ثم توقفت وأنا أكتشف هذا • لقد كانا شريكين ! الرجل الأبيض والصبي

الأسود بصرا بي أتباطأ في جوار بضاعتهما فاستخدماني فــي التخلص منها •

اقد وجدت الليلة الفائتة فتاة ساذجة • وهذا الصبــاح كنت بدوري فتى ساذجاً •



١٢

كنت أهيم في شوارع ممفيس دون هدف ، أحملق في البنايات السامقة علواً والسابلة المحتشدين ، وأقتل الوقت ، وآكل أكياساً من البوشار ، فإذا فكرة غريبة مفاجئة تخطر لي . ما دمت حاولت أن أشتغل لدى شركة بصريات في جاكسون وفشلت ، فلم لا أحاول العمل لدى شركة البصريات في ممفيس ؟ ولم تكن ممفيس بلدة صغيرة مثل جاكسون ؛ إنها مدينة .

وخطر لي أن ليس ثمة من يأبه لذلك الذنب الصغير الـذي ارتكبته في جاكسون ، فيحقد عليّ بسببه •

وبحثت عن عنوان شركة في الدليل ، ودخلت البناء بشجاعة ، وركبت المصعد مع صبي أسود شاحب مدور الجسم سمين يبلغ الخمس أقدام طولاً • ودخلت مكتباً في الطابق الخامس ، فنهض رجل أبيض لملاقاتي •

قـال :

ــ إخلع قبعتك •

فرددت ، وأنا أنزعها عن رأسي •

ــ أوه ، بلى ، يا سيـدي •

ــ ماذا تريـد ؟

ــ كنت أتساءل عما إذا كنتم في حاجة الى صبي • لقـد عملت في شركة بصريات فترة من الزمن في جاكسون •

فاستوضحني :

ــ ولمَ تركتهـا ؟

قلت صـادقاً :

ــ حصلت لي بعض المتاعب هنـاك •

ــ هـل سرقت شيئـاً ؟

ــ كلا ، يا سيـدي • لم يشأ شاب أبيض هناك أن أتعلـم تجارة البصريات ، فطردني من العمل •

ـ أدخل واجلس .

جلستُ وسردت عليه القصة من البداية إلى النهاية .

ـ سأكتب إلى السيد كرين . لكن لن يتاح لك فرصة تعلم مهنة البصريات هنا . فليس ذلك من سياستنا .

وأخبرته أني فهمت قصده ، وأني أقبل سياسته . واستأجرني مقابل ثمانية دولارات في الأسبوع مع الوعد بعلاوة دولار كل أسبوع حتى يصل أجري إلى عشرة دولارات . وبالرغم من أن هذا الأجر دون الأجر الذي عُرض عليَّ في المقهى ، فقد قبلت به . أعجبتني الطريقة الصريحة الشريفة التي تحدث بها الرجل إليَّ . وبالإضافة إلى ذلك تراءى لي المكان نظيفاً يحمل طابع العمل .

وعُهد إليَّ بإيصال الطلبات الى أصحابها وغسل النظارات الزجاجية بعدما تخرج من الآلات الملوثة بالحمرة . وكان عليَّ كل عشية أن أحمل الى مكتب البريد حزماً للعمل على شحنها . كان عملاً خفيفاً ، فكنت نشيطاً في القيام به . وعند الظهر كنت أضرب صفحاً عن غدائي وأنجز طلبات الرجال البيض الذين يعملون في المحل . كنت أبتاع لهم طعامهم ، وأحمل ثيابهم للتنظيف ، وأدفع عنهم فواتير الكهرباء ، والهاتف ، والغاز ، وأوصل رسائلهم إلى صديقاتهم من عاملات الاختزال في البنايات القريبة . وجمعت في اليوم الأول دولاراً ونصف دولار من

العطايا والهبات . وخبأت المال الذي بقي معي بعد رحلتي ، ونويت أن أعيش على ما أمنح من هبات .

وبدأت الآن أتعلم بسرعة السيطرة على التوتر الذي أحسّه في صلاتي مع البيض ، وكان الناس في ممفيس يتمتعون بطابع من اللطف والدماثة يخفّف كثيراً من حدة موقف البيض تجاه السود . كان ثمة حوالي عشرة أشخاص بيض في المحل القائم في الطابق السادس حيث كنت أقضي معظم وقتي ، وكانوا يختلفون بين أعضاء في جمعية الكو كلوكس كلان واليهود ، وبين المتصوفين والبيض الفقراء البسطاء . ورغم أني كنت أستشعر الكبرياء والحقد في موقفهم مني ، فإنهم لم يصرخوا في وجهي أو يذلوني قط . وكان من السهل عليّ أن أفكر في مشكلة العرق في المحل دون بلوغ تلك القمم من الخوف التي كانت تجتاحني . وتشرّبت ملاحظاتي للرجال والنساء البيض بنوع من الموضوعية ، إما لأني أصبحت أستطيع تحمّل مقدار من الجهد الذهني أعظم من السابق ، وإما لأني اكتشفت في أعمق أعماقي طرقاً لمعالجته وتصريفه .

ولما رجعت إلى بيت السيدة موس عشية نهار الاثنين ، دهشت حين علمت أني بدلت خططي وانخرطت في عمل جديد . وأطلعتها على بطاقة المصرف حيث أودعت المال وسردت عليها خطتي في ادخاره للاتيان بأمي إلى ممفيس . وبينا أنا أتحدث إليها حاولت

أن أكتشف ما إذا كانت بس قد حدثتها بشيء مما جرى بيننا ، لكن السيدة موس كانت لطيفة حنوناً مثلها أبداً .

وتفادتني بس ، فهي ترفض أن تحدثني حين نكون وحيدين . أما في حضرة أمها ، فهي مهذبة محتشمة . ولم تمضِ أيام عدة حتى جاءتني السيدة موس وفي وجهها نظرة حيرى .

ـ ماذا جرى بينك وبين بس ؟

فكذبت ، محترقاً خجلاً :

ـ لا شيء .

قالت :

ـ يبدو أنها لم تعد تحبك . أردتكما أن تتحابا .

ونظرت إليّ مستقصية :

ـ أفلا تحبها ؟

فلم أستطع أن أجيب أو أتطلع إليها . وتساءلت عما إذا كانت هي التي أوحت لبس أن تمنحني نفسها .

وتشدقت بكلامها ، متنهدة :

ـ حسناً ، أعتقد أن الناس يجب أن يحبوا بعضهم بعضاً بشكل طبيعي . ولا يمكن إرغامهم على ذلك .

وتدحرجت الدموع على وجنتيها :

ـ ستجد بس شخصاً آخر .

أرسل فيّ رجاؤها الساذج ، وقد امتلأت وعياً بضعف المرأة

وعجزها ، إحساساً بالخور •• وأخبرتني مرة وتكراراً أن بس تحبني ، تريدني • بل لقد اقترحت عليّ أن « جرّب بس وانظر إن أحببتها • ولا أذية في هذا » • فأثارت كلماتها فيّ رثاءً لها لا حدود لـه •

وأضحى الأمر أخيراً لا يطاق • رجعت ذات ليلة من عملي فوجدت السيدة موس جالسة إلى المصطلى في الصالة تهزّ رأسها • وطرفت بعينيها وتبسمت ، ثم استفسرت :

ـ كيف حالـك ، يا بنيّ ؟

ـ على خير ما يـرام •

ـ أفلم تصبح وبس صديقين أو شيئاً من هذا القبيـل بعـد ؟

فقلت بلطيف نغمـة :

ـ كـلا ، يا سيـدتي •

فسـألت :

ـ كيف يمكـن ألا تحب بس ؟

فبـدأت أغضب :

ـ أوه ، لست أدري •

ـ ألأنها ليست ذكية جـداً ؟

فكـذبت :

ـ كـلا ، يا سيـدتي • إن بس ذكيـة •

ـ إذن ، ما الأمر ؟

لكني لم أستطـع أن أجيبها .

استطـردت :

ـ تستطيع وبس أن تجعلا من هـذا المنزل بيتاً لكمـا . وتستطيعان إنجاب أولادكما هنا .

فقلت :

ـ لكنه لا بدّ للناس أن يجدوا طريقهم الخاصة التي تقود بعضهم إلى بعض .

فنبرت أخـيراً :

ـ الشبـاب لا يملكـون عقلاً هذه الأيام . لو رتـب أحدهم أموري يوم كنت فتاة ، لقبلتُ بها من دون ريب .

فقلت :

ـ يا سيـدة موس ، أعتقد أن من الأفضل أن أنتقـل مـن هنا .

فانفجرت :

ـ انتقل إذن ! فأنت عديم الفهم !

دخلت غرفتي وبدأت أحزم متاعي . ورنّ قرع على الباب ، ولما فتحته وجدت السيدة موس منتصبة على الوصيد تبكي .

أعلنت :

ـ يا بنيّ ، اصفح عني . أنا لم أقصد ذلك . إني لـن

أجرحك بأي ثمن كان • فأنت مثـــل ولدي •

ـ هـــذا حسن • لكن يفضل أن أتنقـــل •

فنـــاحت :

ـ كلا ! إذن ، فأنت لا تصفح عني ! حينما يطلب أحدهم الصفح ، فهو يعني ذلك !

فجفلت • وظهرت بس في الممر • قالت :

ـ لا ترحـــل ، يا ريتشـــارد •

وجهرت السيـــدة موس :

ـ ســـوف لن نزعجك بعـــد اليوم •

وذبلت ، واحترت ، وأسفت ، وخجلت • وأمسـكت السيدة موس يد بس واقتادتها بعيداً •

ركزت اهتمامي الآن لجمع ما يكفي من المال كيما أرسله إلى أمي وأخي • وكنت أدخر كلّ قرش أحصل عليه ، أضيّق على نفسي بالطعام ، وأغدو إلى العمل على قدميّ ، وآكل علـــى صحف من الورق ، وأعيش على كوب من الحليب وقرصـــين من الحلوى صباحاً ، وقطعة من الهامبرغر وبعض الفستـــق السوداني ظهراً ، وعلبة فاصولياء ألتهمها ليلاً في غرفتي • كنت قد ألفت الجوع ، فلست في حاجة إلى كثير من الطعام يبقيني على قيد الحياة •

إني أملك الآن من المال أكثر مما ملكـــت في أي يـــوم

مضى . وبدأت أتعامل مع مستودع للكتب المستعملة ، وبهذه الطريقة تعرفت على مجلات مثل « هاربرزماغازين » ، و « أتلانتيك منثلي » ، و «أميريكانميركوري» . كنتأشتريها بقروش معدودة ، فأقرؤها ، ثم أبيعها من جديدلصاحب المكتبة.

سألتني السيدة موس مرة عما أقرأ :

ـ لماذا تقرأ هذه الكتب جميعاً ، يا صبي ؟

ـ إني أحب ذلك .

ـ أتدرس الحقوق ؟

ـ كلا ، يا سيدتي .

ـ حسناً ، أعتقد أنك تعرف ما تفعل .

ورغم أني لم أك مضطراً أن أذهب إلى العمل قبل التاسعة صباحا ، فأنا أنطلق في الثامنة وأدخل فسحة المصرف ـ حيث أعرف البواب الزنجي ـ وأقرأ صحيفة ممفيس الصباحية « النداء التجاري » ، فأوفّر هكذا خمسة قروش كل يوم ، أصرفها على غدائي . وبعد القراءة ، أراقب البواب الأسود ينجز طقوسه الصباحية : يمسك ممسحة ، وسطلاً ، وبعض الصابون ، والماء ، ثم يقف بحركة درامائية ، ويرفع عينيه إلى السقف ، وينشد :

ـ يا الله ، هذا النهار ! أنا لا أزال أشتغل للسادة البيض .

ويظل يمسح حتى ينضح العرق منه . كان يكره عمله

ويتحدث على الدوام عن نيته في ترك العمل ليستلم عملاً آخر في مكتب البريـد •

وكان شورتي ، مستخدم المصعد السمين ، المدوَّر ، الشاحب ، أبرز الزنوج في مكان عملي • كانت له عينان صغيرتان كالخرز تبرزان من بين كتل اللحم ، وتحدقان بنظرة قاسية لكن مرحة ؛ وكان له لون صيني : جبهة قصيرة ، وثلاثة ذقون • وكان مـن الناحية النفسية نموذجاً محيّراً لزنوج الجنوب ، لم يسبق لي أن عرفته من قبل • كان عنيداً ، حساساً ، يقرأ المجلات والكتب ، فخوراً بعرقه ، ساخطاً على أخطائه • لكنه يمثل ، في حضـرة البيض ، دور مهرِّج من الطراز الحقير المنحط •

أعوزته الحاجة ذات يوم إلى خمسة وعشرين قرشاً ليبتـاع غـداء •

أخبرني ، وأنا أتخذ مكاني من المصعد ذلك الصباح :

ـ أنظر كيف سأحصل على ربع دولار من أول رجل أبيض أُصادفه •

ودخل المصعد رجل أبيض يعمل في البناية ذاتها ، وانتظر أن يرتفع به المصعد إلى طابقه • وأنشد شورتي في همهمة متضعة ، وهو يبتسم ، ويدوِّر عينيه ، ويحملـق في الرجل الأبيض بخبـث :

ـ إني جائع ، يا سيدي الرجل الأبيض • إني أحتـاح الى

خمسة وعشرين قرشاً لطعامي •

وتجاهله الرجل الأبيض ، فأنشد شورتي من جديد ، ويداه على جهاز قيادة المصعد :

ــ لن أحركـ هذا المصعد الملعون حتى أحصل على ربع دولار ، يا سيدي الرجل الأبيض •

قال الرجل الأبيض ، متجاهلاً كلامه ، ماضغاً سيجاره الأسود :

ــ إلى الجحيم ، يا شورتي •

فغنّى شورتي ، وهو يسحب كلماته ، ويتشدق بها من بين أسنانه :

ــ إني جائع ، يا سيدي الرجل الأبيض • وإني أموت في سبيل خمسة وعشرين قرشاً •

قال الرجل الأبيض ، وهو يبتسم قليلاً للمرة الأولى :

ــ إن لم تنقلني إلى طابقي فموتاً تموت •

فرتّل شورتي ، مقطباً وجهه ، مهرجاً ، متجاهلاً تهديد الرجل الأبيض :

ــ لكن ابن الكلبة الأسود هذا يحتاج إلى ربع دولار بكل تأكيد •

فنبر الرجل الأبيض ، وقد حيّره وأبهجه عنصر السادية في كلمات صاحبي :

ـ هيا ، أيها النـذل الأسود ، يجب أن أصـل إلى عملـي .

فأنّ شـورتي :

ـ ذلك يكلفك خمسة وعشرين قرشـاً ، يا سيدي الرجل الأبيض . خمسة وعشرون فقط ، قطعتان فقط .

وخيم الصمت . وضغط شورتي الزر فارتفع المصعدوتوقف قبل خمسة أقدام تقريباً من الطابق الذي يعمل فيه الرجـل الأبيـض .

قال شورتي في صوت أشبه بالبكاء :

ـ لا يمكن أن أصعد أكثر من ذلك ، يا سيدي الرجـل الأبيض ، ما لم أحصل على خمسة وعشرين قرشاً .

سأل الرجـل الأبيض مدهوشاً :

ـ وماذا ستفعل لتحصل عليها ؟

فأنشـد شورتي :

ـ سـأفعل أي شيء في سبيل ربع دولار .

استوضح الرجل الأبيض :

ـ ماذا ، مثلاً ؟

فضحك شورتي ، وتأرجح ، وانحنى ، وأبرزمؤخرتهالعريضة المترهلة .

رتل ، وهو يرنو إلى الرجل الأبيض من زاويتي عينيه :

ـ تستطيع أن ترفسني مقابل ربع دولار .

فضحك الرجل الأبيض برقة ، وخشخش ببعض قطع في جيبه ، وأخرج واحدة وأسقطها على الأرض . فانحنى شورتي ليلتقطها ، فعرى الرجل الأبيض أسنانه وطوّح بقدمه على ردف شورتي بكل قوة جسده . وأطلق شورتي ضحكة جاعرة رنّ وقعها علواً وهبوطاً في مجرى المصعد .

قال الرجل الأبيض ، وهو يبتسم بشفتين مطبقتين :

ـ والآن ، افتح الباب ، يا ابن الكلبة الأسود الملعون .

فأنشد شـــورتي :

ـ أمرررك ، سيييدي .

والتقط قطعة العملة وزقها في فمه ، وقال :

ـ لقد حصل هذا القرد على ما يريد .

فتح الباب فخرج الرجل الأبيض ورنا إلى شورتي وهـــو يتجه إلى مكتبه . قال :

ـ أنت على ما يرام ، يا شورتي ، يا ابن الكلبة .

فزعـــق شـــورتي :

ـ أعرف ذلـــك !

وأرسل صوته في نوعٍ من الضحك الوحشي .

رأيت هذا المشهد أو أمثاله عدة مرات ، ولم أشعر بغضب أو حقد ، بل باشمئزاز ونفور .

استوضحته مرة :

ـ كيف تستطيع هذا ، وحق الله ؟

فقال بوقار ، وبفخر :

ـ احتجت إلى خمسة وعشرين قرشاً وحصلت عليها .

أجبت :

ـ لكن الخمسة وعشرين قرشاً لا تشفع بما فعل بك .

فخاطبني :

ـ اسمع ، يا زنجي ، إن مؤخرتي قاسية ، وأرباع الدولار نادرة .

ولم أناقش ذلك الموضوع معه بعد ذلك قط .

كان ثمة زنوج آخرون يعملون في البناية : رجل عجوز يدعى أديسون ؛ وابنه جون ؛ وحارس ليلي يجيب على من يناديه ديف . وعند الظهيرة ، حين لم يكن لدي أي عمل ، كنت أنضم إلى الزنوج الآخرين في غرفة صغيرة في مقدمة البناية تطل على الشارع . ههنا ، في هذا الجيب البعيد عن العالم من البناية ، كنا نلتهم طعامنا ونناقش أساليب السادة البيض تجاه الزنوج . ولم يكن في إمكاننا ألا نتطرق إلى هذا الموضوع كلما تجاذب اثنان أو أكثر منا أطراف الحديث . كان كل منا يكره البيض ويخشاهم ، ومع ذلك فلو أن رجلاً أبيض أطل علينا بصورة مباغتة ، فقد كنا نلوذ بالصمت ، ونضع على شفاهنا

ابتسامة مطواعة .

كان البيض يشكلون في رأينا نوعاً من العالم العلوي ، وما ينطقون به في ساعات العمل كنا نعود فنجترّه هنا ونزنه ؛ كيف كان مظهرهم ، وماذا كانوا يرتدون ، وكيف كان مزاجهم ، ومن تفوق على من في الأعمال ، ومن يحل مكان من في عمل ما ، ومن يُسرح ومن يوظّف . بيد أننا لم نقل قط علناً ، حتى ولا مرة واحدة ، إننا لا نشغل في البناية سوى مراكز ثانوية . وكان حديثنا يقتصر على العلاقات الصغيرة التي تشكل لبّ الحياة بالنسبة إلينا .

بيد أن حساً كامناً من العنف كان يسبح خفيةً تحت مختلف أحاديثنا . لقد رسم البيض خطاً لا نجسر أن نخطو من فوقه ، وكنا نقبل بذلك الخط لأن خبزنا كان على كف عفريت . لكننا قد رسمنا نحن الآخرين خطاً ، ضمن الحدود الخاصة بنا ، وكان هذا الخط يتضمن حقنا في الخبز دون أي اعتبار لما تتعرض له من غضب وانحطاط في الحصول عليه .. وإذا سعى رجل أبيض أن يمنعنا من الحصول على عمل ، أو الاستمتاع بحقوقنا المدنية ، فقد كنا ننحني بسكون أمام سلطانه . أما إذا سعى لحرماننا من بنس تافه ، فلعل الدماء تسيل ما بيننا . وهكذا كانت حياتنا اليومية وثيقة الارتباط بالأهداف التافهة ، بحيث كان الاستسلام حين تفرض المعركة علينا يعني تنازلنا عن حقنا في

الحياة نفسها • كان غضبنا أشبه ما يكون بغضب الأطفال ، يمرُّ سراعاً من غم حقير إلى غم آخر ، ومن ذكرى أذية طفيفة إلى أخرى •

كان جون يسـأل ، وهو ينهش قطعة سندويش :

ـ أتعرف ما قال لي ابن الحرام أولين هذا الصباح ؟

فيستفسر شورتي :

ـ مـاذا ؟

فيعـود جون الى الكلام :

ـ لقد أعدت إليه المال الباقي بعد دفع حسابه عن مصروف الغاز ، فقال لي : « ضعه هنا في جيبي ، فيداي وسختان » هَهْ •• لقد وضعت المال على الدكة بجانبه فقط • إني لست عبداً شخصياً له ، وليلعنّي الله إذا أعدت ماله الى جيبه الخاص •

فيقول شـورتي :

ـ يا للجحيم ، إنك على حق تام •

فيقول العجوز أديسـون :

ـ إن الناس البيض لا يفكرون •

فيقول ديف ، البوّاب الليلي :

ـ في الحقيقة أنه لا بدَّ لك من اليقظة حيالهم •

(إن ديف ينام في الغرفة عادة على فراش حقير بعد الانتهـاء من عمله الليلي في التنظيف ، أما الآن فإن لديه موعداً مـع

صديقة له) .
وأقول بدوري :
ـ لقد أرسلني فولك لأكوي له بذلته ، ولم يعطني بنساً واحداً . قال لي إنه سيتذكر ذلك يوم القبض .
فيقول جون :
ـ أليست تلك مجرد حيلة ؟
فيعقّب شورتي :
ـ إنك لا تستطيع أن تأكل على ذاكرته .
فيقول العجوز أديسون :
ـ لكنه لا بدّ لكم من خدمتهم باستمرار . وإذا لم تفعلوا ، فإنهم لن يحبوكم .
فيقول شورتي :
ـ سوف أذهب الى الشمال في أحد هذه الأيام .
فنضحك جميعاً ، عارفين أن شورتي لن يرحل قط ، وأنه مدين كثيراً للبيض من أجل الخبز الذي يطعمه .
وأسأل شورتي :
ـ وما عساك تفعل هناك ، في الشمال ؟
فيقول شورتي :
ـ سوف أدعي أني صيني .
ونضحك من جديد ، وتمضي ساعة الغداء فنعود أدراجنا

إلى عملنا ، لكن وجوهنا ستكون خالية من أي أثر لذلك الشعور الذي انتابنا خلال تلك الساعة من المناقشة .

★ ★ ★

في ذات يوم قصدت الجناح البصري من مخزن كبير لأسلمه زوجين من النظارات . كان الجناح مقفراً من الزبائن ، بينا راح رجل أبيض طويل متورد الوجنتين يتطلع إليّ مستغرباً . كان من الشمال بكل تأكيد ، لأن ملامحه القاسية كانت تختلف كثيراً عن سيماء أهل الجنوب المسترخية .

قلت له ، وأنا أقدم إليه دفتر التسليم والنظارات :

ـ أتسمح بالتوقيع على استلام هذه النظارات ، يا سيدي ؟

فتناول الدفتر والنظارات ، ولكن أنظاره لم تبارحني .

قال بهدوء :

ـ يا صبي ، إني من الشمال .

لكني احتفظت بجمودي . أيكون ذلك فخاً ؟ لقد أتى على ذكر موضوع محرّم ، فكنت أريد أن أنتظر حتى أرى المعنى الذي يرمي إليه . لقد كان من بين المواضيع التي لا يحبّ أهل الجنوب البيض أن يناقشوها مع العبيد الأمور التالية: الاميركيات البيض ، جمعية الكلو ـ كلاركس ـ كلان ، فرنسا وكيف عاش الجنود الزنوج حين كانوا فيها ، الفرنسيات ، جاك جونسون ، كل القسم الشمالي من الولايات المتحدة ، الحرب الأهلية ،

أبراهام لنكولن ، منح الولايات المتحدة ، الجنرال شيرمان ، الكاثوليك ، البابا ، اليهود ، الحزب الجمهوري ، العبودية ، المساواة الاجتماعية ، الشيوعية ، الاشتراكية ، التعديل الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر على الدستور ، وأي موضوع آخر يؤدي إلى معرفة موضوعية أو تأكيد للذات من جانب الزنوج . وكان الجنس والدين الموضوعين الأكثر قبولاً عندهم . ولم أنظر إلى الرجل أو أردّ عليه . لقد رفع مسألة العرق بجملة واحدة من العتمة الساكنة بحيث أصبحت أقف على شفا هاوية سحيقة .

استطرد يقول :

ـ لا تخف مني ، إني أريد فقط أن أسألك سؤالاً واحداً .

فقلت بلهجة حيادية تنمّ عن الانتظار :

ـ نعم ، يا سيدي .

فاستفسر جاداً :

ـ قل لي ، يا صبي ، هل أنت جائع ؟

حملقت فيه ، لقد نطق بكلمة تمس الصميم مني ، لكنني لم أكن أستطيع أن أتحدث إليه ، لم أكن أستطيع أن أعلمه أني أجوّع نفسي كي أقتصد المال اللازم للرحلة الى الشمال . لم أكن أثق به ، لكن التعبير على وجهي لم يتبدل مطلقاً .

قلت ، وقد حاولت أن أبتسم :

ـ أوه ، كلا ، يا سيدي .

كنت جائعاً ، وكان هو يعرف هذه الحقيقة ؛ بيد أنه كان رجلاً أبيض ، وقد أحسست أني إذا أخبرته بجوعي ، فإني سأكشف له إذن عن أمر مخجل معيب .

قال :

ـ يا صبي ، إني أستطيع أن أرى الجوع في محياك وعينيك .

فكذبت :

ـ إني أحصل على كفايتي من الطعام .

فاستفهم :

ـ لمَ هذا النحول كله إذن ؟

فكذبت مرة أخرى :

ـ أعتقد أن تلك هي طبيعتي .

فقال :

ـ إنك خائف فقط ، يا صبي .

فعدت أكذب :

ـ أوه ، كلا ، يا سيدي .

لم يكن في مقدوري أن أنظر إليه ، وأردت أن أغادر الجناح ، لكنه كان رجلاً أبيض مع ذلك ، وأنا لا أستطيع أن أبتعد بعنف عن رجل أبيض إذا كان يحدثني . ووقفت هناك ، وعيناي تسبحان بعيداً ، فدفع يده في جيبه وأخرج ورقة من

فئـة الـدولار الواحد .

قـال :

ـ إليك ، خذ هذا الدولار واشترِ طعاماً به .

فقلت :

ـ كلا ، يا سيـدي .

قـال :

ـ لا تكن أحمق . إنك تخجل من أخذه . يا الله ،أيها الصبي، لا تدع مثل هذا الشيء يمنعك من تناول دولار تأكل به .

كان يستحيل عليَّ أن آخذ الدولار كلما مضى الرجل في حديثه . كنت أريده ، لكني لم أكن أستطيع أن أنظر إليه . وكنت أريد أن أتكلم ، لكني لم أكـن أستطيع أن أحـرك لساني . كنت أريده أن يتركني وشـأني ، فقـد كان يرسل الرهبـة في قلبي .

قـال :

ـ قـل شيئـاً .

كان كل ما يحيط بنا في المخزن أكواماً من البضائع . وكان الرجال والنساء البيض يذهبون من جناح إلى آخر . كـان الوقت صيفاً ، وكانت مروحة كهربائية عملاقة تتدلى من السقف وتدوّم دون انقطاع . ووقفت أنتظر أن يشير إليَّ الرجل الأبيض بالانصراف .

قال من بين أسنانه :

ـ لا أستطيع أن أفهم ذلك . إلى أي صف وصلت في المدرسة ؟

فأخبرته :

ـ الصف التاسع . لكنه كان الثامن فعلياً . ذلك أن دراستنا في الصف التاسع لم تكن أكثر من مراجعة لما درسناه في الصف الثامن .

وساد السكون . لم يكن قد طلب مني مثل هذا الايضاح الطويل ، لكني تكلمت بذلك القدر كي أملأ تلك الهوة المخجلة التي فغرت فاها ما بيننا . لقد تحدثت في محاولة مني للرجوع بذلك الحديث الشاذ إلى الأرض الجنوبية السالمة . ومن المؤكد أن ذلك الحديث قد كان واقعياً ، فقد كان يبحث في معيشتي ، لكنه قد بعث الى نور النهار بسائر المخاوف السوداء التي عرفتها طوال حياتي . ولم يكن الرجل الشمالي الأبيض يدرك مبلغ الخطر الذي تنطوي عليه كلماته .

ثمة بعض الأمور الغامضة العميقة المراوغة ، التي يجد الناس من الصعب التصريح بها لغيرهم من الناس ؛ أما بالنسبة إلي الزنجي ، فإن الأشياء الصغيرة في الحياة هي التي تصبح قاسية على النطق بها ، لأن هذه القضايا الصغرى هي التي تصنع مصيره . قد يسعى المرء أن يعبر عن علاقته بالكواكب ، لكن

عندما يتعلق وجدان المرء بالحصول على رغيف من الخبز ، فإن هذا الرغيف من الخبز لا يقل إذن أهمية عن الكواكب نفسها !

ودخل رجل أبيض آخر ، فتنهدت بارتياح :

سألني الرجل :

ـ أتريد أن تأخذ الدولار ؟

فهمست :

ـ كلا ، يا سيدي .

فقال :

ـ حسناً . انسَ ذلك .

ووقع على دفتر التسليم وتناول النظارات . ووضعت الدفتر في حقيبتي ، ثم استدرت مبتعداً ، وعبرت المشى وأنا أحسّ ارتعاشاً حكمياً في عمودي الفقري ، مدركاً أن الرجل الأبيض كان يعرف أني جائع حقاً . وتفاديت الالتقاء به بعد ذلك ، فأنا كلما صادفته أحسست بطريقة عجيبة أنه عدو لي ، لأنه كان يعرف حقيقة شعوري ، وكان أمان حياتي في الجنوب يرتبط بقدرتي على إخفاء مشاعري عن سائر الرجال البيض .

★ ★ ★

وقفت ذات صباح صائف عند حوض للغسيل في مؤخرة المعمل أغسل زوجين من النظارات قد وصلا لتوهما من آلات

الصقل التي يهز اختلاجها الأرض التي أقف عليها • كان رجل أبيض ينحني فوق كل من الآلات ، يشتغل بهمة • وكان نـور الشمس يتدفق من نافذة عن يساري ، فيضيء اللطخ الحمـر ويضفي على المعمل مظهراً زاهياً ، عنيفاً ، خطراً • كـان الظهر قريباً ، وكان فكري يذهب نحو غدائي اليومي الذي يتألف من رغيف وعلبة من الفاصولياء • كان يوماً رتيباً ، مثله مثل الأيام الأخرى التي قضيتها في العمل إما في إنجاز المأموريات أو في غسل النظارات • إني في سلام مع العالم ، يعني في سلام بتلك الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها صبي أسود في الجنوب أن يكون في سلام مع عالم من الرجال البيض •

ولعل مجرد رتابة اليوم وشبهه بالأيام الأخرى ما جعلـه سراعاً مختلفاً عن سواه من الأيام ؛ ولعل الرجال البيض المشتغلين فوق الآلات قد أحسوا الضجر من واجباتهم الكئيبة الرتيبـة فاشتاقوا إلى شيء من انفعال • ومهما يكن من أمر ، فقـد شعرت بوقع أقدام إلى الوراء مني فأدرت رأسي نحو مصدرها • كان شاباً أبيض يقف عند مرفقي ، السيد أولين ، وهو المراقب المباشر الذي أعمل تحت إمرته • كان يبتسم ويراقبني وأنا أنظف غبار السمبادج عن النظارات •

استفهـم :

ــ يا صبي ، كيف العمل معك ؟

فأجبت بمرح كاذب ، وقد اتخذت موقف المخلوق الأسود الطيب الخلق في حضرة الرجل الأبيض ، وهو موقف أستطيع الآن اتخاذه بسهولة :

ـ رائع ، يا سيدي .

ورحت أتساءل ما إذا كان لديه نقد على عملي .

واستمر يتلكأ بجانبي دون أن ينبس ببنت شفة . ما عساه يريد ؟ لم يكن من عادته الوقوف هناك ومراقبتي . وأردت أن أنظر إليه ، لكن الخوف ملك عليّ نفسي .

سألني :

ـ قل ، يا ريتشارد ، أتعتقد أني صديق لك ؟

كان السؤال محملاً كثيراً بالخطر ، بحيث لم أكن أستطيع أن أجيب عليه في الحال . كنت لا أعرف السيد أولين إلا قليلاً ، فعلاقتي به قد كانت تلك العلاقة النموذجية بين الزنوج والبيض الجنوبيين . إنه يصدر الأوامر إليّ فأقول : « نعم ، يا سيدي »، وأطيعه . وهذا هو الآن ، دون سابق إنذار ، يسألني ما إذا كنت أحسب أنه صديق لي . وكنت أعرف أن سائر البيض الجنوبيين يتصوّرون أنفسهم أصدقاء للزنوج . وابتسمت ، وأنا أبحث عن جواب لا يفهم منه أي معنى .

وعاد يسأل :

ـ أعني هل تحسبني صديقاً لك ؟

فأجبت ، محاذياً الهوة العرقية الواسعة التي تفصل ما بيننا :

ـ حسناً ، إني لأرجو أن تكون كذلك .

فقال بصورة ذات مغزى :

ـ إني لكذلك .

وتابعت عملي ، متسائلاً عن الدوافع التي حملته على هذا السلوك . وكان الذعر قد بدأ يستولي على قلبي .

قال :

ـ أريد أن أقول لك شيئاً .

ـ نعم ، يا سيدي .

فأوضح ما يريد :

ـ إننا لا نريد أن نلحق بك أذى . إننا نحبك هنا ، فأنت تتصرف، كصبي طيب .

فقلت :

ـ نعم ، يا سيدي . ماذا هناك من خطأ ؟

فاستطرد يقول :

ـ أنت لا تستحق أن تتعرض للمتاعب .

فاستفهمت ، وقد راح فكري يستعرض بسرعة سائر أفعالي الماضية ، وازناً هذه الأفعال وفقاً للطريقة التي يعتقد البيض الجنوبيون أن الزنوج يجب أن يتصرفوا حسبها :

ـ هل أتيت أمراً لم يحبه شخص ما ؟

ـ حسناً ، إني لا أدري .

قال ذلك ولاذ بالصمت ، تاركاً كلماته تنغرس في نفسي بصورة ذات مغزى ، ثم أشعل لفافة وسأل :

ـ هل تعرف هاريسون ؟

كان يشير إلى صبي زنجي في مثل عمري تقريباً يشتغل في الجانب الآخر من الشارع في محل منافس للبصريات . وكنت وهاريسون لا نعرف بعضنا إلا بصورة عارضة ، لكنه لم تقم قط فيما بيننا أية مشكلة على الاطلاق .

قلت :

ـ أجل ، يا سيدي ، إني أعرفه .

فقال السيد أولين :

ـ حسناً ، كن حذراً . إنه يلاحقك .

ـ يلاحقني ؟ لماذا ؟

فقال الرجل الأبيض موضحاً :

ـ إن حقداً رهيباً يعتمل في صدره ضدك ، فما عساك فعلت له ؟

ونسيت النظارتين اللتين بين يديّ ، وثبتت أنظاري في محيا السيد أولين ، محاولاً إدراك مبتغاه . أتراه جاداً ؟ إني لا أثق في الرجل الأبيض ، وكذلك لست أثق في هاريسون . إن

الزنوج الذين يشتغلون في الجنوب مخلصون عادة لمعلميهم البيض ، لأنهم يشعرون أن تلك هي الطريقة الفضلى للإبقاء على أعمالهم . أترى هاريسون يحسب أني أشكل بطريقة ما خطراً على عمله ؟ ومن تراه صديقي : الرجل الأبيض أم الصبي الأسود ؟

قلت :

ـ إني لم أفعل أي شيء على الاطلاق بحق هاريسون .

فقال السيد أولين بصوت مخفوض :

ـ حسناً ، الأفضل أن تراقب ذلك الزنجي هاريسون . لقد ذهبت إلى الشارع قبل قليل لأتناول زجاجة من الكوكاكولا ، فوجدت هاريسون ينتظرك عند باب البناء وفي يده سكين ، ولقد سألني متى ستنزل ، وقال إنه سينتقم منك . إنه يقول إنك أطلقت عليه اسماً قذراً . والآن ، إننا لا نريد قتالاً ودماً مراقاً هنا .

كنت أرتاب في الرجل الأبيض بعد ، لكني رحت أفكر مع ذلك أن هاريسون قد يكون فسّر حتماً ، كاهانة ، كلمة ما قلتها له .

فقلت ، مفكراً بصوت عال :

ـ يجب أن أرى هذا الصبي وأتحدث إليه .

فقال السيد أولين :

ـ كلا ، من الأفضل ألا تفعل ذلك . من الأفضل أن تدع أحداً منا نحن البيض يتحدث إليه .

فقلت وأنا أرتاب بعد ، وإن يكن الصدق قد بدأ يتسرب إليّ :

ـ لكن ، كيف بدأ ذلك ؟

فقـــال :

ـ لقد قال لي فقط إنه سيسوي الأمور معك ، وإنـه سيطعنك ويلقنك درساً ، ولكن لا تقلق . دعني أتدبر الأمر .

وربت على كتفي وعاد أدراجه إلى آلته . لقد كان رجلاً مهماً في المعمل ، وكنت أحترم كلمته دائماً . وكانت له السلطة كي يأمرني بإنجاز هذا العمل أو ذاك . ما الذي يحمله علـى المزاح معي إذن ؟ إن البيض لا يمزحون كثيراً مع الزنو ج وبالتالي فإن أقواله جدية . واتتابني القلق . نحن الصبيان السود نعمل ساعات مرهقة طويلة لقاء القروش القليلة التي نكسبها ، وبالتالي فإن أعصابنا مشدودة متوترة دائماً . لعل ذلك المجنون هاريسون يطاردني حقاً . وفقدت شهيتي ، فلا بدّ لي أن أسوي هـذا الأمر قبل كل شيء . إن رجلاً أبيض قد دخل عالمي المتوازن برقة ، فأخلّ التوازن ، ولا بدّ لي أن أعيد الأمور إلى نصابها قبل أن أشعر الأمان . أجل ، سوف أذهب مـن فوري إلى هاريسون ، وأسأله حقيقة الأمر ، وما عساني تفوهت به ممـا يثير نقمته . لقد كان هاريسون أسود ، وكذلك أنا ، وســوف

أتجاهل تحذير الرجل الأبيض وأتحدث وجهاً لوجه مع صبي من لـــوني •

واجتزت الشارع عند الظهر فوجدت هاريسون يقتعـــد صندوقاً في القبو • كان يتناول طعام الغداء ويقرأ في مجلة • وإما اقتربت منه ، دفع يده في جيبه وتطلع إليّ بعينين باردتـــين حـــذرتين •

سألته ، وقد وقفت حذراً على بعد أربع أقدام منه :

ــ قل ، يا هاريسون ، ما هذه القصة كلها ؟

فنظر إليّ طويلاً ولم يحر جواباً •

قلت :

ــ إني لم أرتكب جرماً بحقك قط •

فنمتم ، والحذر لم يفارقه :

ــ وأنا لا أريد شيئاً منك ، إني لا أزعج إنساناً قط •

ــ لكن السيد أولين يقول إنـــك قصدت المصنع هـــذا الصباح تبحث عني مسلحاً بسكين •

فقال ، وقد انفردت أساريره الآن :

ــ أف ، أوف ! إني لم أذهب إلى معملكم مطلقاً •

ولم ينظر إليّ وهو يتحدث •

فســألت :

ــ إذن ما الذي يعنيه السيد أولين ؟ إني لست غاضباً منك •

فقال هاريســـون موضحاً :

ـ أراجيف • كنت أحسب أنك تبحث عني لتطعنني • إن السيد أولين قد جاءني هذا الصباح وقال إنك مزمع أن تقتلني بسكين حالما تقع أنظارك عليّ • قال إنك ثائر عليّ لأني أهنتك • لكني لم أقل شيئاً ضدك •

كانت أنظاره متحولة عني بعد ، فنهض عن صندوقه •

قلـــت له :

ـ وأنا لم أقل شيئاً ضدك •

ونظر إليّ أخيراً ، فارتاحت نفسي • وقفنا نحـــن الصبيين الأسودين ، المشتغلين لقاء عشرة دولارات في الأسبوع، نـــرمق بعضنا بعضاً ، نفكر ، ونقدر دوافع الرجل الأبيض الغـــائب ، وكل منا يسأل نفسه ما إذا كان في مقدوره أن يصدق الآخر •

ســـألت :

ـ ولكن ما الذي حمل السيد أولين على قول مثل هـــذه الأمور لي ؟

فطأطأ هاريسون برأسه ، ووضع رغيفه جانباً •

تمتم ، وهو يخرج من جيبه سكيناً طويلة لامعة ، مفتوحة سلفـــاً :

ـ إني ••• إني ••• إني كنت أنتظر فقط لأرى ما عســـاك تصنع بي •••

فاستندت بعنف إلى أحد الجدران ، ينتابني إحساس بالدوخان ، وعيناي شاخصتان إلى شفرة السكين الفولاذية الحادة .

سألت :

ــ وكنت تنوي أن تطعنني ؟

فقال :

ــ لو آنك طعنتني ، فقد كنت سأطعنك أولاً . إني لا أريد أن أعرض نفسي للخطر .

فاستفهمت :

ــ أهناك ما يثير غضبك ضدي ؟

فقال هاريسون بقلق :

ــ يا رجل ، إني لست ثائراً ضد أي كان .

أدركت كم كنت على وشك أن أقتل . لو أني جئت على هاريسون بصورة مفاجئة ، فإنه كان سيعتقد أني أحاول قتله ، وكان سيطعنني ، ولعلّه كان يقتلني ، وما أهمية أن يقتل زنجي زنجياً آخر ؟

قلت :

ــ أنظر إليّ . لا تصدق ما يقول السيد أولين .

فقال هاريسون :

ــ إني أرى الآن . كان يلعب معنا لعبة قذرة .

ـ إنه يحاول أن يجعلنا نقتل بعضنا بعضاً من أجل لا شيء .
ـ ولمَ يريد ذلك ؟
هززت رأسي . وجلس هاريسون ، لكنه ظلّ يلعب بالسكين المفتوحة . وبدأ الشك يراودني . أتراه غاضباً عليّ حقاً ؟ أتراه ينتظر أن أدير ظهري كي يطعنني ؟ وكان عذابي هائلاً .
وقلت ، متصنعاً الضحك :
ـ أعتقد أن البيض يتسلون برؤية الزنوج يتقاتلون .
ـ لكنه كان يمكن أن تقتلني .
ـ إننا مثل الكلاب أو الديكة بالنسبة إلى الرجال البيض .
ـ أنا لا أريد أن أطعنك .
فقلت :
ـ وأنا لا أريد أن أطعنك .
ورحنا ، ونحن نقف بعيدين عن متناول بعضنا ، نناقش القضية . وقررنا أن نلوذ بالصمت بشأن اجتماعنا . إننا لن ندع السيد أولين يعرف أننا نعرف أنه يحرّضنا ضد بعضنا بعضاً . واتفقنا على تجاهل كل تحريض لاحق . وعدت إلى المعمل في الساعة الواحدة ، فوجدت السيد أولين في انتظاري ، وعلى وجهه ملامح الجدّ ، وفي سلوكه دلائل الخطورة .
استفسر :

ـ هل رأيت ذلك الزنجي هاريسون ؟
فكذبت :
ـ كلا ، يا سيدي .
فقال :
ـ حسناً ، إنه لا يزال يحتفظ بسكينه من أجلك .
وتوتر الحقد في باطني ، لكني احتفظت بوجه جامد .
وعاد يسألني :
ـ هل اشتريت سكيناً ؟
فأجبت :
ـ كلا ، يا سيدي .
ـ أتريد أن تستخدم سكيني ؟ ينبغي لك أن تحمي نفسك .
فقلت :
ـ كلا ، يا سيدي ، إني لست خائفاً .
فغمغم :
ـ أيها الزنجي ، إنك أبله ، حسبت أن فيك شيئاً من إدراك . هل ستدع ذلك الزنجي يطعن قلبك بكل بساطة ؟ لقد « أعطاه » معلمه سكيناً ليستخدمها « ضدك » . خذ هذه السكين، يا زنجي ، وكفاك جنوناً .

كنت خائفاً من النظر إليه ؛ لو أني نظرت إليه ، فلا بدّ لي أن أقول له أن يتركني وشأني ، وأني أعرف أنه يكذب ،

وأني أعرف أنه ليس صديقاً لي في حال من الأحوال ، وأني أعرف أنه إذا دفع كائن ما سكيناً في قلبي ، فهو لن يفعل إذن سوى أن يضحك ملء شدقيه ، بيد أني لم أتفوه بكلمة واحدة • لقد كان هو المعلم ، وفي مكنته طردي إذا لم يحبني ، ووضع سكيناً مفتوحة على حافة دكة عمله ، على بعد قدم من يدي • وأحسست رغبة عنيفة في تناول تلك السكين وإعادتها إليه ، ورأسها أولاً في صدره ، لكني لم أفعل شيئاً من هذا القبيل ، بل تناولت السكين ووضعتها في جيبي •

قــال :

ــ الآن تتصرف كزنجي فيه بعض العقل •

وراح السيد أولين يراقبني من مكان آلته وأنا أعمل • وفيما بعد ، ناداني وأنا أمرُ به ، وبدأ يقول :

ــ أنظر إليَّ ، يا صبي • لقد أخبرنا ذلك الزنجي هاريسون أن يظل خارج هذا البناء ويتركك وشأنك ، ما رأيك ؟ لكنني لا أستطيع حمايتك حين تذهب إلى بيتك • إذا حملق ذلــك الزنجي فيك ، وأنت في طريقك الى بيتك ، فاطعنه قبل أن يجد الوقت كي يطعنك • هل فهمت ؟

فتفاديت النظر إليه ، ولم أقل شيئاً •

فقال السيــد أولين :

ــ كما تشــاء ، يا زنجي • لكن لا تقل إني لم أحذرك •

لم يكن لي بدٌّ من القيام بدورتي المعتادة لتسليم النظارات ، فسرت بعض لحظات لأجتاز الشارع عـدواً وأتحدث إلـى هاريسون • كان هاريسون مكتئباً خجلان ، يريد أن يثق بي ، ويخاف مع ذالك • وقال لي إن السيد أولين قد اتصل بمعلمه هاتفياً وطلب منه أن يخبر هاريسون بأني أنوي انتظاره عنـد المدخل الخلفي من البناء في السادسة مساء كي أطعنه • ووجدنا ، هاريسون وآنا ، من الصعوبة بمكان أن تتبادل النظر ، وكنـا قلقين متشككين • لم نكن غاضبين فعلاً من بعضنا بعضاً ، وكنا نعرف أن فكرة القتل قد زرعها فينا الرجـال البيض الذيـن يستخدموننا ، وكنا نقنع أنفسنا مرة وتكراراً بأننا لسنا متفقين مع الرجال البيض ، ونحث أنفسنا على الاحتفاظ بالثقـة حيال بعضنا بعضاً ، ومع ذلك يعتمل عميقاً في باطننا ذلك الشك بأن أحدنا ربما ينوي أن يقتل الآخر •

قلت :

ــ أنا لست غاضباً منك ، يا هاريســون •

فقال هاريسون بخجل ، لكنه احتفظ بيده في جيبه ممسكة بالسكـين :

ــ لا أريــد القتال مع أي إنسان كان •

كان كل منا يحس الخجل نفسه ، ويحس مبلغ حمقنـا وضعفنـا حيال سيطرة البيض •

قلت :

ــ بودي أن يتركونا وشأننا حالاً .

فقــال هاريسون :

ــ وأنا أيضاً .

قلت :

ــ إن هناك مليون صبي أسود مثلنا يجولون في مهمــات موكلة إليهم . ولن يأبهوا إذا قتلنا بعضنا بعضاً .

فقــال هاريسون :

ــ أعرف ذلــك .

أتراه يمثل ؟ لم يكن في مقدوري الايمان به . كنــا نلهو بفكرة الموت بدون سبب ينبع من نفسنا ، بل لأن الناس الذين يسيطرون علينا قد أبقوا الفكرة في ذهننا . وكان كل منا مرتبطاً بالبيض في كسب الخبز الذي يأكله ، وكنا في الحقيقة نثق بالبيض أكثر من ثقتنا ببعضنا بعضاً . بيد أنه كان في نفسنا ، مع ذلك ، حنين إلى الثقة بالناس الذين من نفس لوننا . وانفصلت عــن هاريســون من جديد ، وقد أقسم كل منا ألا يتأثر بما يقوله معلمونا البيض لنا .

واستمرت لعبة تحريضنا ، هاريسون وأنا ، على القتــال وطعن بعضنا بعضاً طوال أسبوع . كنا خائفين من إخبار البيض بأننا لا نثق بهم ، لأن ذلك أشبه بدعوتهم كذبــة ، أو لعلــه

يجرنا إلى مناقشة معهم تنتهي بتوجيه العنف ضدنا .

وذات صباح ، جاءني السيد أولين وفريق من الرجال البيض وسألوني ما إذا كنت أريد أن أسوي ضغينتي مع هاريسون بالقفازات ، تبعاً لقواعد الملاكمة . فقلت لهم إني ، بالرغم من عدم خوفي من هاريسون ، لا أريد أن أقاتله ، وأنه ليس لي دراية بفن الملاكمة . وكان في مكنتي أن أحسّ إذن أنهم قد عرفوا بأني لم أعد أثق بهم .

وعندما غادرت المعمل ذلك المساء ، هتف بي هاريسون من عند زاوية البناء ، فانتظرته وهو يسرع إليّ . أتراه يريد أن يطعنني . وتراجعت حين اقترب مني ، ورحنا نتبادل ابتسامة قلقة صفراء وتحدثنا لاهثين ، ونحن نزن كلاً من كلماتنا .

استفسر هاريسون :

ـ هل طلبوا منك أن تتقاتل بالقفازات .

فأخبرته :

ـ أجل . لكني رفضت .

فبانت اللهفة على وجه هاريسون ، وقال :

ـ إنهم يريدون منا أن نتقاتل أربع دورات لقاء خمسة دولارات لكل منا . يا رجل ، إذا حصلت على خمسة دولارات ، فإني أستطيع أن أبتاع بذلة جديدة . إن خمسة دولارات تساوي نصف أجرتي الأسبوعية تقريباً .

فقلت :

ـ لا أريـد القتال .

ـ لن نؤذي بعضنا .

ـ ولكن ، ما الذي يحملنا على صنع مثل هذا الشيء من أجل الرجال البيض ؟

ـ كي نحصل على خمسة دولارات .

ـ ليس بي حاجة كثيرة إلى خمسة دولارات .

ـ أف ، إنك لأحمق .

قال هاريسـون ذلك وابتسم ابتسامة خاطفة ، فعـدت أقـول :

ـ أنظر . لعلك « غاضب » حقاً مني ...

فهز رأسه بشـدة :

ـ كلا ، لست غاضباً .

ـ لا أريد أن أقاتل من أجل الرجال البيض . أنا لست كلبـاً أو ديكـاً .

كنت أراقب هاريسون بحذر ، وكان هو الآخر يراقبني . أتراه يريد مقاتلتي حقاً لسبب خاص به ؟ أم أن الدافع هو المال وحده ؟ وحدق هاريسون إلي بعينين مذهولتين . وخطا نحوي ، فخطوت متراجعاً . وابتسم بنزق ، وقال :

ـ إني أحتاج هذا المـال .

فقلت :

ــ لا حيلة لي في الأمر .

فابتعد عني دون أن ينبس ببنت شفة ، وعلى سيمائه دلائل الغضب . وفكرت لعله سيطعنني الآن . يجب أن أراقب هذا المجنون ...

وتوسل إلينا الرجال البيض في كلا المعملين ، طوال أسبوع آخر ، كي تتقاتل . وراحوا يختلقون الأقاصيص عما قاله هاريسون بخصوصي ، فإذا التقوا بهاريسون كذبوا عليه بالطريقة نفسها . وكنت وهاريسون حذرين أيان التقينا ، نبتسم ونظل بعيدين عن متناول بعضنا ، خجلين من نفسنا ومن بعضنا بعضاً .

وناداني هاريسون مرة أخرى وأنا في سبيلي إلى البيت ، وتوسل إليَّ :

ــ تعال ودعنا نتقاتل .

فقلت بصوت أعلى وأقسى مما كنت أريده أن يكون :

ــ لا أريد ذلك وكفَّ عن سؤالي .

فنظر هاريسون إليَّ ورحت أراقبه . كان كلٌّ منا يحمل السكين التي أعطاها لنا الرجال البيض .

قال هاريسون :

ــ إني أريد أن أدفع سلفة من أجل بذلة لي بهذه الدولارات الخمسة .

فقلت :

ـ لكن أولئك الرجال البيض سينظرون إلينا إذن ، ويضحكون علينا .

فقال هاريسون :

ـ وماذا في ذلك ؟ إنهم ينظرون إليك ويضحكون عليك كل يوم ، يا زنجي .

كان ذلك صحيحاً ، لكني أبغضه لأنه نطق به . واشتقت بصورة أليمة كي أضربه على فمه ، وأؤذيه .

واستفهم هاريسون :

ـ ما عسانا نخسر إذن ؟

ـ لا أعتقد أننا سنخسر شيئاً .

ـ بكل تأكيد . دعنا نحصل على المال ، وليس ما يهمنا .

فقلت ، وأنا أبغض نفسي لإعلاني ذلك :

ـ وإنهم ليعرفون الآن أننا نعرف ماذا يحاولون أن يحرّضونا على فعله . وإنهم ليبغضوننا بسبب ذلك .

فقال هاريسون :

ـ بكل تأكيد . فلنحصل على المال إذن . إنك تستطيع أن تستفيد من خمسة دولارات ، أليس كذلك ؟

ـ أجل .

ـ إذن ، دعنا نتقاتل من أجل هذه الدولارات .

ـ سأحسّ إذن كأنني كلب حقير •
فقـال :
ـ كلانا كلبان في نظرهـم •
فوافقت :
ـ نعـم •
لكني أحسست من جديد بالرغبة في ضربه •
وقال هاريسـون :
ـ أنظر • دعنا نخدع هؤلاء الرجال البيض • إننا لن نؤذي بعضنا ، بل سنتظاهر بذلك فقط • أتفهم ؟ ولسوف نثبت لهم أننا لسنا أحمقين كما يحسبون ، أتفهم ؟
ـ لا أدري •
ـ ذلك مجرد تمرين • اربع دورات مقابل خمسةدولارات • أتخـاف ؟
ـ كـلا •
ـ إذن تعال ولنتقاتل •
قلت :
ـ لا بأس ، لمجرد التمرين • سأقاتل •
وسرّ هاريسون ، أما أنا فشعرت أن ذلك من الحمق بمكان عظيم • ولكن ماذا في ذلك ؟ سأقاتل وسأنتهي من هذه القضية • لكني كنت أحس بعدُ غضباً غامضاً لا يريد أن يفارقني •

وحين سمع الرجال البيض في المعمل أننا قبلنا بالقتال ، تجاوز هياجهم كل حدود • وتطوعوا لتعليمي لكمات جديدة ، وراحوا يخبرونني همساً كل صباح أن هاريسون يكثر من أكل البصل طلباً للقوة • وعرفت من هاريسون نفسه أنهم يخبرونه أني آكل لحماً نيئاً لأزداد قوة • وتطوعوا ليبتاعوا لي طعامي يومياً ، لكني رفضت ذلك • وأصبحت أخجل مما قبلت أن أفعله ،فأردت ان انسحب من القتال ، لكني خفت أن يثور غضبهم إذا جربت أن أفعل ذلك • كنت أحسّ أنه إذا نجح الرجال البيض في إقناع صبيين أسودين بالقتال ضدّ بعضهما بعضاً دونما سبب غير لذتهم الخاصة ، فلن يصعب عليهم أن يوجهوا صفعة طائشة إلى صبي أسود في ثورة غضب عابرة ناشئة عن خيبة أمل •

وجرى القتال بعد ظهر يوم سبت في قبو بناء في شارع مين • ووضع كل من الرجال البيض الذين شاهدوا القتال نصيبه من أجرة القتال في قبعة وضعت على الأرض مباشرة • ولم يسمح بالدخول إلى القبو سوى للرجال البيض ، من دون النساء أو الزنوج • وكنت وهاريسون عاريين حتى وسطنا ، ومصباح كهربائي يتألق فوق رأسينا • وبينا كان القفازان يربطان في يدي ، نظرت إلى هاريسون فوجدته يراقبني • أتراه يفي بوعده ؟ وجعلني الشك نزقاً •

وقف كل منا في زاوية المربع المعدّ للقتال ، وسرعان ماأدركت

أني لا أملك أية فكرة كافية عما عقدت عليه الصفقة • لم يكـن في مقدوري أن أزعم أني أقاتل • لم يكن أي منا ، هاريسـون وأنا ، ملماً بموضوع الملاكمة بما يكفينا كي نخدع أي طفـل صغير لبرهة قصيرة • وغمرني الخجل الآن • وكان الرجـال البيض يدخنون ويصيحون بكلمات بذيئة في وجهنا :

ـ اسحق رأس ذلك الزنجي ، يا زنجي !

ـ اضرب ذلك الزنجي !

ـ هيا ، تقاتلا ، أيها الزنجيان اللعينان !

ـ اضربه في خصيتيه !

ـ اضربه حتى يدمى •

بدأت بضربة مترددة من قبضتي اليسرى ، بينـا ضربني هاريسون بشدة على رأسي • وهذا أنا ، دون أن أعرف ما أنا فاعله ، أوجه ضربة شديدة بقبضتي اليمنى إلى فمه ، فينزف الدم منه • ووجه هاريسون لكمة إلى أنفي ، وحمي وطيس القتال ، حمي رغماً عن إرادتنا • وأحسست أني وقعت في الشرك ، وأن الخجل يغمرني • ورحت أوجه لكماتي بصورة أعنف ، وبقدر ما أزداد قسوة في الضرب يزيد هاريسون من شدة لكماته • إن خططنا ووعودنا لم تعد تعني الآن أي شيء على الاطلاق • تقاتلنا طوال أربع دورات قاسية ، ونحن تتعثر ، ونتردد ، ونقبـع كالخنازير ، ونبصق ، ونسبّ ، ونصيح ، وندمى • كان الخجل

والغضب اللذان نحسهما لأننا استسلمنا لهذه الخدعة يتسللان إلى كماتنا فيتدفق الدم في عيوننا ، ويكاد أن يعمينا • وكان الحقد الذي نحسه حيال الرجال الذين حاولنا أن نخدعهم ينصبُّ في الكلمات التي نوجهها ضد بعضنا بعضاً • وعمل الرجال البيض على إطالة الدورات حتى خمس دقائق ، وكان كل منا يخشى أن يتوقف ويسأل عن الزمن خوفاً من التعرض للكمة ترمينا أرضاً • وحين أشرفنا على التهاوي بفعل الاعياء الشديد فصلونا عن بعضنا •

لم يكن في مكنتي أن أنظر إلى هاريسون • كنت أبغضه وكنت أبغض نفسي • وأطبقت على دولاراتي الخمسة في قبضتي وسرت إلى البيت • وأصبحنا ، هاريسون وأنا ، تتفادى بعضنا بعد ذلك ، ونادراً ما تتبادل الحديث • وحاول الرجال البيض تدبير معارك جديدة نخوضها ، ولكن كان لدينا من التفكير ما يكفي كي نرفض • وبلغني أخبار معارك أخرى من هذا النوع تدور بين شبان سود آخرين ، فكنت كلما سمعت تلك الخطط تتردد على شفاه الرجال البيض أبتعد إلى حيث لا يمكنني أن أسمع شيئاً • كنت أحسّ أني أتيت عملاً قذراً ، عملاً لن أستطيع أن أكفر عنه مدى الحياة •



١٣

وصلت إلى العمل باكراً ذات صباح واتجهت إلى ردهة المصرف حيث كان البواب الزنجي يمسح الأرض • ووقفت إلى أحد الصناديق والتقطت « النداء التجاري » التي تصدر في ممفيس ، وبدأت قراءتي المجانية للصحيفة • وانتهيت أخيراً إلى الصفحة الأولى فوجدت مقالة عن شخص يدعى هـ• ل• مينكين • وكنت أعرف من التقولات أنه رئيس تحرير مجلة

« أميركان ميركوري » . لكني لم أكن أعرف عنه شيئاً غير هذا . وكانت المقالة تهاجم مينكين بعنف ، وتنتهي بجملة لاهبة : إن مينكين أحمق .

وتساءلت ماذا فعل مينكين هذا حتى جرَّ على نفسه غضب الجنوب . إن الوحيدين الذين يهاجمون في الجنوب هم الزنوج ، وهذا الرجل لم يكن زنجياً . إذن ، ما هي الأفكار التي ينادي بها مينكين حتى يجعل صحيفة مثل : « النداء التجاري » تشهِّر به علناً ؟ لا ريب أنه ينادي بأفكار لا يحبها الجنوب . أثمة أشخاص إذن غير الزنوج ينتقدون الجنوب ؟ كنت أعرف أن الجنوب خلال الحرب الأهلية كان يكره البيض الشماليين ، لكنني لم أشهد مثل هذا الحقد طوال حياتي . وأحسست عطفاً غامضاً على مينكين ، هذا الذي لم أكُ أعرف عنه في تلك اللحظة غير ما ذكرت . أفلم ينعته الجنوب ، الذي خصني بدور اللاإنسان ، بأقسى كلماته ؟

والآن ، كيف يمكنني أن أكتشف قصة مينكين هذا ؟ كان ثمة مكتبة ضخمة قريبة من ضفة النهر ، ولكنني كنت أعرف أن الزنوج غير مسموح لهم بالتجول بين رفوفها أكثر مما يسمح لهم بالتجوال في حدائق المدينة وملاعبها . وكنت قد دخلت المكتبة عدة مرات لأحصل على كتب للسادة البيض الذين يشتغلون في مكان عملي . من منهم سيساعدني الآن في الحصول

على بعض الكتب ؟ وكيف يمكنني أن أقرأها دون أن أشغل بال السادة البيض الذين أعمل عندهم ؟ لقد نجحت طويلاً في إخفاء أفكاري وشعوري عنهم ، لكنني أعرف أني سأخلق عداوة إذا شئت اتّباع سبيل القراءة بطريقة خرقاء •

ورحت أزن شخصيات الرجال في العمل • كان هنالك دون ، وهو يهودي ، وأنا لا أثق به • ليس مركزه أفضل من مركزي ، وأنا أعرف أنه قلق غير مأمون الجانب • فهو يعاملني دائماً بطريقة لا مبالية هازلة لم تخف عني احتقاره لي • وخشيت أن أطلب إليه مساعدتي في الحصول على الكتب ، فرغبته المجنونة في إثبات تضامنه العنصري مع البيض ضد الزنوج قد تجعله يغدر بي •

إذن ، ماذا عن المعلم ؟ إنه معمداني وأنا أرتاب في قدرته على تفهم السبب الذي يحدو بصبي أسود الى قراءة مينكين • وكان ثمة رجال بيض آخرون في العمل تشير أوضاعهم بكل وضوح إلى كونهم أعضاء في جمعية كو كلوكس كلان أو أنصاراً لها ، وكان هؤلاء بعيدين عن مطلبي •

ولم يتبقَّ لي غير رجل واحد لم يك موقفه يدلُّ على أنه من المناهضين للزنوج ، لأني سمعت الرجال البيض يشيرون إليه بوصفه « محباً للبابا » • كان إرلنديا كاثوليكياً يكرهه البيض الجنوبيون • وكنت أعرف أنه يقرأ كتباً ، لأني حملت إليه عدة

مجلدات من المكتبة مرات عديدة • وبما أنه ، هـو الآخر ، موضوع حقد ، فقد فكرت أنه قد يرفض مساعدتي ، لكن لن يشي بي •

وترددت ، وأنا أزن وأقدر الوقائع التي لا وزن لها •

وتباطأت ذات صباح أمام مكتب هذا الكاثوليكي •

همست لـه :

ـ أودُّ أن أسألك معروفاً •

ـ ما هو ؟

ـ أريد أن أقرأ • ولا أستطيع الحصول على كتب مـن المكتبة • أتساءل عما إذا كنت تسمح لي باستخدام بطاقتك ؟

فرنا إليَّ مرتاباً •

ـ :

ـ إن بطاقتي مشغولة أكثر الوقت •

قلت ، وأنا أنتظر جواب طلبي في صمت :

ـ فهمتُ •

فسـأل ، وهو يحدّق إليَّ :

ـ أنت لا تجرب أن تورطني في المتاعب ، أليس كذلك ، يا صبي ؟

ـ أوه ، كلا ، يا سيـدي •

ـ أي كتاب تريد ؟

ـ كتاب بقلم هـ • ل • مينـكين •

ـ أي كتـــاب ؟

ـ لست أدري • هل كتب أكثر من كتاب واحد ؟

ـ لقد كتب عدة كتب •

ـ لم أكـــن أعرف هـــذا •

ـ وماذا يدفعك إلى قراءة مينـكين ؟

فقلـــت :

ـ أوه ، وجدت اسمـــه في الصحيفة •

ـ حسن" منك أن ترغب في القراءة • لكن ينبغي أن تقرأ الأمور الصحيحة •

ذلم أقـــل شيئاً • أتراه يريد الاشراف على مطالعاتي ؟

قـــال :

ـ دعني أفكر • وسأنتخب شيئـــاً •

فاستـــدرت عنه ، فناداني إليه • وحدّق إليّ بصورة تبعث على السخريـــة :

ـ ريتشـــارد ، لا تذكر هذا للرجال البيض •

فأجبـــت :

ـ إني أفهـــم • ولن أتفوّه بحرف •

وناداني إليه بعـــد عدة أيام :

ـ لقد حصلت على بطاقة باسم زوجتي • إليك بطاقتي •

ـ شكراً لك ، يا سيـــدي •
ـ أتعتقد أنك تستطيع أن تتدبر أمرك ؟
ـ سأتدبر أمري جيداً •
ـ إذا ارتابوا في الأمر ، فستقع في المتاعب •
فقلـــت له :
ـ سأكتب نفس الملاحظات التي كنت تكتبها حينما ترسلني في طلب الكتب • وأوقّع باسمك •
فضحـــك :
ـ إمضِ • ودعني أرَ الكتب التي تجيء بها •
ورحت أتمرن بعد ظهر ذلـــك اليوم على كتابة إحـــدى الملاحظات • والآن ، ما هي أسماء الكتب التي ألّفها هـ • ل • مينكين ؟ أنا لا أعرف أيّاً منها • وكتبت أخيراً ما حسبت أنـــه سيكون ملاحظة صالحة : « سيدتي العزيزة ، هل تسمحين لهذا الصبي الزنجي » ـ واستعملت كلمة « زنجي » لأجعل قيّمة المكتبة تشعر أني لا يمكن أن أكون كاتب الملاحظة ـ « أن يحصل على بعض الكتب من تأليف هـ • ل • مينكين ؟» وزورت اســـم الرجل الأبيض •
ودخلت المكتبة مثلما أفعل دائماً حينما يرسلني البيض • لكنني شعرت أني سأزِلُّ بطريقة ما وأفضح نفسي • ونزعـــت قبعتي ، ووقفت بعيداً مسافة محترمة عن المكتب ، متظاهـــراً

بعدم الاكتراث بالكتب ، وانتظرت أن تلتفت إليّ المسؤولة البيضاء . ولما أقفر المكتب من الناس ، ظللت أنتظر .

وتطلعت المسؤولة البيضاء إليّ :

ـ ماذا تريد ، يا صبيّ ؟

فتقدمت منها ، وكأني لا أملك حاسة النطق ، وناولتها الملاحظة المزورة بكل بساطة ، دون أن أفتح شفتي .

سألت :

ـ أية مؤلفات من مينكين يريد ؟

فقلت ، وأنا أتجنب عينيها :

ـ لست أدري ، يا سيدتي .

ـ من أعطاك هذه البطاقة ؟

ـ السيد فولك .

ـ وأين هو ؟

ـ في عمله ، في شركة م ـ للبصريات .. ولقد جئت إلى هنا من أجله قبلاً .

فقالت المرأة :

ـ أذكر ذلك . لكنه لم يكتب ملاحظات مثل هذه .

أواه ، يا الله ، إن الشك يراودها . لعلها لن تسمح لي بأخذ الكتب ؟ فإذا أدارت ظهرها في تلك اللحظة ، فسأنسلُّ من الباب ولا أعود أبداً . ثم خطرت لي فكرة جريئة .

قلت ، وقلبي يضرب ضرباً :
ــ تستطيعين أن تكلميه هاتفياً ، يا سيــدتي .
فسألت بصورة ذات مغزى :
ــ أنت لا تستعمل هذه الكتب ، أليس كذلك ؟
ــ أوه ، كلا ، يا سيــدتي ، أنا لا أعرف القراءة .
فقالت في صوت مهموس :
ــ لا أعرف ماذا يبغي من كتب مينكين !

وأدركت الآن أني ربحت . إنها تفكر في أمور أخرى ، وقد تبخرت المسألة العنصرية من فكرها . ومضت إلى الرفوف . ورنت إليّ مرة أو مرتين من طرف كتفها ، فكأنها لا تزال مرتابة . واتجهت إليّ أخيراً تحمل كتابين في يدها ، وقالت :

ــ سأرسل له كتابين . ولكن قل للسيد فولك أن يجي بنفسه المرة القادمة ، أو يرسل لي أسماء الكتب التي يريد ، فأنا لاأعرف ماذا يريد أن يقرأ .

لم أقل شيئاً . وختمت البطاقة وناولتني الكتابين . وخرجت من المكتبة لا أجرؤ على النظر إليهما ، خائفاً أن تناديني تلــك المرأة إليها وتسألني أسئلة أخرى . وفتحت أحد الكتابين بعدما ابتعدت قليلاً ، وقرأت عنوانه : « كتاب مقدمات » . كنــت أقارب التاسعة عشرة من عمري ، وكنت أجهل كيف ألفظ كلمة « مقدمة » . وقلبت الصفحات فعثرت على كلمات غريبة وأسماء

غريبة . وهززت رأسي ، وقد خاب أملي . ونظرت في الكتاب الآخر . كان اسمه : « أهواء » وعرفت معنى الكلمة . فقد سمعتها طوال حياتي . وسرعان ما غدوت حذراً حيال كتب مينكين . لماذا يسمي رجل كتابه « أهواء » ؟ كانت الكلمة ملوثه بجميع ذكرياتي عن الحقدالعنصري الذي لم أستطع أن أتصور بسببه أحداً يستعمل تلك الكلمة عنواناً لكتاب . لعلي أخطأت بشأن مينكين ؟ إن رجلاً ذا أهواء لا بدّ أن يكون مخطئاً .

ولما أطلعت السيد فولك على الكتاب ، نظر إليّ وقطب ما بين حاجبيه .

أنذرته :

ـ قد تطلبك تلك القيّمة على الهاتف .

فقال :

ـ لا بأس . لكن حين تنتهي من قراءة هذين الكتابين ، فإني أريدك أن تخبرني ماذا استخلصت منهما .

في تلك الليلة ، في غرفتي المأجورة ، بينا المياه الحارة تتراكض على علبة لحم الخنزير والفاصولياء في حوض الغسيل ، فتحت « كتاب مقدمات » وشرعت أقرأ . وصدمني ذلك الأسلوب وهزني بجمله الواضحة النقية . لماذا يكتب على هذا الشكل ؟ وكيف يمكن للمرء أن يكتب على مثل هذا الشكل ؟ وتصورت الرجل مثل شيطان ثائر ، يسيط بريشته والحقد

يلتهمه ، ويفضح كل شيء أميركي ، ويطري كل شيء أوروبي أو ألماني ، ويضحك من ضعف الناس ، ويهزأ بالله ، والسلطة • ما هذا ؟ ونهضت ، محاولاً إدراك الواقع الذي يقوم خلف معنى تلك الكلمات •• أجل ، إن هذا الرجل يقاتل ، يقاتل بالكلمات •• كان يستعمل الكلمات كسلاحٍ ، يستعملها مثلما يستعمل المرء هراوة • هل يمكن للكلمات أن تكون أسلحة ؟ كلا ، إن ذلك ليخيفني • وتابعت القراءة ، ولم تكن أقواله هي التي أدهشتني ، بل كيف يمكن أن يجد إنسان الشجاعة على التصريح بها •

ورحت أرفع بصري بين فترة وفترة لأتأكد من أني وحيد في الغرفة • من هم أولئك الرجال الذين يتحدث عنهم مينكين بهذه الحماسة ؟ من هو أناتول فرانس ؟ وجوزيف كونراد ؟ وسنكلر لويس ، وشيروود أندرسون ، ودوستويفسكي ، وجورج مور ، وجوستاف فلوبير ، وموپاسان ، وتولستوي ، وفرانك هاريس ، ومارك توين ، وتوماس هاردي ، وأرنولد بينيت ، وستيفن كرين ، وزولا ، ونوريس ، وجوركي ، وبرجسون ، وإبسن ، وبلزاك ، وبرنارد شو ، ودوماس ، وپو ، وتوماس مان ، وأو • هنري ، ودريزر ، وهـ• ج• ويلز ، وجوجول ، و ت• س• إيليوت ، وجيد ، وبودلير ، وإدجار لي ماسترز ، وستندال ، وتورجنيف ، وهونيكر ، ونيتشه ، وعديد من الآخرين ؟ أهؤلاء الرجال حقيقيون ؟ وهل هم موجودون ، أم أنهم وجدوا ؟ وكيف

يلفظ المرء أسماءهم .

ومررت بكلمات عديدة لم أفقه لها معنىً ، فكنت إما أبحث عنها في المعجم أو أصادف الكلمة في نص ، قبل أن تسنح لي فرصة البحث عنها في المعجم ، فيوضح النص معناها . لكن ، أي عالم غريب هو هذا العالم ؟ وأنهيت الكتاب موقناً أني كنت جاهلاً لشيء مهم للغاية في الحياة . لقد حاولت الكتابة مرة ، وعربدتُ في أحاسيسي مرة ، مفسحاً لمخيلتي الفجة مجال التطواف على هواها ، إلا أن الدافع إلى الأحلام قد انتُزع مني ببطء بسببٍ من التجربة . وهذا هو ينبثق الآن من جديد ، فجِعتُ إلى الكتب ، وإلى طريق جديدة في البحث والرؤية . ولم يك من الأهمية بمكان أن أؤمن بما أقرأ أو لا أؤمن ، بل المهم أن أحسّ شيئاً جديداً ، أن يؤثر فيّ شيء يجعل العالم يتراءى لي بصورة مختلفة .

وما إن أطلّ الفجر حتى أكلت لحم الخنزير والفاصولياء ، متعباً ، ناعساً ، ومضيتُ إلى العمل ، لكن تأثير الكتاب يأبى أن يموت ؛ إنه يتريّث ، يلوّن كل ما يقع عليه بصري ، أو تلتقطه أذني ، أو أفعله أنا . وإني لأحسُّ الآن أني أعرف بماذا يشعر الناس البيض . ولأني قرأت كتاباً يتكلم عن ماهية معيشتهم وأفكارهم ، فقد وجدت نفسي مع ذلك الكتاب . وأحسست بغموض أني مذنب . فهل سأتصرف ، وأنا مفعم بأفكار الكتب ،

بطريقة تجعل البيض يكرهونني ؟

وزورت ملاحظات جديدة • وأضحت غدواتي الى المكتبة كثيرة • ونما حب القراءة إلى هوى • وكانت أول قصة جدية قرأتها هي « الشارع الرئيسي » لسنكلر لويس • فجعلتني أرى معلمي ، السيد جيرالد ، وأعتبره نموذجاً للرجل الأميركي • وكنت أبتسم حينما أراه يحتضن حقيبة الجولف ويدلف بها إلى المكتب • لقد أحسست دائماً أن ثمة مسافة شاسعة تفصلني عن المعلم ، وها أنا الآن أحسُّ بالدنو منه ، رغم أننا ما نزال متباعدين • وشعرتُ أني أعرفه ، وأني أستطيع أن أستشعر آخر تخوم حياته الضيقة • وقد حدث هذا لأني قرأت قصة عن رجل خرافي يدعى جورج ف • بابيت •

ولم تكن العقد والحوادث في الروايات تجذب انتباهي بقدر وجهات النظر المتبينة لي • وكنت أمنح نفسي بكليتها لكل قصة دون تحفظ ، دون أن أحاول انتقادها ؛ كان يكفيني أن أرى وأحسّ أشياء مختلفة • وبالنسبة إليّ ، كان كل شيء مختلفاً • كانت القراءة أشبه بدواء ، أو طلاء • وخلقت الروايات أمزجة كنت أعيش فيها طوال أيام • إلا أنني عجزت عن قهر إحساسي بالذنب ، وشعوري بأن الناس البيض حولي يعرفون أني أتغيّر ، وأني بدأت أنظر إليهم بشكل مختلف •

وكلما حملت كتاباً الى العمل ، فأنا ألفّه في صحيفة ــ وهي

عادة تشبثت بها طوال سنوات في بلدان آخرى وفي ظـروف أخرى . إلا أن بعض الرجال البيض نبشوا محفظتي خلال غيابي وسـألوني :

ــ يا صبيّ ، لماذا تقرأ هذه الكتب ؟

ــ أوه ، لست أدري ، يا سـادة .

ــ أنت تقرأ أشياء عميقة ، يا صبي .

ــ إني أقتل الوقت ، يا سـادة .

ــ لسوف تفسد عقلك إذا لم تنتبه .

وقرأت قصتي دريزر « جيني جيرهارد » و « الأخت كاري » . فأحيتا فيّ شعوراً شديداً بآلام أمي . وكان ذلك الشعور عنيفاً جداً ، فأصبحت صموتاً ، أتساءل عن الحياة المحيطة بي . كان يستحيل عليّ أن أخبر أحداً بما استقيته من تلك الروايات ، لأن ذلك لم يكن أقل من شعور بالحياة ذاتها . كانت حيـاتي كلها قد جبلتني من أجل الواقعية ، أو ذلك المذهب الطبيعي الذي تدين الرواية الحديثة به ، فما كنت أشبع من قراءتها .

وابتعت ماعون ورق ، مجروفاً بتأثير أمزجة وأفكار جديدة ، وحاولت الكتابة . لكن شيئاً لم ينتج عن محاولتي ، أو أن ما نتج لم يك يستحق أن يُروى . واكتشفت أن الكتابة تتطلب شيئاً أكثر من الرغبة والاحساس ، فاطرحت عني تلك الفكرة . ورغم ذلك ظللت أتساءل كيف يمكنني أن أعرف الناس بما فيه

الكفاية لأكتب عنهم ؟ هل أستطيع في يوم من الأيام أن أفهم الناس والحياة ؟ كان ذلك بالنسبة إليّ ، بجهلي العظيم ، ومكانتي في الحياة ، مهمة يستحيل تحقيقها فيما يبدو . وأنا أعرف الآن ماذا يعني أن يكون المرء زنجياً . إني أستطيع أن أتحمّل الجوع . وقد تعلمت العيش مع الحقد . أما أن أشعر بأن ثمة أحاسيس ينكرها الناس عليّ ، وأن روح الحياة ذاتها بعيدة عن متناول يدي ، فذلك يجرحني ويؤذيني أكثر من أي شخص آخر . إن في نفسي لجوعاً جديداً .

كانت القراءة ، رغم أنها تثلج صدري ، تغمّني وترمضني ، وتريني الأشياء التي كانت ممكنة ، والأشياء التي افتقدتها . وعاد إليّ توتري ، جديداً ، مرعباً ، مراً ، صاخباً ، يكاد أن يكون أعظم من أن تضمه جوانحي . ولم أعد « أحسّ » أن العالم من حولي عدائي قاتل . إني « أعرفه » . وسألت نفسي مليون مرة ماذا في مقدوري أن أفعل لأخلص نفسي ، فلا أجد أي جواب على الاطلاق . وبدا أني محكوم ، إلى الأبد ، بين جدران صلبة .

ولم أبحث موضوع مطالعاتي مع السيد فولك الذي أعارني بطاقته . إن ذلك ليعني الحديث عن نفسي ، وهو ما سيكون شديد الإيلام . كنت أبتسم كل يوم ، محاولاً بيأس الاحتفاظ بسلوكي القديم ، الاحتفاظ بإشراق نفسي . غير أن بعض

الرجال البيض فطنوا إلى أني بدأت أمعن التفكير .

قال السيد أولين ذات يوم :

ـ هيا استفق هناك ، يا صبي !

فأجبت ، إذ لم أعثر على كلمة أفضل :

ـ سيـــدي !

ـ أنت تتصرف فكأنك سرقت شيئاً .

فضحكت بالطريقة التي أعرف أنه يريدني أن أضحك بها ، لكنني عزمت على أن أكون أكثر وعياً لنفسي ، وأن أراقب كل حركة تصدر عني ، وأن أحرس وأخفي المعرفة الجديدة التي كانت تشرق في داخلي .

إذا ذهبت شمالاً ، فهل سيكون إذن في مقدوري أن أبني حياة جديدة ؟ لكن ، كيف يستطيع الرجل أن يبني حياة على آمال مبهمة لم تتشكل بعد ؟ كنت أريد أن أكتب ، وأنا لا أفقه اللغة الانكليزية جيداً . واشتريت كتب قواعد انكليزية فوجدتها مضجرة . وشعرت أني أحصل على حس باللغة أفضـــل في الروايات منه في كتب القواعد . ورحت أقرأ بقسوة ، مهملاً الكاتب حالما أحس أني هضمت وجهة نظره .

وفي الليل ، كانت الكلمات المطبوعة تنتصب أمام عيني في نـــومي .

سألتني السيـــدة موس ، صاحبة غرفتي ، ذات أحـــد

صبـاحاً :

ـ يا بنيّ ، ما هذه الأشياء التي تداوم على قراءتها ؟

ـ أوه ، لا شيء • إنها روايات فقط •

ـ وماذا تستنتج منها ؟

ـ إني أقتل الوقت فقط •

ـ آمل أن تكون عارفاً بما تريد •

ولكن لهجتها وهي تقول ذلك كانت تنمُّ عن ارتيابها في أن أكون عارفاً بما أريد •

لم أكن أعرف زنوجاً يقرأون الكتب التي أحبّ ، وتساءلت هل فكر فيها أحد" من هؤلاء الزنوج • كنت أعرف أن ثمة أطباء من الزنوج ، ومحامين ، وصحافيين ، إلا أنني لم أرَ أحداً منهم • وحينما كنت أقرأ صحيفة زنجية ، فإني لم أكن أعثر في صفحاتها على أدنى صدى عن القضايا التي تشغلني وتقلق بالي • وكنت أحسُّ أحياناً أن فخاً منصوباً لي ، فأنقطع عن القراءة طوال أيام • غير أن جوعاً مبهماً يمتلكني ويدفعني إلى الكتب ، الكتب التي فتحت طرقاً جديدة من الشعور والرؤية ، فأزوّر من جديد ملاحظة أخرى لقيّمة المكتبة ، وأروح من جديد أقرأ وأتساءل مثلما يستطيع الساذج والأمي وحده أن يقرأ ويتساءل ، مستشعراً أني أحمل عبئاً سرياً محرماً يتجول معي كل يوم •

وقدمت أمي وأخي ذلك الشتاء ، وبدأنا ندبر أمور البيت ، ونشتري أثاثاً حسب خطة مدروسة ، فيغشوننا ، لكننا لا نعرف سبيلاً لتفادي ذلك . وبدأت آكل طعاماً ساخناً . واكتشفت ، لفرط دهشتي ، أن الوقعات المنتظمة تمكنني من القراءة بسرعة أكثر . ولعلي تعرضت لأمراض عديدة وتغلبت عليها دون أن أرتاب في ذلك قط . وحصل أخي على عمل ، فشرعنا ندخر لرحلتنا إلى الشمال ، وندبر أوقاتنا ، ونرسم تواريخ غير مؤكدة للرحيل . ولم أخبر أحد من الرجال البيض في محل عملي بنيتي للانتقال شمالاً . كنت أعرف أنهم سيتغيرون تجاهي حالما أخبرهم بأني أفكر في الشمال . ذلك قد يجعلهم يعتقدون أني لم أحب الحياة التي يعيشون ، وبما أن حياتي مشروطة تماماً بما يقولون أو يفعلون ، فمن الأفضل ألا أتحداهم .

ولأستطيع أن أقدر حظي في الحياة في الجنوب كزنجي بوضوح تام الآن .

ولأستطيع أن أقدر حظي في الحياة في الجنوب كزنجي الآخرين ، مثلما فعل جدي . لكنني كنت موقناً بأني لن أنجح بهذه الطريقة ، فثمة كثرة من البيض ، وليس سوى قلة من السود . كانوا أقوياء ، وكنا ضعفاء . لا يمكن للتحرر الأسود أن يربح قط . وإذا قاتلت علناً فسأُقتل ، وما كنت أريد أن أموت ، فقد كانت أخبار الشنق الاعتباطي كثيرة .

كنت أستطيع الرضوخ والعيش عيشة عبد أنيس . لكن هذا مستحيل . لقد علمتني حياتي أن أعيش بأحاسيسي وأفكاري الخاصة . ويمكن أن أتزوج بس وأرث البيت . لكن هذا ، أيضاً ، سيكون حياة عبودية . فإذا فعلته ، فسأسحق حتى الموت شيئاً بداخلي ، وسأبغض نفسي بقدر ما أعرف أن البيض يبغضون أولئك الذين أخضعوهم . وأنا لن أرضى قط بعرض نفسي للضرب ، مثلما فعل شورتي . إن الموت لأهون عليّ إذن .

كنت أستطيع تصريف تبرّمي بالقتال مع شورتي وهاريسون. لقد شاهدت عديداً من الزنوج ينفّسون عن وجودهم الأسود بنقل حقدهم من أنفسهم إلى سود آخرين فيقاتلونهم . وكان يجب أن أكون بارداً لأفعل هذا ، ولكن لم أكن بارداً وما كنت أقوى على فعله .

كنت أستطيع ، طبعاً ، أن أنسى ما قرأت ، وأن أنفض البيض من ذهني ، وأسدل عليهم ستار النسيان ، وأجد متنفساً للقلق والحنين في الكحول والجنس . لكن ذكرى أبي وكيف كان سلوكه في الحياة جعلت هذه السبيل مستكرهة تعافها النفس . ما دمت لا أريد أن يعتدي الآخرون على حياتي ، فكيف يمكن أن أعتدي أنا نفسي عليها ؟

ولم يكن عندي أدنى أمل في احتراف مهنة ما . ليس لأن

الحياة قد كيفتني بحيث لا أرغب في ذلك مطلقاً ، بل لأن تحقيق مثل هذا الطموح يتجاوز إمكانياتي • إن الزنوج المرفّهين يعيشون في عالم غريب عليَّ بقدر غرابة العالم الذي يقطنه البيض •

ما عساني أفعل إذن ؟ كنت أحمل حياتي في عقلي ، في وعيي كل يوم ، أحسُّ بين فترة وفترة أني سأتعثر فأسقطها وأخسرها إلى الأبد • وقد خلفت مطالعاتي حساً عظيماً بالفراغ القائم بيني وبين العالم الذي عشت وحاولت أن أكسب معيشتي فيه • وذلك الحس بالفراغ كان يزداد يوماً بعد يوم • كانت أيامي ولياليَّ حلماً واحداً طويلاً ، هادئاً ، مكبوتاً باستمرار ، يحمل الرعب ، والتوتر ، والقلق • وكنت أتساءل إلى متى أستطيع أن أتحمل ذلك •



١٤

شكلت زيارة الخالة ماجي الطارئة لمفيس قاعدة عمليـة لخطتي في التوجه شمالاً . كان زوج الخالة ماجي ، « الخال » الذي هرب من أركنساس في منتصف الليل ، قد هجرها . وهي الآن تجاهد للحصول على ما يقيم أودها . ورحنا نعقد ، أمي والخالة ماجي وأخي وأنا ، مؤتمرات طويلة ، ونمعـن النظر في توفر الأعمال وتكاليف المعيشة في شيكاغو . وكلما اجتمعنا

مرة ، فنحن نُخيِّب آمال أنفسنا • إنه يستحيل بالنسبة إلى أربعتنا أن نرحل على الفور ، فنحن لا نملك مالاً كافياً •

وأخيراً ، تغلب الأمل والأماني الفرحة على حسنا السليم وواقعنا • فاكتشفنا أننا إذا انتظرنا حتى نصبح متهيئين للذهاب ، فنحن لن نذهب أبداً ، لأننا لن نجمع قط ما يكفي من المال لنرحل جميعاً • يجب أن نقامر • وقررنا أخيراً أن نرحل ، الخالة ماجي وأنا ، أولاً ، رغم أن الوقت شتاء ، ونهيىء مكاناً لأمي وأخي • ولمَ ننتظر حتى الأسبوع أو الشهر المقبل ؟ وإذا كنا سنذهب فلمَ لا نذهب الآن ؟

وظهرت بعدئذ مشكلة انفصالي عن عملي باستقامة ، ولطف، دون أي جدال أو مشاجرة • كيف يمكن أن أقدّم قصة رحيلي للمعلم ؟ أجل ، سوف أقف وقفة صبي بريء ، وأروي له أن خالتي ستصحبني وأمي المشلولة إلى شيكاغو • وسيوحي له هذا بأني لا أنفذ إرادتي ، ويستبعد أية إمكانية للنفور من جانبه حيال تصرفي • كنت أعرف أن البيض الجنوبيين يكرهون فكرة رحيل الزنوج للعيش في أمكنة يكون الجوّ العنصري فيها مختلفاً •

وعملت طبقاً لمشروعي • حينما أعلنت عن عزمي في الرحيل قبل يومين من رحيلي ــ كنت خائفاً من إعلان ذلك قبلاً لئلا أخلق عداوة في صف البيض الذين أعمل معهم ــ استند المعلم

الى كرسيه المتحرك ، ورمقني بأطول نظرة متفكرة رمقني بها قط ، وردّد بلطف :

ــ شيكـاغو ؟

ــ أجل ، يا سيدي •

ــ يا صبي ، لن تحب تلك البلاد هنالك •

فقلت :

ــ حسناً ، ينبغي عليّ أن أذهب حيث تذهب عائلتـي ، يا سيـدي •

وتوقف عمال المكتب البيض الآخرون عن عملهم وأرهفوا آذانهم • وازددت توتراً ويقظة •

قـال :

ــ والمناخ بارد هناك •

فرددت ، محتفظاً بنغمة صوتي الطبيعية :

ــ أجل ، يا سيدي • يقولون ذلك •

وأدرك أني أنظر إليه فحوّل نظره عني ، وهو يضحـك مضطرباً ليخفي جزعه وامتعاضه •

قال مازحـاً :

ــ والآن ، يا صبي ، لا تذهب إلى هناك وتسقط في تلك البحيرة •

فقلت ، مبتسماً فكأن إمكانية سقوطي عرضاً في بحـيرة

ميشيجان صحيحة :
ـ أوه ، كلا ، يا سيـــدي •
وعادت رزانته إليه من جديد ، فحدّق إليّ • ونظرت الى الأرض • ســـأل :
ـ أتحسب أنك ستقوم بعمل أفضل هنالك ؟
ـ لست أدري ، يا سيدي •
ـ يبدو أنك بدأت تنجح في العمل ههنا •
فكذبت بقدر ما استطعت من لهفة :
ـ أوه ، بلى ، يا سيدي • لو لم تك القضية بشأن والدتي لبقيت هنا وعملتُ •
فاقترح :
ـ حسناً ، لمَ لا تبقى ؟ تستطيع أن ترسل إليها مالاً •
لقد أوقعني في الشرك ، وعرفت أن البقاء الآن لن يفيد • ولست أستطيع حماية صلاتي مع البيض إذا بقيت بينهم بعدما عالنتهم أني أريد الانطلاق إلى الشمال •
قلت :
ـ حسناً ، أريد أن أكون إلى جانب أمي •
فردّ في كســـل :
ـ تريد أن تكون إلى جانب أمك • حسناً ، يا ريتشارد ، لقد سررنا من وجودك بيننا •

فكذبت :

ـ وقد سررتُ بدوري من العمل هنا .

وكان ثمة صمت .

وقفت مرتبكاً ، ثم تحركت صوب الباب . وظلّ الصمت سائداً . كانت وجوه البيض تنظر إليّ في استغراب . وصعدت الدرج ، أحسُّ أني مجرم . وانتشرت الكلمة سريعاً في المعمل ، ونظر إليّ الرجال البيض بعيون جديدة . وجاؤوا إليّ :

ـ وهكذا ، فأنت راحل الى الشمال ، أليس كذلك ؟

ـ أجل ، يا سيدي . إن عائلتي ستصطحبني .

ـ الشمال لا يصلح لكم ، أنتم الزنوج .

ـ سأحاول التكيّف معه ، يا سيدي .

ـ لا تصدّق تلك الروايات التي سمعتها عن الشمال .

ـ كلا ، يا سيدي ، لن أصدقها .

ـ سترجع إلى هنا حيث رفاقك .

ـ حسناً ، يا سيدي ، لست أدري .

ـ كيف ستتصرف هنالك ؟

ـ مثلما كنت أتصرف ههنا ، يا سيدي .

ـ هل ستتحدث إلى فتاة بيضاء هنالك ؟

ـ أوه ، كلا ، يا سيدي . سأتصرف هنالك مثلما تصرفت هنا تماماً .

ـ آه ، كلا ، أنت لن تفعل • ستتغيَّر • الزنوج يتغيرون حين يذهبون شمالاً •

وأردت أن أخبره أني ماضٍ إلى الشمال لأتغير خصيصاً ، لكني لم أفعل •

قلت ، محاولاً أن أشير إلى أني لا أحمل أية تصورات على الاطلاق :

ـ سأكون هنالك مثلما كنت هنا •

كنت أشعر وأنا أتحدث بأنني أمثل في حلم • لم يكن بودي أن أكذب ، ولكنني كنت مضطراً لإخفاء مشاعري • فقد كان يقف فوقي رقيب أبيض ، وكما تؤلف الأحلام سدلاً لسلامة النوم ، كانت أكاذيبي تشكل ستاراً يحمي حياتي •

قال :

ـ يا صبي ، أراهن أنك قرأت كثيراً من تلك الكتب اللعينة •

فأجبت :

ـ أوه ، كلا ، يا سيدي •

وقمت برحلتي الأخيرة إلى دائرة البريد ، ثم عدت فوضعت حقيبتي جانباً ، وغسلت يدي ، وأحكمت قبعتي على رأسي • ألقيت بعدئذ نظرة سريعة إلى المصنع ، كان الرجال فيه يعملون متأخرين • ونظر واحد أو أثنان إليّ • أما السيد فولك الذي كنت قد أعدت له بطاقة المكتبة فقد حظاني بابتسامة

سريعة مختلسة • سرت نحو المصعد ونزلت فيه مع شورتي :
قال بمرارة :
ـ أنت يا ابن الزنا المحظوظ •
أجبت :
ـ فيمَ تقــول ذلك ؟
ـ لقد اقتصدت أموالك اللعينة وها أنت ذاهب •
قلت :
ـ إن مشاكلي لتبدأ الآن •
فقال :
ـ لن تواجه مشاكل أصعب مما عرفت هنا •
ـ أرجو ذلك • ولكن الحياة غير مضمونة •
بصق على الأرض بغضب :
ـ إني أشعر أحياناً بالجنون حتى أنني أود أن أقتل كل إنســان •
قلت :
ـ باستطاعتك أن ترحل •
فأجاب ضاحكاً :
ـ لن أبرح هذا الجنوب اللعين قط • إنني أقول دائماً إنني راحل ، ولكنني لن أذهب •• فأنا كسول • وفوق ذلك مغرم بالنوم • سأنهي حياتي هنا • أو ربما ينهوها لي •

وغادرت المصعد إلى الشارع منتظراً أن أسمع أحداً يناديني أن أرجع فالأمر لا يعدو أن يكون حلماً ، وأنني لست براحل أبـــداً .

تلك هي الثقافة التي نبعت منها . وذلك كان الرعب الــذي هربت منــه .

في اليوم التالي ، وأنا على متن قطار شمالي سريع ، لم أكن أستطيع فيما لو سئلت أو أوضح ما هي القوى المختلفة التــي كانت تحملني على نبذ الثقافة التي صهرتني وصاغتني . كنت أرحل دون أدنى ندم ، ودون نظرة إلى الوراء مطلقاً . كان محيا الجنوب الذي عرفته معادياً منفراً ، ومع ذلك فقد توصلت بطريقة ما ، في النزاعات واللعنات ، من الضربات ومشاعر الغضــب والتوتر والرعب ، إلى التفكير بأن الحياة يمكن أن تكون مختلفة ، يمكن أن تعاش بطريقة أغنى وأكمل . وكما حدث حين هربت من دار الأيتام ، فقد كنت أهرب الآن من شيء ما أكثر منــي أسعى نحو شيء ما . بيد أن ذلك لم يكن ذا أهمية بالنسبة إليّ . كان كل شعوري هو أنه لا بدّ لي من الذهاب بعيداً ، وأني لا أستطيع سبيلاً إلى البقاء .

ولكن ما الذي يجعلني أشعر ذلك الشعور بصورة مستمرة ؟ ما الذي يجعلني أعي وجود إمكانيات أخرى أمامي ؟ من أيــن حصلت في ذلك الظلام الجنوني على حسّ بالحرية ؟ وكيف تمكنت

من أن أتصرف حسب مفاهيم مبهمة ؟ ما الذي يجعلني أحسُّ الأمور بصورة عميقة كفاية بالنسبة إليَّ ، بحيث تحملني على تنظيم حياتي وفقاً لمشاعري ؟ مما لا ريب فيه أن العالم الخارجي المؤلف، من البيض والسود ، وهو العالم الوحيد الذي عرفته طوال حياتي ، لم يبعث فيَّ أي إيمان بنفسي • إن الناس الذين التقيت بهم قد نصحوني بالخضوع وطلبوا هذا الخضوع مني • ما الذي أسعى إليه إذن ؟ كيف أجرؤ على اعتبار مشاعري متفوقة على المحيط الأبله الذي يحاول السيطرة عليَّ ؟

إني لم أستطع أن أحتفظ بنفسي حياً ، بطريقة حية بصورة سالبة ، إلا بواسطة الكتب ـ وهي في أحسن حال لا تزيد عن كونها انفعالات ثقافية غير وطيدة الأسس • وكلما قصّرت بيئتي في دعمي أو تغذيتي ، كنت ألجأ إلى الكتب ، وبنتيجة ذلك كان إيماني بالكتب قد نشأ عن إحساس باليأس أكثر منه عن اعتقاد جازم بقيمتها العظيمة • إن الحياة قد أوقعتني ، بمعنى ما ، في شرك عالم من النبذ العاطفي ، بحيث أني لم أعتنق التمرد بملء إرادتي • ولما كنت أعيش ، عاطفياً ، على هامش الثقافة الجنوبية الرقيق ، فقد شعرت بأن أعمالي وقراراتي ارتبطت بلا شيء دون الحياة نفسها ، وكنت بالتالي قد اعتدت التبدل ، والانتقال ، والتكيف •

وكان أملي كله هو نوع من الدفاع الذاتي ، اعتقاد" بأني

سأموت ما لم أرحل ، إما بسبب ما يمكن للآخرين أن يطبقوه من عنف ضدي ، وإما بسبب ما يمكن أن ألجأ إليه من عنف ضدهم ؛ وكان جوهر هذا الأمل عديم الشكل ، خالياً من أي توجيه ، لأني لم أجد في حياتي في الجنوب أية إشارة موجهة أستطيع بها أن أوجه أفعالي اليومية بصورة إيجابية • إن صدمات الحياة الجنوبية قد جعلت شخصيتي رقيقة منتفخة ، متوترة نزقة ؛ بحيث كان هربي أقرب إلى إفلات من الأخطار الخارجية والداخلية منه الى محاولة لاعتناق ما كنت أحسُّ أني أريد الحصول عليه •

وكانت مطالعاتي العابرة للقصص والنقد الأدبي هي التي أثارت في نفسي ومضات غامضة عن إمكانيات الحياة • وصحيح أني لم أرَ أو أجتمع قط بالرجال الذين كتبوا تلك الكتب التي قرأت ، كما أن العالم الذي كانوا يحيون فيه قد كان غريباً عني بصورة لا تقلُّ عن غرابة القمر • بيد أن ما مكنني من التغلب على الانعدام الدائم للثقة عندي هو أن هذه الكتب ــ التي وضعها أمثال دريزر ، وماسترز ، ومينكين ، وأندرسن ، ولويس ــ كانت تلوح نقدية بصورة دفاعية للبيئة الأميركية الجافة • كان يلوح أن هؤلاء الكتاب يشعرون أن أميركا يمكن أن تصيَّر أقرب إلى قلوب أولئك الذين يعيشون فيها • ولقد كان ذلك الخضاب من الدفء الذي أحسسته يلمس وجهي صادراً من نور غير مرئي

ينطلق من هذه الروايات والقصص والمقالات ، ينطلق من هذه الكتلة العاطفية من التراكيب الخيالية عن أفعال بطولية أو فاجعة، وإذا رحلت ، فقد كنت أتوق إلى ذلك النور غير المرئي ،محاولاً على الدوام الاحتفاظ بوجهي في وضعية تجعلني لا أفقد الرجاء في وعده الواهي ، مستخدماً إياه كمسوغ لي في الفعل .

إن الجنوب الأبيض يقول إنه يعرف « الزنوج » ، ولقد كنت ما يدعوه الجنوب الأبيض « زنجياً » . حسناً ، إن الجنوب الأبيض لم يعرفني قط ، لم يعرف قط ما أفكر فيه ،وما أحسّه . وإن الجنوب الأبيض يقول إن لي « مكاناً » في الحياة . حسناً ، إني لم أحسّ قط « مكاني » ؛ أو بالأحرى إن أعمق غرائزي قد جعلتني أرفض على الدوام « المكان » الذي خصني الجنوب الأبيض به . إنه لم يخطر لي قط أني كائن أدنى في أي شكل من الأشكال ، وليس ثمة كلمة سمعتها يوماً تسقط من شفاه الرجال البيض الجنوبيين قد جعلتني قط أرتاب حقاً في قيمة إنسانيتي الخاصة . صحيح أني كذبت ، وأني سرقت . ولقد ناضلت كي أكبت غضبي الغالي . ولقد قاتلت الآخرين . ولعله كان من قبيل المصادفة المجردة أني لم أقتل قط ، ولكن بأية طريقة أخرى سمح لي الجنوب أن أكون طبيعياً ، أن أكون واقعياً ، أن أكون ذاتي ، أللهم إلا عن طريق الرفض ، والتمرد ، والعدوان ؟

ولم يجهلني البيض الجنوبيون فحسب ، بل الأهم من ذلك أن الفرصة لم تسنح لي ، وأنا أعيش في الجنوب ، كي أتعلم من أنا • إن ضغط الحياة الجنوبية قد أعاقني عن أن أكون الشخص الذي كان يمكن أن أصير إليه • لقد كنت ما كان يريدني محيطي أن أكونه ، ما ألزمتني به عائلتي ــ طبقاً لأوامر البيض الذين فوقها ــ وما قال البيض إنه يجب أن أكونه • وإذا لم أستطع قط أن أكون ذاتي بصورة كلية ، فقد تعلمت ببطء أن الجنوب لا يمكن أن يعترف إلا بجزء فقط من الانسان ، لا يمكن أن يقبل إلا نفة من شخصيته ، وأن كل ما عدا ذلك ــ الأشياء الأفضل والأعمق للقلب والفكر ــ يلقي بها بعيداً بجهلٍ أعمى وحقدٍ دفين •

كنت أغادر الجنوب كي ألقي بنفسي في المجهول ، كي أجابه أوضاعاً أخرى ربما تتطلب مني ردود فعل مختلفة • وإذا كان في مكنتي أن أجابه كفاية من حياة أخرى ، فلعلي أستطيع إذن ، بصورة بطيئة وتدريجية ، أن أتعلم من كنت ومن عساني أكون • ولم أكن أغادر الجنوب كي أنسى الجنوب ، بل كي أستطيع في يوم من الأيام أن أفهمه ، كي أخلص إلى معرفة ما صنعت قسوته بي ، بأبنائه • لقد هربت كيما يذوب خدر حياتي الدفاعية فيتركني أحس الألم ــ بعد سنوات وبعيداً جداً ــ الذي تعنيه الحياة في الجنوب •

ومع ذلك فإني كنت أعرف ، في أعمق أعماقي ، أني لــن

أستطيع قط أن أغادر الجنوب حقاً ، لأن مشاعري قد سبق فتكونت بفعل الجنوب ، لأن ثقافة الجنوب قد ثبتت ببطء في شخصيتي ووجداني ، رغماً عن سوادي . وهكذا فقدكنتأحمل معي ، وأناأغاد الجنوب ، جزءاً من هذا الجنوب كي أغرسه في تربة غريبة ، كيما أرى إذا كان في مقدوره أن ينمو بصورة مختلفة ، ما إذا كان في مقدوره أن يشرب من أمطارٍ جديدة وباردة ، وينحني لرياح غريبة ، ويتجاوب مع دفء شموسأخرى ، وربما أن يزدهر ... وإذا ما تمت تلك المعجزة ، فسوف أعرف عندئذ أنه لا يبرح ثمة رجاء في ذلك المستنقع الجنوبي من اليأس والعنف ، وأن النور يمكن أن ينبثق حتى من أشد ليالي الجنوب سواداً . ولسوف أعرف أن الجنوب أيضاً يمكن أن يتغلب على خوفه ، وحقده ، وجبنه ، وإرثه من الألم والدم ، وحمله من القلق والقسوة القسرية .

وهكذا توجهت شمالاً ، بعينين حذرتين دائماً وندبات جلودة أبداً ، منظورة وغير منظورة ، تملؤني فكرة غامضة بأن الحياة يمكن أن تعاش بكرامة ، وأن شخصيات الآخرين يجب ألا تكون فريسة العدوان ، وأن البشر يجب أن يكونوا قادرين على مجابهة غيرهم من البشر دونما خوف أو خجل ، وأن البشر إذا كانوا محظوظين في حياتهم على الأرض ، فإنهم يستطيعون أن يكسبوا معنىً معوضاً لصراعهم وعذابهم ههنا تحت الكواكب .

ادب ريتشارد رايت

ولد ريتشارد رايت سنة ١٩٠٨ في احدى مزارع الميسيسيبي . وكان أبوه عاملا في أحد معامل النسيج وأمه معلمة مدرسة . وقد عمل عند بلوغه الخامسة عشرة من عمره حمالا . وقد قادته قراءته لاحدى مقالات الناقد الادبي مينكين الى معرفة الاثار الادبية التي نقدها ، فقرأ بشغف كتبا استعارها بواسطة أحد أصدقائه البيض من المكتبة العامة ، وعمل في مهن متعددة ، ثم عزم بعد ذلك على أن يصبح كاتبا فعرف في نيويورك البؤس والشقاء الى أن حملت اليه كتبه وفي مقدمتها « أبناء العم توم » ، « والصبي الاسود » ، الشهرة واليسر المادي . ان كتب ريتشارد رايت صرخة مدوية تعبر عن ثورة السود على الظلم والاضطهاد وتصور بصورة واقعية المآسي التي يعانيها هذا العرق المظلوم ، علما بأن هذه المؤلفات لا تدعو الى العنف واستعمال القوة ، لان ريتشارد رايت لم ينزع في كل ما كتب نزعة سياسية بل حاول عن طريق الفن الدفاع عن قضية تحتوي جميع عناصر الانتصار المنطقية والاقناعية والتي من شأنها تحريك الضمير الانساني نحو هذه القضية العادلة .

ويجب على قارىء كتب ريتشارد الا يغفل أثناء قراءة آثاره عن حقيقة مؤلمة هي تلك الحواجز التي نصبها البيض بينهم وبين السود والتي يحاول ريتشارد رايت جاهدا احداث ثغرات فيها ، ولعله يوفق الى ذلك بفضل نبوغه الادبي ، وأصالته الرائعة .

دمشق في ١٩٦٢/٦/٢٨

الدكتور ابراهيم الكيلاني

ملتزم الطبع والنشر

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

بدمشق